قامةٌ عربيّةٌ مَهيبَةٌ

الدكتورة نجوة قصاب حسن
وزيرة الثقافة

﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾

صدق الله العظيم

رموز خالدة تصبح عنوانًا لوطن ، ومنارةً يهتدى بها . قامةٌ عربية مهيبة ماتزال ظلالها صور عطاء، ونفحات طيب لا تنضب، معلمٌ لأمةٍ منحت العالم أبجدية اللغة والفكر، فأفاض عليها أبجديات النضال المكونة من الحق والخير والعدل، لتكون دعائم مدرسةٍ سجل التاريخ نهجها صحائف عزة وشرف.

كيف يغيب من لا يزال يعيش في نبض القلوب، وكيف يبعد من تسترجع نتاجه الملايين التي كانت ساكنة في ضميره ووجدانه، يحميها ويبني لها المستقبل، لايترك مجالاً أو منحى إلا ولامسه بالتطوير والتغيير وإعادة البناء !

نحن كما في كل يوم نعيش في فضاء عطاءات أرست دعائم استقرار سورية واستمرار نهجها المستنير، نعيش على أرض بنيت فيها المؤسسات لتكون ركائز تقدم وارتقاء، وتتكامل في إطارها القوى الوطنية الهادفة لخير المجتمع والإنسان.

لغة خطابنا إليك أيها القائد الخالد بذكرك وعملك وإسمك المشرّف هي اللغة ذاتها التي أحببتنا أن نعبر بها عن ولائنا لك وللوطن، لغة اليد التي تبني، والعين الساهرة التي تحمي ما أردت أن ينجز لأبناء المستقبل.

أن نتوجه اليوم إليك رمزاً وروحاً فياضةً بالمحبة والعطاء هو أن نحقق ما أردت لهذا الشعب الذي كنت ابنه الحقيقي، ومعلمه، وقائده.

هو أن يعمل كلٌ في إطاره ليحقق دوره، ويؤدي الرسالة التي نذرت نفسك وعمرك لإيصالها للعالم، رسالة إنسانية خالدة توثق هويتنا وتاريخنا الممتد إلى زمن بزوغ الحضارات.

أن نقف مع ذواتنا في الذكرى الثانية للوداع الدامع الذي شاركت به جموع الملايين من محبيك ومريديك إنما هي إحدى اللحظات الزمنية من

استرجاع دائم متدفق لصور المحبة والعطاء، واستعادة شفافة ترافقها تفاصيل الحياة التي امتدت عبر عقود زمنية كنت سيدها ورائدها، وعقود قادمة رسمت خطوطها العريضة ثوابت وطنية ومبادئ يؤمن بها كل عربي أصيل، ويجيد قراءتها كل من ينتمي إلى المدرسة النضالية التي تعلم الكرامة والعزة الوطنية، وماتزال تنشر نورها المعرفي والإنساني في ظل الراية المشرفة التي حمل أمانة الدفاع عنها السيد الرئيس بشار الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية. وما أعظمها من أمانة ورسالة! أصبحت أمل الجماهير وبارق النور الذي يسير بهديه كل عربي مايزال خافقه وفؤاده مشدوداً إلى هدف التحرير وبناء وطن الكرامة.

فليهدأ فؤادك أيها الخالد الذي طالما حمل هموم الوطن، وأراد لشعبه أن يرتقي، وأن يصمد في وجه كل التحديات.

على الأسس ذاتها نسير، وتحت راية الحق ذاتها مازالت الريادة تبني، وتتقدم دولة المؤسسات وترسخ، ماتزال دعائم الديمقراطية الشعبية في تجربة دائبة مع مسيرة الحياة، وصروح العلم والثقافة تستكمل أدوارها في نشر الفكر الحضاري المستنير، والأجيال التي أردت لها تعليماً وتثقيفاً ومجالات أوسع للارتقاء ماتزال تتعلم وتقرأ بين السطور إنجازاتك وعطاءاتك، وجنود الأسد ماتزال جنود الأسد القائد الرائد الذي يجابه التحديات، ويوضح للعالم مفاهيم العدل والمقاومة الوطنية ومنهجية التطوير والبناء المتجدد.

إن أحداث التاريخ هي التي تجيب الآن على ماكنت قد رسمته من رؤى وتقديرات، والمجد أبى إلا ان يربط اسمه بك عظيماً، وبمدرستك نهجاً تتعلم منه الأجيال كيف يكون الصدق والانتماء للوطن والأهداف.

نجدد لك العهد صادقين حين نخلص لهذا الوطن الذي ارتسمت حدوده وآفاقه في عينك الساهرة، عملاً ودأباً وخلقاً والتزاماً، هكذا يكون الوفاء لما أردت. وما أردت كان حلم الشعب الذي انتظرت تحقيقه الأجيال. وهي الآن تتابع الخطا واثقة من قائد مسيرتها السيد الرئيس بشار الأسد، القائد العارف كيف تكون الريادة أمانة ومسؤولية أمام العالم والتاريخ، والقادر على شحذ الهمم، وتوجيه المسار، والمؤمن بوفاء هذا الشعب وصدق انتمائه لراية الأسد المشرفة.

الوشم المرصع بالغار

حسين حموي
رئيس التحرير

حين كان التاريخ بلحيته الكثة، وظهره المقوس، جالسًا في ظل سنديانة هرمة، ضربت جذورها في أعلى مشارف القمم، وأطلقت أصابع أغصانها باتجاه السماء، تنتظر الغيث وشروق الشمس؛ كان النسر بجناحيه القويين، يحلق في فضاءات الحرية باتجاه تلك القمة. حاملاً بيديه مشعلاً لايمتوره الانطفاء. وبعض أوراق مرصّعة بماء الياقوت،

وحروفا مكتوبة بماء الذهب. خرج من قلب إحدى القمم الشماء يحمل ذاكرة أمة، وأحلام شعب، ليشيد قلعة عصية على السقوط في يد الأعداء، على أعلى قمة، ويكتب في سجل الخالدين فاتحة الكلمات المنحوتة على صخرة من صخور أوغاريت، دورة فصول جديدة، وأبجدية جديدة، حروفها كالوشم المرصع بالغار والضياء.

وحين كان البحر تعصف بأمواجه الرياح الهوجاء، كان يحمل زوارق النجاة إلى السفن المهددة بالغرق، ويقود السفينة التي تخوض في صراع مع الموج والعاصفة إلى برّ الأمان، وشاطئ السلامة.

هكذا كان القائد الخالد حافظ الأسد، وهكذا كتب تاريخه الذي أصبح تاريخ أمة، وكلماته التي أصبحت ذاكرة شعب، بحروف من نضار.

أضاء عتمة ليل عربي داج طال امتداده، ورفع راية الحق والحرية، واستل صارمه بوجه الحواة، مدافعاً عن الأرض والكرامة، ومحدداً سمت الجهات لكل التائهين في البر والبحر والسماء. ومازال ذاك الشعاع يغذي تلك المنارات الممتدة على طول السواحل، ومازالت تلك البوصلة دليل البحارة إلى موانئهم في الليالي الحالكة والعواصف الهوجاء.

حين يهبط الظلام كثيفاً، والضباب عنيفاً، وتصعب الرؤية، ويموج الطريق غائماً كالسحاب، نرشف الضوء من مقلتيه، ونبحث عن زوارق النجاة في ضفتيه، ومن راحتيه.

فهو الغائب الحاضر الذي مازال قنديله مضاء مفعماً بأريج الأفكار الرائدة، والمواقف الخالدة على مدارات الفصول. وربيع عطاءاته على مدى ثلاثة عقود ونيف يُلون كل الفصول. وكل السهول، وكل الهضاب. ولما يزل هذا الربيع متجدداً فينا على مرّ العصور.

فإذا ما توسّد ذلك الجسد زند التراب، فإن قنديل الروح مازال مضاء بيدٍ تكفكف الدمع، وأخرى تمسك بناصية الشمس، لينبعث فجر جديد، وذاكرة عصيّة على النسيان.

كيف لا وطائر الفينيق الذي انبعث من رماد حرائق الجنوب، وأدغاله المكتنزة بالرجال الرجال مازال يحلق بجناحيه على مشارف القمم إياها. والبشارة التي كان ينتظرها الشعب على اختلاف منابته ومشاربه، حملها بكل محبة ومصداقية وشفافية، القائد الشاب المفعم بروح العصر والانفتاح الواعي، والقلب المستنير، والعقل الراجح السيد الرئيس بشار الأسد الذي تربى في كنف ذلك العرين، وترعرع في رحاب تلك القمة الشمّاء النضّاحة بالعزّة والأصالة والكبرياء. أضاف إليها لبنة جديدة من لبنات العصر ومتغيراته، لأن الحياة كما نعلمها في تغير مستمر، وفي تطور دائم، لا تعرف التوقف، ومن يقصّر عن مجاراتها، يبتعد بشكل أو بآخر عن ماهية العلم والتقدم والتحديث، وتدير له الحياة ظهرها، وتحكم عليه بالإفلاس والبلادة والتخلف، إذا لم نقل بالجمود

والموت. ولذلك جاء نهج التحديث والتطوير مواكبًا لحركة العصر، والمتغيرات الكونية التي لا يجوز أن تكون أمتنا خارجها.

وإذا كان القائد الخالد حافظ الأسد القائد الاستثنائي المتميز عن جميع القادة الذين مرّوا على هذه الأمة- والقادة العظام لا يمرون مرورًا عابرًا في تاريخ شعوبهم- فإن القائد الشاب الذي يمتلك مقومات القيادة السيد الرئيس بشار الأسد في ظل الظروف الاستثنائية الصعبة التي تمرّ بها أمتنا، يؤكد يومًا بعد يوم من خلال مواقفه القومية الشجاعة ورؤيته الصائبة أنه القائد المتمسك بالثوابت القومية، الذي لا ينحني ولا يضعف أمام الضغوطات التي يتعرض لها، الشاهق الشامخ كقاسيون، الداعم للحق العربي والانتفاضة الباسلة والمقاومة الشجاعة في وجه الغزاة الصهاينة الذين تتمثل في جرائمهم أبشع أشكال العنصرية والنازية الجديدة.

وانطلاقًا من هذه الرؤية الاستراتيجية العميقة الصائبة، وترسيخًا لنهج التحديث والتطوير، تكتب سورية الصمود تاريخها الجديد، وعلاماتها الفارقة، ومعالمها الحضارية والتاريخية الناصعة، من خلال زيادة اللحمة مع الأشقاء العرب، ومدّ جسور الحوار والمثاقفة مع الشعوب الأخرى المحبة للحرية والسلام.

القائد الخالد حافظ الأسد والنضال القومي

د. ماجد شدود (*)

انطلق القائد الخالد حافظ الأسد في تعامله مع القضايا القومية من استيعابه الشامل لطبيعة المرحلة التاريخية التي تمر بها الأمة العربية، وفهمه للتراث القومي، واطلاعه على التيارات الفكرية المعاصرة، ومعايشته حركة التحرر العربية، وفهمه لطبيعة الصراع العربي - الصهيوني وتداخل العوامل المؤثرة فيه، والخصائص والصفات النوعية المميزة له وكيفية تطوره، والخلل القائم في ميزان القوى بين الأمة العربية (وإسرائيل) المدعومة خارجياً، ويمكن تلمس تلك النظرة الاستراتيجية بالآتي:

(*) د. ماجد شدود: باحث من سورية، عضو القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي

١ - تحديد عوامل الضعف القائمة في الواقع العربي وتحديد أسبابها في التجزئة القطرية والتخلف والتبعية والصراعات البينية والهامشية بين الدول العربية على حساب صراع المصير والوجود.

٢ - تحديد المنطلقات الاستراتيجية القادرة على التعامل مع الواقع.

٣ - تحديد أساليب العمل والصيغ والوسائل القادرة على تنفيذ المنطلقات الاستراتيجية في ضوء الواقع ومتغيراته.

٤ - إجراء مراجعة شاملة لتحقيق عملية التكييف والمواءمة بين الأهداف الموضوعة والأدوات والوسائل القائمة والمتاحة ومسارات التطور.

لقد واجهت الحركة التصحيحية الكثير من التحديات على المستوى القومي وكان من أبرزها:

أولاً: الحركة التصحيحية والصراع العربي - الصهيوني:

تنبثق خصائص الصراع العربي - الصهيوني وسماته السياسية من طبيعة إسرائيل وأهدافها ووظائفها المختلفة في الوطن العربي، فقيام «إسرائيل» في فلسطين العربية، قلب الوطن العربي، ذروة التحدي الاستعماري الصهيوني للأمة العربية. والمشروع الصهيوني في «إسرائيل» لايزال مفتوحاً، ولم تتحدد ملامحه النهائية وحدوده التي يمكن أن يصل إليها، وهذا يرتبط في النهاية بتطورات الصراع، لأن «إسرائيل» في إطار نظرية المجال الحيوي والمخططات الصهيونية التوسعية ليست هدفاً نهائياً بل هي نقطة انطلاق نحو التوسع والسيطرة في الوطن العربي بهدف تأمين وجود «إسرائيل» الحالية كمنطلق وإيجاد مرتكزات «لإسرائيل» التاريخية كهدف.

ووضح القائد الخالد هذه الحقيقة **(إن أطماع الصهيونية واضحة كالشمس، فالأمر واضح في كتب الصهاينة** وتعاليمهم، **إنهم لايريدون فلسطين فقط أو قطعة أرض هنا أو هناك فقط، ولايريدون قطراً عربياً دون آخر، بل يريدون الأرض من النيل إلى الفرات).**

وهنا تبرز أمامنا مظاهر التناقض بين «وجود إسرائيل» ومخططاتها التوسعية و «نفي وجود الأمة العربية» وبالتالي تصبح معادلة «الوجود الإسرائيلي شرطاً لازماً لنفي الوجود العربي».

من خلال ذلك أُخذت تسمية الصراع العربي - الصهيوني.

فالصراع بمفهومه العام هو تصادم الإرادات والقوى بين خصمين أو أكثر بهدف تحطيم الخصم كلياً أو جزئياً، بحيث تسود إرادته على إرادة الخصم، أما الوسائل المستخدمة في الصراع فهي متعددة، سياسية، اقتصادية، اجتماعية، عسكرية إيديولوجية، تاريخية، ثقافية، علمية أي كل ما في المجتمع من قدرات وإمكانات، فالصراع يتصف بالشمولية من

حيث الأدوات والوسائل، وله أبعاد تاريخية ممتدة، وأبعاد مجتمعية متكاملة.

وقد حدد القائد الخالد الخصائص والسمات الأساسية للصراع العربي - الصهيوني:

١ - إنه صراع مصير: ووجود بين الأمة العربية بتراثها وتاريخها وحاضرها ومستقبلها من جهة وبين إسرائيل والصهيونية والدول الاستعمارية بأهدافها ومخططاتها وإيديولوجيتها العنصرية التوسعية الاستيطانية من جهة أخرى **(بحكم التقاء مطامع الاستعمار مع أحلام الصهيونية، فإن شكل الصراع الذي انتقلت** إليه أمتنا العربية اتخذ طابعاً فريداً تميز ببروز دولة عنصرية عدوانية في قلب وطننا وعلى حساب تشريد شعبنا العربي، مما أعطى للصراع طابعاً مصيرياً).

٢ - إنه صراع قومي: وقومية الصراع توضّح البعد الجغرافي والبشري له، فكيف؟

بما أن «إسرائيل» تريد الأرض العربية، وتستهدف المصير والوجود القومي العربي فإن الإطار البشري والجغرافي لمواجهتها يجب أن يشمل الوطن العربي بأكمله، والأمة العربية بكل قدراتها وطاقاتها حتى تأتي المواجهة شاملة وفاعلة ومؤثرة.

وقومية الصراع ترتكز على عاملين أساسيين:

الأول: وعي الأمة العربية بمستوياتها الرسمية والشعبية قضية الوجود والمصير القومي العربي الواحد، وضرورة النضال القومي الشامل للدفاع عن هذا الوجود وتحرير الأرض **(إن خطر الصهيونية وأطماعها تشمل سائر الوطن العربي....وإن التهديد موجه إلى كل إنسان عربي؛ إلى كل ما هو عربي، ودفعه لايكون إلا بجهد قومي، الصراع مع العدو، وكل ما يتفرع عن هذا الصراع، هو قومي عربي).**

الثاني: وعي الأمة العربية لطبيعة المشروع الصهيوني **العنصري الاستيطاني التوسعي.**

٣ - إنه صراع دولي: **لأنه يجري في** منطقة هامة تقع في قلب العالم، وهذا ما أعطاه بعداً دولياً من حيث النشأة والتطور وجعله عرضة للتدخلات الدولية المستمرة، مما أسهم في تعقيده وجعله صراعاً يتحرك داخل الصراع الاستراتيجي بين القوى العظمى في العالم.

هذه الرؤية تفهم الصراع العربي - الصهيوني من زاوية تعريف قومي له على أنه صراع بين الأمة العربية من جهة وإسرائيل والصهيونية والدول الاستعمارية الداعمة من جهة ثانية؛ صراع بين العروبة كرابط يجمّع ويوحّد الأمة العربية، وبين إسرائيل والصهيونية كقوة غاصبة، وإيديولوجية عنصرية توسعية استيطانية وهوية للكيان الصهيوني، لذا فهو يندرج في إطار الصراع الحضاري لأنه تصادم في القيم وأساليب الحياة، إنه خلاف في

تفسير التاريخ، بل خلاف على التاريخ نفسه، وعلى الجغرافية وفهمها. إنه صراع على الماضي وعلى الحاضر، ومن خلاله على المستقبل ومن أجل تحديد مساراته وملامحه وسماته.

العوامل المؤثرة في الصراع العربي - الصهيوني:

إن مسار الصراع بعد قيام «إسرائيل»، وخلال العقود الماضية وفق «العلاقة في ميزان القوى» بين طرفي الصراع كان ولم يزل يشير إلى:

١ - حرص «إسرائيل» والدول الاستعمارية الداعمة لها على تحقيق تفوّق على الأمة العربية.

٢ - إن التفوّق «الإسرائيلي» كان ولم يزل تفوقًا «كيفيًا» أو «نوعيًا» استطاع أن يحد من التفوق الكمي العربي المتجسد في القدرات والإمكانات البشرية الاقتصادية والبعد الجغرافي.

٣ - إن التفوق «النوعي» «الإسرائيلي» يرتكز على:

أ - الدعم الخارجي الذي يقدَّم لإسرائيل» باستمرار.

ب - حالة الضعف القائمة في الوطن العربي والمرتكزة على التجزئة وتغييب القدرات والإمكانات.

٤ - من هنا تبرز أهمية الوحدة العربية، أو التضامن أو التعاون والتسيق كوسائل لتطويق مظاهر التجزئة، وحشد الطاقات والقدرات العربية، والعامل الأساسي في إدخال «الكيف والنوع» إلى الكم العربي.

ولهذا شكلت الوحدة هاجسًا مقلقًا «لإسرائيل» والدول الاستعمارية لأنها رأت فيها وسيلةً لقيام فعل حضاري يحمل معه عوامل القوة والفاعلية والتأثير.

فكيف تعاملت «إسرائيل» مع الوحدة العربية:

١ - لقد نظرت إلى الوحدة العربية ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً، وإلى أية مظاهر للتضامن والتعاون والتنسيق على أنها خطر دائم ومستمر.

٢ - لقد تعاملت «إسرائيل» مع الدول العربية رغم تجزئتها على أنها دولة واحدة، فأعدَّت عدتها العسكرية على أساس تحقيق التفوّق على الدول العربية مجتمعةً، ورأت في كل محاولة للوحدة أو للتضامن والتعاون والتنسيق مصدر خطرٍ وتهديد لها.

ثانيًا: الوحدة العربية:

بعد تحليل الواقع العربي، وتحديد عوامل ضعفه، ومرتكزات قوته، وطبيعة التهديدات الموجهة إلى الأمة العربية بدأ القائد الخالد بتحديد الوسائل القادرة على إحداث تغييرات نوعية في هذا الواقع وهي:

١ - الوحدة العربية: كهدف من أهداف الحزب ووسيلة قادرة على:

أ - إنهاء مظاهر التجزئة.

ب - حشد الطاقات القومية وإدخال مظاهر التطور فيها، وتفعيل دورها وتوظيفها لمصلحة الأمة العربية، لذلك رأى القائد الخالد (**أن إيماننا بالوحدة العربية يجب ألا تحده حدود.. ويجب أن يكون نضالنا في سبيلها نضالاً دؤوباً مستمراً؛ لأن الوحدة العربية هي القادرة على تحقيق الحرية والعدالة الاجتماعية لأبناء أمتنا، وهي القادرة على أن تجعل من أمتنا قوةً فعالةً وخيرةً، تسهم في بناء المجتمع الإنساني بناءً متيناً** أساسه العدل، وتدفع **بهذا المجتمع نحو** الخير والتقدم **والازدهار).**

ولذلك برزت في بداية السبعينات تجارب وحدوية ثنائية وثلاثية ورباعية كانت دمشق القائد الخالد حافظ الأسد مركزها ومحركها، ورغم عدم استمراريتها إلا أنها أسهمت في تزكية الوعي القومي الوحدوي، وشكلت عاملاً للنضال لتحقيق الوحدة. «**إن تعثر بعض التجارب الوحدوية يجب ألا يدعونا للقلق والقنوط بل إلى مزيد من النضال ..وإلى مزيد من التصميم لكي نتغلب في نهاية الأمر على التصميم الاستعماري الذي قرر ألا يترك فرصةً لنجاح أية عملية وحدوية».**

ثالثاً: التضامن العربي:

بعد تعثر التجارب الوحدوية، ونظراً لاستمرار الأخطار والتحديات المصيرية التي تواجه الأمة العربية، وفي ضوء الوعي التاريخي والالتزام القومي وضرورة إعادة ترتيب الأولويات في الواقع العربي أعلن القائد الخالد عن «التضامن العربي» وسيلةً وأداةً قادرةً على:

١ - التعامل مع الواقع العربي في ظل الظروف الموضوعية القائمة.

٢ - تحقيق مظاهر واسعة من التعاون والتنسيق بين الدول العربية.

٣ - تحقيق تغيير نوعي في القدرات والإمكانات العربية، وفي أدائها الوظيفي في إطار الظروف القائمة.

لقد دعا القائد **الخالد إلى التضامن** العربي وحدد مفهومه **على أنه «صيغة من** صيغ العمل، تبدأ بإزالة مظاهر وعوامل التوتر والقطيعة، وتنتهي بشكل عالٍ من أشكال التنسيق».

والتضامن العربي بهذا المفهوم يهدف إلى:

أ - تطويق الخلاف والتباين والتوتر وعواملها في العلاقات العربية.

ب - توسيع مظاهر التعاون والتنسيق.

وبالتالي يسهم في تفعيل الواقع واحتواء العوائق التي تقف أمام الوحدة العربية، وتطويقها، وإيجاد المرتكزات التي تشكل المقدمات الأساسية لتحقيق الوحدة العربية.

ج - إن التضامن العربي،كما حدده القائد الخالد، ذو مضمون كفاحي نضالي ضد المخططات الصهيونية والاستعمارية

«إن التضامن هو شعارنا، ونحن متمسكون به، ومناضلون من أجله، ولكن التضامن الذي تريده سورية العربية ونناضل من أجله هو التضامن على أساس معاداة للإمبريالية والصهيونية.. هو التضامن لتعزيز الصمود».

رابعاً: حرب تشرين التحريرية:

جاءت حرب تشرين التحريرية التي خاضتها الأمة العربية بقيادة سورية ومصر في السادس من تشرين الأول ١٩٧٣ نتيجة لجملة التحولات التي حققها القائد الخالد حافظ الأسد داخليّاً وعربيّاً ودوليّاً، وتجسيداً عمليّاً للتضامن العربي الذي حوّله إلى فعل قومي باستخدامه أداة لحشد الطاقات والقدرات القومية، وتوظيفها في إطار مواجهة المخططات الصهيونية والاستعمارية وتحرير الأراضي العربية المحتلة واستعادة الحقوق المغتصبة. وأدت حرب تشرين التحريرية إلى نتائج كبيرة وواسعة لمصلحة الأمة العربية وضد «إسرائيل». ومن أبرز هذه النتائج:

١ - على الصعيد العسكري:

آ - انتزاع زمام المبادرة من «إسرائيل» باتخاذ القرار التاريخي بالتخطيط للحرب والبدء بها. وتحقيق المفاجأة الاستراتيجية.

ب - تأكيد قدرة الإنسان العربي وجدارته القتالية وشجاعته وإمكاناته في استخدام وسائط الحرب المتطورة والمعقدة.

ج - شكلت حرب تشرين ضربة عسكرية قوية لنظرية إسرائيل الأمنية واستراتيجيتها العسكرية وأسقطت أسطورة الجيش الذي لايقهر.

د - أبرزت حرب تشرين فعالية القدرات والإمكانات العربية وبيّنت أن التفوق «النوعي الإسرائيلي» حالة طارئة ترتبط بنوعية الفعل العربي، وأن «إسرائيل» ككيان عنصري استيطاني توسعي، غير قادرة على مواجهة الأمة العربية بمفردها دون دعم وتأييد خارجيين.

هـ - أصابت «إسرائيل» بخسائر بشرية ومادية تجاوزت قدرتها على تحملها.

٢ - على الصعيد السياسي:

آ - جسدت حرب تشرين وحدة المصير القومي في مواجهة المخططات الصهيونية والاستعمارية.

ب - أسهمت في توسيع دائرة التفهم الدولي للقضايا العربية، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية، وتمثل ذلك في قبول منظمة التحرير الفلسطينية في الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٧٤، وفي إصدار دول المجموعة الأوروبية بياناً في ٦ تشرين الثاني ١٩٧٣ تضمن:

- عدم جواز اكتساب الأراضي بالقوة.
- الانسحاب من كل الأراضي العربية المحتلة، والاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب العربي الفلسطيني. وكذلك في القرار الذي اتخذته الجمعية العامة في عام ١٩٧٥ الذي عدّ الصهيونية

القائد الخالد حافظ الأسد والنضال القومي

شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري.

وبصدور مجموعة واسعة من القرارات عن الأمم المتحدة تؤكد الاعتراف بالحقوق الوطنية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني.

ج - توثيق العلاقات العربية مع الدول في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، ومع حركة عدم الانحياز، وتعميق وعي هذه الدول وشعوب العالم الثالث بعدالة القضية العربية وبمصلحتها في توثيق العلاقات مع الدول العربية. وفي أثناء انعقاد مؤتمر دول عدم الانحياز في أيلول عام ١٩٧٤ في الجزائر قطعت الدول الأفريقية علاقاتها مع «إسرائيل» ما عدا الأنظمة العنصرية آنذاك في جنوب أفريقيا وروديسيا.

٣ - على الصعيد الاقتصادي:

أ - أبرزت حرب تشرين أهمية البترول العربي في المعركة مع «إسرائيل».

ب - أبرزت الحرب فعالية الاستخدام «الاستراتيجي» للثروات العربية المتاحة.

لقد أدت حرب تشرين إلى ترسيخ قومية الصراع العربي - الصهيوني في وعي الجماهير العربية، وإنهاء حالة اليأس والقنوط التي برزت في الواقع بعد عدوان ١٩٦٧. لقد قال القائد الخالد حافظ الأسد: «إن أروع الإنجازات وأبعدها هو ماتحقق على الصعيد القومي، وأبرزها حرب تشرين التحريرية التي خاضت قواتنا المسلحة غمارها على جبهة الجولان ببسالة تبعث على الفخار، وكفاءة تدعو إلى الاعتزاز، وحققت، مع القوات العربية المصرية الباسلة على جبهة سيناء، ومع سائر الأشقاء الأبطال الذين قاتلوا على الجبهتين، نصراً لأمتنا العربية سيبقى بعيد الأثر في حياتها، وشديد الوطأة على أعدائها حتى يزول العدوان وتعود الحقوق المغتصبة إلى أصحابها».

خامساً: مواجهة المخططات الاستعمارية الصهيونية:

بدأت «إسرائيل» والصهيونية العالمية والدول الاستعمارية بوضع مخططات واسعة متعددة المظاهر متنوعة الأساليب والوسائل بهدف احتواء التحولات النوعية والنتائج الإيجابية التي برزت خلال حرب تشرين وبعدها لصالح الأمة العربية.

ورداً على التحرك الصهيوني الاستعماري جاءت الحركة الاستراتيجية التي بدأتها سورية متعددة المظاهر واستهدفت:

١ - مواجهة المحاولات الصهيونية الاستعمارية الهادفة إلى تطويق النتائج الإيجابية التي تحققت للأمة العربية بعد حرب تشرين على الصعد كافة.

٢ - مواجهة المحاولات الصهيونية الاستعمارية التي استهدفت إنهاء التضامن العربي، وتفتيت وحدة الموقف العربي للوصول إلى:

أ - إسقاط وحدة المصير القومي المشترك.

ب - تفكيك المرتكزات القومية للمواجهة وإنهائها، وإثارة الصراعات بين الدول العربية.

٣ - مقاومة المحاولات الهادفة إلى فرض مظاهر الاستسلام واليأس، وصياغة فكر جديد في الواقع العربي يسهم في تشكيل وعي جديد يستجيب لواقع التجزئة، ويؤمن استمرارية روح اليأس والهزيمة وينتج علاقات الخضوع والاستسلام ويساعد على عبور «إسرائيل» إلى الدول العربية والاعتراف بوجودها.

لقد وضح القائد الخالد هذه الحقيقة بقوله: «ولهذا ركزت الولايات **المتحدة وإسرائيل** جهودهما منذ حرب **تشرين على هدفين رئيسين؛ أولهما ضرب التضامن العربي، وتحويل الصراع في المنطقة من صراع عربي - إسرائيلي إلى صراع بين العرب أنفسهم، وثانيهما تيئيس العرب من إمكانية النصر».**

٤ - البدء بحرب الجولان وجبل الشيخ التي استمرت قرابة مئة يوم، وأجبرت «إسرائيل» على الانسحاب بالقوة من الأراضي العربية المحتلة، واستمرت في الحفاظ على الروح المعنوية العالية التي برزت خلال حرب تشرين التحريرية.

٥ - تقديم المساعدات العسكرية والسياسية والاقتصادية للقطر اللبناني بهدف تطويق المؤامرة وإيقاف الحرب الأهلية، والحفاظ على عروبته ووحدته وترسيخ انتمائه القومي، والحفاظ على المقاومة الفلسطينية، ومنع تجزئة لبنان وتحويله إلى كيانات متعددة على أرضية طائفية تشكل مبررًا «لوجود إسرائيل» ووسيلة لاحتواء فكرة «القومية العربية» والانتماء القومي وتغييبهما.

٦ - رفض أية تسويات جزئية على حساب القضايا القومية، والحفاظ على حيوية القضية الفلسطينية على أنها جوهر الصراع العربي - الصهيوني وترسيخ بعدها القومي.

٧ - التصدي للعدوان الصهيوني - الاستعماري حزيران عام ١٩٨٢ على لبنان وتطويق نتائجه العسكرية ومنعه من تحقيق أهدافه، وتكبيد القوات الاسرائيلية الغازية خسائر بشرية وعسكرية كبيرة، وتطويق نتائجه السياسية التي حاولت إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية فرضها على لبنان «باتفاق السابع عشر من أيار عام ١٩٨٣»، وقد وصف القائدالخالد هذا الاتفاق بأنه «**صك إذعان وخضوع تام؛ صك استسلام فرضته الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل على لبنان، وسوف نستمر في التعاون مع كل الوطنيين العرب....ضد هذا الاتفاق، ورأينا أن هذا الاتفاق يجب أن يسقط، ومن وجهة نظرنا أيضًا إنه الآن يعيش حالة السقوط**، وبعد أقل من عام تم إسقاط هذا الاتفاق نتيجة

نضال الشعب العربي في لبنان، ودعم سورية.

٨ - مواجهة التصعيد الأطلسي - «الإسرائيلي» للعدوان على لبنان بإطلاق شعار «الشهادة أو النصر» والتأكيد على «أن **الشعب الذي يملك أبناؤه إرادة الشهادة هو الشعب الذي يملك حتمية النصر».**

لقد تحوّل شعار «الشهادة أو النصر» إلى وسيلة فاعلة لتثوير قدرة الإنسان العربي، وأصبح الركيزة الأساسية في المواجهة، والعامل الفاعل الذي فرض نفسه في إطار الصراع، مضمونه المقاومة الجماهيرية الواسعة، وأدواته التضحية والعطاء اللامحدود، والتشبث بالأرض، والإرادة القوية، والحفاظ على الثوابت والمبادئ، وتجسيد القيم، وأسهم هذا الشعار في ترميم الخلل القائم في موازين القوى.

إن استمرار المقاومة الوطنية اللبنانية وتجسيدها لشعار الشهادة أو النصر أدى في النهاية إلى دحر القوات الصهيونية المحتلة، وانتزاع الخنجر الصهيوني من خاصرة الجنوب اللبناني، ووضع مرتكزات جديدة للبنان عربي جديد.

لقد وصف القائد الخالد بطولات شعب لبنان بقوله: «**لقد أعطى شعب لبنان الشقيق الضوء، وقدم أبطاله في المقاومة الوطنية اللبنانية المثال الحر والنموذج الساطع وأسلوب تحرير الأرض، والتحرر من الاحتلال».**

٩ - مواجهة محاولات إلصاق صفة الإرهاب بالمقاومة الوطنية بهدف إنهائها، وعدم التمييز الدقيق بين الإرهاب والمقاومة المشروعة للشعوب من أجل حريتها واستقلالها، وقال القائد الخالد: «**إن الذين يمارسون هذا النهج باسم مكافحة الإرهاب يفقدون صوابهم عندما يخلطون بين الإرهاب والتحرير، ويفقدون صوابهم أكثر فأكثر عندما يعتقدون أنهم قادرون على منع العمل من أجل التحرير، بالتخويف** من تهمة الإرهاب».

ولذلك طالب القائد الخالد بتحديد مفهوم الإرهاب بعقد مؤتمر دولي في إطار الأمم المتحدة والتمييز بين الإرهاب والنضال المشروع للشعوب من أجل حريتها واستقلالها.

١٠ - مواجهة النتائج السلبية للمتغيرات الدولية التي أدت إلى انهيار الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية الداعمة للقضايا العربية، وبروز خلل في ميزان القوى العالمي لمصلحة الدول الداعمة «لإسرائيل»، ومحاولة إسرائيل توظيف نتائج المتغيرات الدولية لمصلحتها.

لقد وعى القائد الخالد حقيقة هذه المتغيرات، وجوهرها، والنتائج السلبية التي يمكن أن تحملها على الأمة العربية، فعمل على تنبيه الأمة العربية للنتائج المحتملة، وبيّن «**أن سورية الشاعرة بحجم الآتي، بقدر ما يهدد الوطن العربي بكل أقطاره تقرع ناقوس الخطر، وتطلب أن يرتفع الجميع**

القائد الخالد حافظ الأسد والنضال القومي

إلى حـيـث يتطلب الظرف، وأن توضع الأهواء والصغائر الشخصية جانباً».

ثم بين القـائد الخـالد أنه يمكن للأمة العربية أن توجه النتائج السلبية للمتغيرات الدولية، وأن تتعامل معها من موقع الفاعلية والتأثير وذلك بـ «**التضامن والوحدة**، من ثمّ توصّل إلى تحديد الوسائل والأساليب التي تمكّن الشعوب من مواجهة المتغيرات الدولية مرتكزاً في ذلك على تجاربها ونضالاتها السابقة وخبراتها الواسعة التي تجمعت نتيجة مواجهتها لمظاهر السيطرة والقهر والاستلاب، وركيزة ذلك قوة الإرادة والتصميم على المواجهة وعدم الاستسلام للواقع، وقال القائد الخالد: «**إذا كان أحد يظن أن المتغيرات الدولية تُرضخ الشعوب لمشيئة باطلة وقوة غاشمة فبئس هذا الأحد لأنه لم يستعد السيرة البشرية، ولم يستوعب مدلولاتها وعِبَرها، ولم يدرك بديهية أن النسيج النفسي والاجتماعي للشعوب يجعلها قادرة على التكيف ومواجهة التحديات الجديدة، ودائماً لدى الشعوب قدرات كافية تتفجر وتثمر في المنعطفات التي تحمل في طياتها تحدياتها**».

وعلى هذه الأرضيـة من الوعي، والإبداع المستمرين، والالتزام بالقضايا الوطنية، والقومية تحولت سورية إلى قلعة للصمود القومي، ومنارة للحق العربي، وحصن منيع للدفاع عن شرف الأمة. وما أنجزه القائد الخالد شكل الحامل القوي، والقاعدة الصلبة لمسيرة التواصل والاستمرار مسيرة التحديث والتطوير التي يحمل رايتها قائد مسيرة الحزب والشعب سيادة الرئيس بشار الأسد...

وهو الآن يضع الأسس والمرتكزات، ويبدع الوسائل والصيغ لاستنهاض الطاقات والقدرات على طريق بناء سورية المعاصرة والتمسك بالثوابت القومية.

❖ ❖ ❖

مزايا الأسد ومآثره

د. عبد الكريم اليافي (*)

تفاخرَ الناس بأمجادهم
وكُلُّهمُ نادى بها وانفرد
وشعبُنا باهى بأعلامه
وأَيْنَ للناس مزايا الأسد

لسيادة الرئيس حافظ الأسد مآثر كثيرة لاتحصى، وسجايا حميدة لاتحصر، ومآثر مشهورة ومشهودة لا تعدّ. كان يتّصف بالحكمة والتبصّر واستشفاف الأمور البعيدة وتوقّع مسيرها ومصيرها. وكأنه بثاقب بصيرته يرى البعيد من الأمور قريباً، ويشاهد ما احتجب خلف الغيوب عياناً. لذلك لاعجب أن يكون بصفاته هذه من الحكماء والملهمين، والرؤساء

(*) د. عبد الكريم اليافي: باحث من سورية. دكتوراه في الفلسفة. أستاذ الفلسفة بجامعة دمشق.

مزايا الأسد ومآثره

الأفذاذ المتفوّقين والقادة الذين ألهموا الشعراء والكتاب أن يشيدوا بحكمته الموفّقة، وآرائه السديدة، وسيرته الرشيدة، وحزمه الحاسم وسهره السياسيّ والإداري الدائم.

لقد وضع نصب عينيه أهدافاً وسعى إليها وحقّقها. أولها الاستقرار الداخلي، والأمن الاجتماعي. وهذا لايكون إلاّ بجمع القلوب وتأليفها وبسط العدالة الاجتماعية ودعم القضايا القومية وتسديد الأمور الاقتصادية، ثم الرقيّ بالفكر والتعليم ومواكبة ركب الحضارة الحديثة، وذلك بإقامة صروح العلم والمعرفة سامقة، كالمكتبات والمعاهد والكليّات الجامعية المتفاوتة. فشهدت البلاد في عهده نهضة اجتماعية وعلمية وثقافيّة واقتصادية وعمرانية مرموقة، مع جبهة داخلية موحّدة قويّة.

وثانيها الإبحار في عُباب السياسة الخارجية المضطربة، وهي التي تُلقي بنيومها الدُّكْن على سائر البلاد العربية. فكان خَيْرَ ربّانٍ يمخر في الأحداث الراهنة والطارئة.

وثالثها أنه جعل من أهدافه جمع البلاد العربية واتحادها وتنسيق خيراتها لفائدة سكانها. لقد أنقذ لبنان من فتنة الطائفية التي أوقد نارها أعداء لبنان، فاستطاع أن يطفئ نارها، وأن يوّحد قلوب أبنائه مااستطاع إلى ذلك سبيلاً.

وقد أدرك الرئيس الأسد واقع البلاد العربية في إطار الوطن العربي الواحد، ورأى ماتركه التشتّت والتفرّق من آثار محزنة على أحوال العرب والمسلمين والبلاد النامية الأخرى، فطفق يسعى إلى ضمّ الصفوف ورأب الصدع وتوحيد الأهداف، وإلى العمل المشترك لرفع الحيف ودفع المظالم وحماية أجزاء الوطن العربي وصون حقوقه وسلامة مسيرته في طريق التقدّم والعلاء والازدهار.

وما أجمل أن يلتقي العربي أخاه العربي! بل ما أجمل أن يلتقي الإنسان أخاه الإنسان تحت شعارات واحدة هي الأمن والتعاون والمحبّة والنظام والقانون وتوطيد السلام العادل والحفاظ على الكرامة الإنسانية والأخوّة البشرية وحقوق الإنسان أينما كان وحقوق الشعوب أيًّا كانت، في عالم مهما تباعدت أطرافه وتفرّقت أهواؤه وتباينت صروفه وأحواله وعقائده، فإنما يجمعها الخير العام او العدل الشامل وتصوّر المثل الكامل وهو سعادة الإنسان بالإنسان ومع الإنسان.

إنّ الوطن العربيّ واسع جدّاً بمساحته وقلوب أبنائه وهممهم وإمكاناتهم. إنّه أكبر وطن على سطح المعمورة، يمتدّ على مساحة ثلاثة عشر مليونًا ونصف المليون من الكيلو مترات المربّعة. وهو آهل بنحو ثلاثمئة مليون نسمة

يشتركون جميعًا في حضارة واحدة سابقة سابغة هي من أجمل الحضارات الإنسانية التي عرفها التاريخ الإنساني، تقوم على العدل والمساواة والأخوّة الإنسانية وعلى حبّ العلم وطلبه ونشره ورفعة قيمة الإنسان وحفظ كرامته وصون حقوقه. وقد نادت أيّ نداء بضرورة تعارف الشعوب وتعاونها وتضافرها تجاه الحيف والخسف والظلم وإزاء عوادي الطبيعة وجوائحها المدمّرة، وكانت بعلومها وآدابها وفنونها وصناعاتها منهلاً عذبًا لكثير من الشعوب والأمم زوّدتها بغذاء ماديّ رفيع وماء معين روحيّ بديع وجلّت عنها سُجُف الظلام وعماء القتام وحفزت في أبنائها روح التقدم ونُسْغ العلاء.

ثمّ كرّ الزمان ودالت الدول ونشأت حضارات محليّة مختلفة ومدنيّات ماديّة سبقت البلاد العربية سبقًا كبيرًا في ميادين شتّى كالعلوم والزراعة وأنواع الصناعة، ولكن نشأت معها نزعات العنجهية ونزعات العنصرية وغرور التفوّق وشنشنة التمييز العرقي والحضاري، كما طغت المنافع الماديّة والأوهام الأسطوريّة بحيث جعلت حكّامها وساستها تزن الأمور بميزانين وتنظر بمنظارين وتكيل بكيلين. وكم ذهبت فئات وطنيّة وزُمَرٌ قومية ضحايا لهذا التفاوت والتقلقل والاضطراب في ازدواج الكيل والنظر والوزن. فغدت الأمور مختلفة ومختبلة كما في سواد الليل وحنادسه بدلاً من الصحّة والعدالة والاستقامة بين بني الإنسان. وغدا الوطن العربيّ يعيش في نوع من البلبلة وضَرْر من التمزّق والتفرّق. ولكن أحواله في التأخر والنموّ متشابهة، وشكاواه من التفرّق والتشعّث واحدة، ومطامحه في التحرّر والتقدم متماثلة. ومع ذلك يكاد يضلّ الطريق المفضية إلى رأب الصدع وضمّ الشمل واتحاد الكلمة والصف وتأليف كيان إنساني قويّ واحد يأنف الذل ويأبى الخسف ويرفض الاستكبار وينكر الاجتياح ويسعى نحو الرفعة ويجنح نحو التعاون والتعاضد وتوطيد السلام العادل وتوثيق أواصر الصداقة بين الأقوام والشعوب.

لذلك كله لا غرو أن يكون القائد حافظ الأسد علمًا شاهقًا منيرًا في هذه الصروف العسيرة المتسفة.

لقد تمرّس الشعب العربيّ بالخطوب والأرزاء، وهو اليوم مع آلامه ومآسيه يعرف كيف يتغلب على العقبات ويمهّد الصعاب، وكيف يتابع سياسة الرئيس حافظ الأسد الحكيمة في الداخل وفي الخارج.

وهكذا تبقى مواقف الرئيس وتعاليمه ونهجه وسيرته خالدةً وأسوةً باقية وقدوة ملهمة، كما يبقى ذكره باقيًا وخالدًا.

لقد كان في حياته ولا يزال بعد وفاته نبراسًا للآمال وقدوة للأجيال. ولنا

في نجله وخليفته الدكتور بشار ومعاونيه المخلصين الأحرار أكبر الآمال لتحقيق جلائل الأعمال.

لقد قلنا في زمن سالف قريب:

لبيك حافظ نحن الجند والعضد
قلوبنا بسنا العلياء تتقد
ترعى العلوم وتبني صرحها شغفاً
أكرم بعلم رعاه القائد الأسد
مامثل يومك يوم في نباهته
ولا غدٌ لك قد يعلو عليه غد

وأنشدنا أيضاً في زمن سالف قريب:

للـه درُ أصالة عربيـة
تمتاز بالإخلاص والإقدام
غابت ذئابُ الغاب لما جاءها
بالعدل فيها سيّد الآجام
أمّا القلوب فإنها لرئيسها
خفّاقة بالحبّ والإعظام

وها نحن أولاء نُنْشد اليوم ونُشيد بالذكرى الخالدة:

أسدَ العروبة قد رفعتَ لواءنا
وبعثت فينا قوّةً ومضاء
حَسْبُ العروبة أنّكم سرتم على
درب النضال توحّداً وإخاء
ترنو إلى الأفق البعيد فينجلي
نوراً فتقرأ صفحةً غرّاء
وتضم أصناف النضال مُسدّداً
أهدافهنّ بهمّةٍ قعساء
وتُقيم أركان العلوم مُمَرّداً
بنيانَها وتزيد هنّ نماء
مامثلُ عهدك في العهود تقدُّماً
وتجمُّعاً وتضامناً وعلاء
ستسير في السُّبُل التي عَبّدتها
لتعيد مجداً ضافياً وضّاء
ونُوَرِّث الشُّعل التي أوقدتَها
ونُنَظِّم الأجيال والأبناء
إن التساويَ في البلاد مزيّةٌ
عصماء تدعو السادة الزعماء
وتُرصُّ صفَّ الناس في أعمالهم
وتُقدّمُ الروّاد والأكفاء
تلك المآثر لاكفاءَ لنُبلها
تَزْهى بقاءً دائماً ونقاء
هذي ربوع الخُلْدِ في أوطاننا
طابت ربوعاً عَذْبةً وسماء
شَهِدَ الزمانُ بفضلها وبعزّها
فَلْنَحْمِها بنفوسنا شُهَداء

حافظ الأسد القائد التاريخي للأمة العربية في العصر الحديث

أ. د. سهيل زكار(*)

من أعلام التاريخ من تكتفي بالكتابة عنه مرة واحدة، حيث تستنفد كل الذي يمكن قوله، ومنهم من يمكن الكتابة عنه مرة تلو أخرى، في كل عصر وزمان ومكان، والسبب في هذا أن النوع الأول قام بإنجازات لا بأس بها، استحق بناء عليها خلوداً جزئياً، والنوع الأخر أنجز من الأعمال ما استحق عليه الخلود المطلق والشهرة الواسعة، القائمة على التأثير الشامل والدائم، وأعلام النوع الثاني هذا على طبقات، منهم من استحق الخلود لكسبه معركة فاصلة، أو لأنجازد بعض الأعمال غير الاعتيادية، ومنهم من جاءت إنجازاته شاملة لجميع أوجه الحياة، وهذه الفئة قليلة جداً، أفرادها وصلوا إلى مرتبة

(*) أ.د. سهيل زكار: باحث من سورية، أستاذ في قسم التاريخ بجامعة دمشق.

البطل التاريخي، فتربعوا على عرش الزعامة المطلقة، والثقة والمحبة، ذلك أن كل القلاع يمكن خرقها، إلاّ حصن الثقة والمحبة.

ويحتاج الباحث في حياة البطل التاريخي إلى الإلمام بأدق تفاصيل حياته وإنجازاته، وأن يكون قادرًا على فهمها واستيعابها حتى يتمكن من تقويمها، وهذا محال، ولكن بما أن الكتابة التاريخية تعتمد أصلاً على الرواية والوصف، من الممكن للباحث الإلمام أحيانًا ببعض جوانب حياة البطل التاريخي، وتظل الآفاق أمامه - وأمام سواه - مفتوحة، للكتابة كل يوم، مادام التاريخ خبر ورؤية وتحليل وتركيب.

وينطبق هذا على المعاصرة مادام البطل التاريخي حيًّا، لكن بعد اختفائه تثور المشاكل والمصاعب، فهناك من لا يؤمن بوجود الأبطال التاريخيين، ويقولون: إن الشعوب هي البطل الحقيقي للتاريخ، ولايمكن التقليل من دور الشعوب، لكن الشعوب من دون قائد لايمكنها إنجاز شيء فعّال، وتتأتى عظمة البطل التاريخي من معرفته لقضايا شعبه، وإيمانه بعدالتها، وتعمّقه بتاريخ هذه الشعوب، وإدراكه للمحركات الحقيقية لها، والتمسك قبل كل شيء بكرامة شعبه ووحدته وتماسكه.

ومما لاشك فيه أنه وجد بين البشر أفراد ملكوا من الطاقات ماجعلهم يتفوقون على من سواهم من الناس في أيامهم، وبذلك نجحوا دومًا في زعامتهم، وأحدثوا تغييرات كبيرة، وأنجزوا أعمالاً خطيرة تأثر بها معاصروهم والذين جاءوا من بعدهم، وفي التاريخ العربي صدرت عظمة الخلفاء الراشدين عن فرادة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، وفي تاريخ الحروب الصليبية حقق صلاح الدين في العقد الأخير من حياته الوصول إلى مرتبة القائد التاريخي، لكن لولا نور الدين لما كان هناك صلاح الدين، ولولا الوحدة التي حققها نور الدين بين الشام ومصر ماكانت هناك حطين ولاتحرير للقدس سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م.

وترتبط مكانة إنجازات البطل التاريخي بنوعية التحديات التي تواجهه أثناء حياته وضخامتها وخطورتها، وكنت لأيام خلت أبحث في حياة صلاح الدين، فوجدت أنه واجه أكبر التحديات في مصر إثر موت عمه أسد الدين شيركوه، فقضى على المؤامرات الداخلية، وتصدى للغزو البيزنطي الصليبي، ونجح في تأسيس حكم جديد وجيش حديث، وإدارة ناجحة، ثم كان التحدي الثاني الخطير الذي واجهه إثر وفاة نور الدين، وهنا نجح بسرعة كبيرة لأنه امتلك إمكانات مصر، وبإمكانات مصر والشام خاض معركة حطين وحرر القدس ومناطق أخرى كثيرة، وجاء التحدي الأعظم في حياته في مواجهة الحملة

الصليبية الثالثة، وعلى رأسها ريتشارد الأول ملك أنكلترا. وأثناء تصديه لهذه الحملة خذله كثير من رجاله، في عكا حيث تخلوا عن عكا للصليبيين وكذلك أهله، فقد سعى كل واحد من أفراد الأسرة الأيوبية إلى نيل ملك خاص به، وضرب أخوه العادل المثل الأسوأ بينهم، حيث تساوم مع ريتشارد من أجل الزواج من أخته وإقامة مملكة صليبية إسلامية في القدس، ورفض صلاح الدين، فتمرد عليه أفراد بيته في يافا، ورفضوا الوقوف معه للدفاع عن القدس، وضغط العادل عليه مرارًا حتى يجتمع بريتشارد الأول، فرفض، وأخيرًا ورطه بقبول صلح الرملة وإيقاف الحرب، حيث عاد صلاح الدين إلى دمشق فمات فيها بعد عدة أشهر، وهو في الخامسة والخمسين من عمره، ولم يكن صلاح الدين سعيدًا بأسرته، وكذلك لم يسعد بأولاده الستة عشر ذكرًا، لأنه أنجبهم من عدة أمهات، وبذلك لم يكن في حياة صلاح الدين سيدة فاضلة واحدة، ولا أسرة متماسكة، وقد انعكس هذا بصورة سلبية جدًّا على أوضاع المواجهة مع الصليبيين والأوضاع الداخلية في مصر وبلاد الشام، حيث تمزقت دولته إلى ممالك متصارعة فرطت بالقدس مرارًا وأعادت تسليمها إلى الصليبيين بثمن رخيص جدًّا.

ولقد اطلعت بشكل واسع على تاريخ الأمة العربية وتواريخ غيرها من الشعوب قديمًا، ووسيطًا، وحديثًا. واهتممت كثيرًا بتاريخ بلاد الشام، ولاسيما بتاريخ الحروب الصليبية، حيث لدي موسوعة حول هذه الحروب صدر منها حتى الآن خمسون مجلدًا، وستكون - إن شاء الله - في ثمانين، وستكون الأولى من نوعها بأية لغة من اللغات، وذلك على غرار ما فعله ابن عساكر حين شجعه نور الدين على كتابة تاريخ دمشق، ثم رعاه صلاح الدين حتى أكمله فجاء بأكثر من سبعين مجلد. وأتيحت أمامي عقد مقارنات كثيرة بين الاحتلال الصليبي لبعض فلسطين مع أجزاء عزيزة من بلاد الشام، والاحتلال الصهيوني الحالي، فوجدت أن الصليبيين قد أخفقوا في إنشاء أمة ومجتمع مندمج موحد، وأنهم شكلوا مؤسسة عسكرية طاغية متعنتة ومتجبرة، لكن عندما وقعت معركة حطين جرى تدمير هذه المؤسسة العسكرية، حتى أن صلاح الدين حاصر القدس وحررها بجيش لم يتجاوز تعداده العشرة آلاف مقابل أكثر من مئة ألف صليبي كانوا في المدينة بينهم ما يزيد على ستين ألف مقاتل، وطبعًا حين نجح صلاح الدين في معركة حطين امتلك وحده مقاليد السلطة في بلاد الشام ومصر.

ومن خلال المقارنة وجدت فقط في عصرنا الحالي المرحوم الرئيس حافظ الأسد، قد وقف وقفة نورية - صلاحية،

وكان مدركًا تمام الإدراك لطبيعة الصراع ليس بسبب عبقريته السياسية والعسكرية والإدارية فقط، ولكن لأنه عرف تاريخ أمته تمام المعرفة، وآمن بضرورة الإفادة من دروس التاريخ، وقيل قديمًا: إن الملوك هم أكثر الناس عشقًا لأخبار التاريخ، لكنهم الأقل اتعاظًا بأحداثه، وهذا لم ينطبق على الرئيس الأسد رحمه الله. لأنه كان قائدًا عقائديًّا ارتقى إلى مرتبة القائد التاريخي للأمة العربية في العصر الحديث، وقد عشق التاريخ لأنه آمن بعظمة أمته وبرسالتها الخالدة، وكان بالفعل أكثر الناس اتعاظًا بأحداثه، وعندما سيأتي الوقت ويؤرخ به الإنسان لحرب رمضان التحريرية، يجد أنه كان يريد تحقيق ما تحقق في حطين - التي لم تفارقه صورتها طوال حياته - لكن لسوء الحظ كان يمتلك مقاليد السلطة في دمشق فقط وليس في دمشق والقاهرة كما كان عليه الحال أيام صلاح الدين.

وبعد هذا المدخل يحتاج الباحث في الخلفيات التاريخية لظهور القائد الأسد إلى استعراض مكثف لتاريخ بلاد الشام والوطن العربي، على الأقل منذ أواخر عصر المماليك حتى مابعد انتهاء الاستعمار الفرنسي وغيره من أنواع الحكومات الاستعمارية.

وفي وقفة سريعة في تاريخ بلاد الشام، نجد أن تاريخ هذه البلاد تأثر كثيرًا بالموقع الجغرافي المتميز، وبالتركيب الطبيعي، ولذلك كانت هذه البلاد هي نقطة المركز في صنع التاريخ العربي حضارة وسياسة واجتماعًا، ففي هذه البلاد نشأت الحضارات الأقدم في تاريخ الإنسانية مع النظم والأفكار الفلسفية والدينية، وشكل الوطن العربي دائرة العمق المتفاعل مع هذا المركز، ومن الوطن العربي انتقل هذا التأثير إلى جميع أنحاء العالم، ومن بلاد الشام انتقلت النظم والفلسفات القديمة، وفي بلاد الشام نشأت المسيحيّة وتطورت ومن ثم انتقلت إلى جميع أرجاء الدنيا، وتكرر هذا مع الإسلام العظيم، الذي نشأ أولاً في شبه جزيرة العرب، ومن بلاد الشام انتشر إلى جميع بقاع الأرض.

واعتمادًا على معطيات المكتشفات الأثرية، ولاسيما بعد التطور الذي ألم بعلم الآثار منذ تسعينات القرن الماضي تحقق بشكل مؤكد أن سكان هذه البلاد كانوا منذ الأزل مابرحوا عربًا، لهم عمقهم الإنساني، ومسحتهم العالية، وقد تحقق هذا التلوين الجميل عن طريق قدوم عناصر بشرية من مختلف الأمم إلى هذه البلاد عبر العصور، وذوبانها في المجتمع العربي الشامي.

وفي الحقيقة امتازت بلاد الشام دومًا بالأصالة العربية وبالعطاء الإنساني، وبالتجربة القومية المنفتحة عالميًّا،

وأبدعت هذه البلاد الكثير، وتلقت باستمرار تجارب غيرها فأعادت صياغتها، ومزجتها بأصالتها، ونقلتها إلى أمم الأرض، فهي بلاد مصنِّعة ومنتجة ومبدعة، للأفكار والرجال، فنور الدين كان من حيث الأصل تركمانيًّا، لكن بلاد الشام صنعت منه بطلها المجاهد العربي الإسلامي، وكذلك كان الحال مع صلاح الدين فيما بعد، ومع بيبرس وغيرهم كثير.

ومثلما أثر الموقع على صنع تاريخ بلاد الشام، وعلى دورها، أسهم التركيب الطبيعي لهذه البلاد في هذا المجال كثيرًا، فبلاد الشام إذا ماتفحصناها من الغرب نجد أولاً شريطًا ساحليًا ضيقًا ثم سلسلة من الجبال عالية، يليهما وديان الأنهار الداخلية الكبرى، وأوجد هذا عدة أنماط حياتية، امتدادًا من النمط الساحلي، إلى النمط الجبلي، فنمط المدن الحرفيّة التجارية والأرياف الزراعية، ثم نمط الحياة البدوية الرعوية المتنقلة، وهذه الأنماط المتنوعة منحت هذه البلاد القدرة على استقبال مختلف أنواع البشر الذين أرغمتهم الظروف على اللجوء إليها، وخير مثال نسوقه في التاريخ الحديث مثل الشركس، والأرمن، والأكراد.

ومن المقرر أن تاريخ بلاد الشام صنعه جميع أهل الشام متعاونين متمازجين اجتماعيًا وثقافيًا وحضاريًا، لأن البادية في هذه البلاد والمناطق الجبلية فيها، لم تشكل ملاذات مغلقة وتحتفظ بأقليات متحجرة، مثلما حدث في بعض مناطق إيران مثلاً، لأنه عبر البادية كانت طرق التواصل مع الشرق والجنوب ومصر، وعبر الجبال كان التواصل المزدوج بين الداخل والساحل وعالم البحر المتوسط، ومع ذلك لايمكن للإنسان أن ينكر أن دول الجوار لوَّنت بعض الشيء تاريخ بلاد الشام، ولاسيما من الجوانب السياسية، ذلك أن البلدان الواقعة إلى الشرق كانت قاريّة، استهدفت دومًا الوصول إلى شواطئ البحر المتوسط، وأسهمت دول الجوار في تمزيق الوحدة السياسية لبلاد الشام، وعاشت بلاد الشام في كثير من الحقب في ظل آلام المتصارع عليه، لكن عندما كانت هذه البلاد تتوحد، كانت بلاد الشام تتسلم القياد وتصنع الإنجازات المحليّة والعربيّة والعالميّة، وتحقق هذا في العصر الأموي، وأيام صلاح الدين وبيبرس وقلاوون، ثم اضطرب الحال في العصر الحديث إلى أن جاء القائد حافظ الأسد فأعاد توحيد الشطر الأكبر من بلاد الشام اجتماعيًا وسياسيًا، وتعاون بشكل وحدوي فعال مع الأردن ولبنان فحقق إنجازات تاريخية كبرى، وفي هذا شاهد آخر على عبقريته وعلى مدى معرفته بالتاريخ والإفادة من دروسه.

بودي الاستطراد في هذا المقام أكثر

بالشرح، لكن لهذا مكان آخر، قد يتحقق من خلال إنشاء أكاديمية عليا للعلوم التاريخية والأثرية تتولى مهام التاريخ لبلاد الشام في الإطار المحلي والعربي والإنساني، وتتناول عصور ماقبل التاريخ، ثم العصور التاريخية حتى نهاية الحقبة الكلاسيكية، فعصور الإسلام حتى العصر الحديث، وأخيراً الحقبة المعاصرة، التي أميز ما فيها ماعشناه في ظل القيادة التاريخية للرئيس الأسد، وعلى هذه الأكاديمية الحفاظ على نقاء الهوية العربية، وإزالة زيف الإسرائيليات وداثها المتفشي وطرده إلى غير ما عودة.

وتبين لي من خلال التعامل الطويل مع أحداث قرني الحروب الصليبية، أن بلاد الشام لم تنل الفرصة حتى يتمكن العلماء فيها من استخلاص العبر من دروس هذه الحروب، لأن أهل الشام أرغموا على التصدي لمخاطر الغزو المغولي، وسعوا في تلك الأثناء إلى إنشاء منظمات شعبية ترث النظام العسكري المنهار للمماليك، ومقرر أن شعب دمشق هو الذي انتصر في معركة شقحب ضد جيوش غازان المغولي، وهذا الشعب هو نفسه الذي تصدى لتيمورلنك، وهو الذي أعاد بناء البلاد بعد انحسار آخر الأمواج المغولية العاتية، وكان أهل الشام إثر ذلك قاب قوسين أو أدنى من استلام السلطة، والحلول محل المماليك.

لكن هو القدر، حيث نجح العثمانيون في احتلال بلاد الشام، ثم مصر، وفي معركة مرج دابق انتقمت القسطنطينية التي جلس على عرشها امبراطور عثماني اعتمد على إدارة بيزنطية - لهزيمتها يوم اليرموك - ودار التاريخ دورة رهيبة، وعادت الشام ومصر ومناطق الوطن العربي تدار من القسطنطينية، كما كان الحال قبل حركة الفتوحات العربية الكبرى، ونجح العرب في منح الدولة العثمانية المسحة الحضارية العربية، حيث زال عنها الأثر البيزنطي، وحل الإداريون العرب والعلماء العرب الذين أخذهم العثمانيون إلى القسطنطينية محل البيزنطيين، وفي مطلع القرن الماضي عندما تغلب يهود الدونمة، واستولوا على مقاليد السلطة في القسطنطينية، ونادوا بالتتريك والقومية الطورانية، تصدى أحرار بلاد الشام لهم، فكانت النهضة العربية الحديثة ، وصارت بلاد الشام على حافة الانفجار الثوري، ونظر الثوار العرب من حولهم فلم يجدوا: لا معاوية، ولا عبد الملك، ولا الوليد، ولا سيف الدولة، ولا صالح بن مرداس، ووجدوا فقط «شريف مكة العثماني» صاحب مكماهون - وأولاده الذين تلبسوا بالرغبة بالملك، وفق طريقة الأيوبيين الذين فرطوا بالقدس بعد صلاح الدين، لقد أراد كل منهم الملك مهما كان الثمن، على حساب الأب، على حساب الأمة، خيانة وعمالة وطغيان، لابأس بذلك

القائد التاريخي للأمة العربية

فالمهم الوصول إلى الملك والبقاء فيه، مع التذرع بحكاية النسب الشريف مع أن الله تعالى خاطب النبي نوح عليه السلام حين التمس منه أنقاذ ابنه بقوله: «إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح» ونهى عن الاستغفار «للمشركين ولو كانوا أولي قربى» وكل من يؤجر نفسه للاستعمار والمستعمرين يصير منهم.

وفي ظل هؤلاء الأدعياء، وإثر نجاح مايعرف بالثورة العربية الكبرى، مزقت أشلاء بلاد الشام شر ممزق، فانتزعت منها ولاية الجزيرة بما فيها الموصل، وعانت من الحركات العنصرية مالم تعانه ديار في الدنيا، وإذا سلمنا أن أخطر عنصريات التاريخ الإنساني الحديث وأكثرها شرورًا هي: الطورانية، والصهيونية، والنازية، والفاشستية، فأهل الشام عانوا من هذه العنصريات أكثر من أي مجموعة أخرى من بني البشر: اقتطعت الطورانية أنطاكية والاسكندرونة، والرها ونصيبين، وحران وماردين وغير ذلك، واقتطعت الصهيونية فلسطين (يجمع بين الصهاينة والطورانيين عقيدة الدونمة والانحدار من أصل خزري – غزّي واحد) وأهل الشام هم الذين دفعوا ثمن آثار النازية وجرائمها في أوروبا.

وهكذا عاش أهل الشام في ظلام حقبة لا أطول ولا أحلك ولا أمرّ، ومع هذا ازدادوا اصرارًا على الوحدة والتحرير، وأثناء النضال ضد الاستعمار الفرنسي، أسهم الشاميّون في ثورات العراق، وحركات التحرر في مصر والمغرب العربي، وقاتل ثوارهم في الغوطة وجبل الزاوية، وجبال اللاذقية، وروابي فلسطين، وأسماء الشهداء جلّها معروف ومدوّن، وتحقق الاستقلال بفضل النضال الشعبي، لكن لسوء الطالع تسلم القيادة بقايا أسر الإقطاع العثمانية، مع ما عرف باسم «البورجوازية السورية»، واتسم هؤلاء بقصر النظر والضعف والتخاذل، وتصرفوا وفق عقلية السماسرة والمقاولين، ولذلك عشنا الصراع على سورية، وعصر الانقلابات.

وقامت الوحدة مع مصر، وجاءت نتيجة لزخم شعبي لامثيل له في أرض الشام، لكن لسوء الحظ، لم يكن هناك ما يكافئه في أرض الكنانة، ولذلك تحولت الوحدة إلى حكم فرد وتسلط، وإدارة بوليسية، وأعلام موجه نحو عبادة الفرد، وليس نحو أهداف الجماهير، لأنه كان من شروط الوحدة إلغاء الأحزاب، أو بالحري إلغاء حزب البعث العربي الإشتراكي، الذي قاد نضال الجماهير على أرض الشام.

واستعانت سلطات الوحدة ببقايا البورجوازية السورية، التي استغلت الأخطاء، وتعاملت مع الخارج، فكان الانفصال الذي لم يشارك في صنعه بعثي واحد، وأرادت البورجوازية التحكم مجددًا

بدمشق، وأخفقت من جديد، وحبطت أعمالها، وسقطت يوم الثامن من آذار عام ١٩٦٣م، وسعت الثورة إلى إعادة تحقيق الوحدة، فلم تتوفق بالتغلب على الفردية، وقام عدوان عام ١٩٦٧م، وتتالت الانتكاسات، وتسللت العقليات المناورة، أو التي بلا تجربة أو خبرة، أو إيمان، أو معرفة بتاريخ هذه الأمة، إلى السلطة، وكانت هناك بارقة أمل مع حركة ٢٣شباط، لكن العقلية المناورة عادت إلى التحكم، مع مزيد من الانغلاق، واستيقظت من جديد نعرات بغيضة.

وكنت قد عشت منذ عام ١٩٦٥ في لندن أحضر لشهادة الدكتوراه، ثم عدت أواخر عام ١٩٦٩، حيث شهدت وتعرفت من جديد إلى أوضاع البلاد، وبت في كل يوم أسمع خبراً وإشاعة، وشعرت «أن خلل الرماد وميض نار»، وأن هذا الوميض «يوشك أن يكون له ضراماً».

وصرت أسمع كثيراً اسم «حافظ الأسد»، وتملكني شعور صادق اقتبسته من مشاعر الشعب أن الأمل هنا، وأن صلاح الدين قريب الوصول، وأن الشعب الذي انتظر منذ أيام سيف الدولة، مجيء قائد تاريخي عربي أصيل من بين صفوفه لن ينتظر كثيراً، فلقد دنت ساعة الفرج، وجاء فجر السادس عشر من تشرين، ونجحت حركة التصحيح، وعشت – مثلما عاش كل مواطن – أفراح مابعد التصحيح، وتتبعت أخبار البهجة في كل مدينة زارها القائد الأسد آنذاك، وتسارعت الأحداث، وأدرك الشعب تمام الإدراك أن القائد التاريخي العربي الذي انتظره قرابة العشرة قرون قد خرج من بين صفوفه فارساً يعربيّاً أصيلاً، ترقى به الأعراق إلى زُفر بن الحارث الكلابي، وإلى صالح بن مرداس، وإلى ذات الهمة والبطال، وإلى الشعب العربي الأصيل، وليس إلى المستعربين.

«القائد التاريخي» حكاية طويلة فيها من رعاية الذات، مكارم مواريث آل مرداس، حين تفردوا فاحتاطوا العلم والعلماء والشعراء بالرعاية، نعم بنو مرداس هم الذين رعوا المعري وأكرموه، واللقاء بين المعري وصالح بن مرداس صورة حضارية لانظير لها، لذلك لاعجب أن بني مرداس وحدهم في التاريخ العربي، هم الذين منحوا كل شاعر متميز لديهم لقب أمير.

وصلتي مع فلسفة «القائد التاريخي» عميقة: النقطة العلامة فيها سيرة النبي المصطفى (صلعم) وشمائله، وفيها خلفاء النبي والأئمة، وآل البيت وأبطال ورجال قدمتهم أمتي للإنسانية طيلة أكثر من ألف عام، فلقد ظلت الحضارة العربية الاسلامية تعطي البشرية أكثر من ألف عام، وعندما تولى غير العرب قيادة الحضارة أعطوا بني البشر: الاستعمار،

والتلوث، والاستغلال، والتمييز العنصري، والكيل بمعايير مزدوجة لا أخلاقية، والأسلحة النووية، والايدز وغير ذلك من الآثام الكثير، وذلك في مدّة لم تتجاوز القرنين، مع حروب كونية كلها رعب وهول.

والحديث عن القائد التاريخي ممتع، لايدخل في إطار الحديث عن عبادة البطل الفرد، لأن القائد التاريخي وإن كان بطلاً، هو ليس حاكمًا فرداً، إنه صاحب رسالة، مثلما الأئمة التاريخيين، الذين صدرت رسالتهم عن رسالة السماء التي أوحى بها الله تعالى إلى نبيه المصطفى، فختم بها بلسان عربي مبين رسائل الأنبياء، قبله صلى الله عليه وسلم منذ آدم عليه السلام.

وترتبط حياة الرسل بالمعجزات، وحياة الأئمة بالكرامات، والكرامة أخت المعجزة، وعلى هذا الأساس يمكن أن أفقه ما حدث في سورية حين زالت الطائفية إلى ما غير عودة، وتحققت وحدة المجتمع . لا على أساس التعايش والتوازن، بل على أساس الاندماج، ولم تعد سورية البلد المصطرع عليه، بل البلد المسهم في الصراع من أجل البناء والوحدة والتحرير، وهكذا تحول الجيش خلال ثلاث سنوات من جيوش إلى جيش عقائدي، عالي التدريب والانضباط، مستوعب للسلاح، إرادة المقاتلين فيه حرة، يشعر كل منهم بالظهير الشعبي، وبمتعة أداء الرسالة، وكانت أولى المحصلات حرب تشرين التحريرية، وحرب الاستنزاف، والتصدي للمؤامرات وصيانة لبنان، ورفض كامب ديفيد، والوقوف ضد الحرب الاستعمارية ٨٢ - ٨٣، حين اجتمعت جيوش وأساطيل الغرب وأمريكا والصهيونية ضدنا .

لقد ناضل هذا الشعب طوال قرون عديدة حتى التقى بقائده التاريخي، ولقد دعا كل واحد من أمتي خلال القرون المديدة حتى يأتي من يجدد له دينه وحياته، وجاءت الاستجابة من رب العزة، والله تعالى وحده قادر على أن يقول للشيء: كن فيكون. أما أساطيل العدوان فعاجزة أمام إرادة الله، ومقرر أن صوت الشعب هو صوت الحق، ولم تجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم قط على ضلالة، وهي قد أجمعت على أن حافظ الأسد كان قائد الجماهير العربية والمسلمة بلا منازع.

قبل الحركة التصحيحية كانت سورية جمهورية مفتقرة إلى سمات الدولة، فقدت في سنوات قلائل دولة، دولة عربية نموذجية، تصلح نواة لدولة الوحدة الكبرى، فسورية جزء من بلاد الشام، وبلاد الشام بعض من الوطن العربي الكبير.

وقبل الاستطراد في الحديث عن بعض منجزات عهد القائد الأسد، أجد من الضروري معاودة الوقوف مجدداً للحديث أكثر عن فلسفة القائد التاريخي:

شغلت ظاهرة القائد التاريخي المؤرخين والفلاسفة، وهناك اجماع على أن شخصيته تشكل استثناء متميزًا، وظاهرة حددت سماتها الجماهير قبل ظهورها، وقبل وصولها إلى السلطة بزمن، وبناء عليه تملكت نفوذها على الجماهير وتأثيرها لأنها أملها ونمطها الذي صاغته من خلال حاجاتها، ولهذا يبقى القائد التاريخي مع الجماهير، لا يبرحها ملتصقًا بها، ومدافعًا عن قضاياها وحاميًا لها، ومقررًا أن الدور السلطوي هو غير الدور القيادي الشامل، ففي القيادة التاريخية قضية عظمى ونضال فعّال وجماهير ومواقف، وفي السلطة تنفيذ لتوجيهات القائد، ومع هذا قد تلتقي السلطة مع القيادة وتتحدد في بطل واحد، ووقتذاك يكون الإنجاز محوّلاً وهامًا جدًا.

والقادة التاريخيون نُدّرَة، وإن أطلق كثير من الحكام على أنفسهم لقب القائد، والقائد رجل حكيم مخطط، استراتيجي، فيه مروءة وكرم وشجاعة، ليس فيه ضغينة، يؤثر على نفسه، ويوقف ذاته كليًا على قضايا أمته، فيه بعد انساني، يجمع بين الدماثة والمضاء، لايعرف غير الصعود، يتماشى مع تطورات الأيام، أو بالحري يقود التطورات، يرتقي من ذروة إلى أخرى أعلى حتى لا ينزلق، هو صادق وأمين وصريح، يستوعب الآخرين ويجمع الشتات، ليس سلطويًا بل صاحب رسالة، يتخرج من بين الجماهير، ومن خلال نضالها، ولذلك يظل مرتبطًا بالجماهير، والإجماع الجماهيري هو دستور القائد التاريخي ومرشده.

ومنذ قرون طوال لم تجمع الجماهير في أرض الشام، وفي الوطن العربي إلاّ على القائد التاريخي حافظ الأسد، ولأن الأسد قائد تاريخي جاء نسيج وحده، فيه جميع السمات التي تطلع إليها العربي دومًا في قائده، قال الشاعر لقيط بن يعمر الأيادي لقومه:

فقلدوا أمركم للّه دركم
رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعًا
مسّهد النوم تعنيه ثغوركم
يؤم منها إلى الأعداء مطلعًا
مانفك يحلب در الدهر أشطره
يكون متبعًا طورًا ومتبعًا

والقائد العربي هو من:

قوم إذا اشتجر القنا
جعلوا القلوب لها مسالك
اللابسين قلوبهم
فوق الدروع لدفع ذلك

وهو أيضًا من قوم شعارهم:

الموت غايتنـــا فـــلا

قصر ولاعنه جماح

وكـــأنما ورد المنيـــة

عنـــدنا مــــاء وراح

«وهالك معذور خير من ناج فرور، إن الحذر لاينجي من القدر، ولكن الصبر من أسبـاب الظفـر، المنيـة ولا الدنيـة، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور خير منه في الأعجاز والظهور».

والقائد العربي هو:

حمال ألوية شهاد أندية

قوال محكمة جواب آفاق

وهو أيضًا كما قالت الخنساء:

رفيع العماد طويل النجاد

ساد عشيرته أمردا

وصحيح أن الحديث في هذا الباب غني وممتع، وهو والحق يقال يحتاج إلى إفراده في دراسات خاصة، ولعله يفيدنا الآن ويكفينا أن نتذكر أن القائد الأسد ولد في القرداحة في ليلة القدر من عام ١٩٣٠ من أسرة نضالية عربية أصيلة، ترقى بها الأعراق إلى قبيلة بني كلاب، وقد اهتم والداه بتعليمه، وقرأ القرآن الكريم منذ صغره، ولعله حفظه، والقرداحة في ذرى الجبل الأشم ابنة أجاريت (الجرية- البلدة أو المدينة) مثلما كانت قرطاج ابنة صور، فمعنى اسم القرداحة (القرية الحديثة) ومن قرطاج (القرية الحديثة) خرج هانيبال، ومن ابنه أجاريت خرج القائد الكبير حافظ الأسد. وفيها أمضى سنواته الأولى ثم انتقل منها إلى اللاذقية الوارثة لأمجاد أجاريت، وفي اللاذقية التحق بمدرستها الثانوية، وحدثني بعض رفاقه في المدرسة أنه امتلك المؤهلات القيادية، وكان المرجع لهم والملاذ دومًا، وبعد نيله الشهادة الثانوية أراد أن يدرس الطب، فلم يستطع لأسباب مادية، فالتحق بالكلية الجويّة وتخرج ضابطًا طيّارًا.

وكان القائد الأسد من أوائل الذين انتموا إلى حزب البعث العربي الاشتراكي ومن ثم تسلم طوال عمره قيادة رفاقه في المدرسة وفي المراحل اللاحقة، وقد تميز بين الضباط في سلاح الطيران، وتفوق في جميع الدورات التدريبية، وخدم في مصر أيام الوحدة، وأعاد تنظيم الضباط البعثيين هناك، وبعد الانفصال جرى تسريحه من الجيش، ولقد شارك بدور قيادي فعّال في الإعداد لثورة الثامن من آذار، وتمكن يوم الثورة بمفرده من السيطرة على قاعدة الضمير الجوية، وبهذا ضمن للثورة النجاح المؤكد.

وناضل مع رفاقه من خلال الثورة، وسعى دومًا إلى لم الشمل، ورأب الصدوع،

وظل كذلك حتى قاد الحركة التصحيحية المباركة، واستطاع كما أشرنا من قبل خلال سنوات ثلاث من عمر الحركة التصحيحية المجيدة، أن يعيد اللحمة إلى المجتمع وإلى الجيش، وخاض حرب رمضان التحريرية، وقضى على الفتن المدبرة من الخارج لا سيما فتنة الأخوان المسلمين، ثم تدخل لإنقاذ لبنان، وكان في انقاذه للبنان إنقاذاً لسورية.

وامتد عهد القائد الأسد ثلاثة عقود من الزمن، جاءت من حيث التقسيم الدستوري على أربع مراحل:

وتعد المرحلة الدستورية الأولى، أو السنوات السبع الأولى من حكم قائدنا التاريخي الرئيس الأسد سنوات عصيبة، ومع ذلك شهدت انجازات لا يمكن للدهر أن يمحوها. فقد بدأت سورية تشهد مخاضاً اجتماعياً جديداً، ودّعت فيه التوازنات الطائفية والإقليمية، أو ما يسميه بعضهم التعايش بين الفئات إلى غير ما رجعة، وخطت نحو الاندماج، وإلى إزالة كل الحواجز، إذا كان قد بقي حواجز، اندماج قوامه الجبهة الوطنية التقدمية، ومجلس الشعب، والتحضير للإدارة المحلية، وبدأت سورية تأخذ المظهر الفعلي للدولة، ولم تعد البلد المتنازع عليه من قبل الجوار وسواهم، ولا البلد المتنازع على السلطة فيه، فبعدما عرف الشعب قائده التاريخي بدأت مسيرة الاستقرار، والإنتاج وما زالت مستمرة، وستبقى بمشيئة الله، هذا بإيجاز على الصعيد الداخلي.

أما على الصعيد العربي: فقد جرت آنذاك محاولات حثيثة لنهضة عربية، ولجمع الشمل العربي والإرادة العربية مجدداً، وتركزت الجهود باتجاه مصر، الشريك التاريخي الدائم لبلاد الشام، وشريك محنة عام ١٩٦٧، واستطاع القائد الأسد أن يقنع الرئيس السادات بضرورة العمل في سبيل القيام بعمل تحريري ضد إسرائيل في أسرع وقت ممكن، بهدف تحرير الأرض والكرامة، ولإزالة أسطورة العدو الصهيوني الذي لايقهر، واحتاج هذا إلى جهود عظيمة جداً، وعمل متواصل في الليل والنهار، لقد احتاج الأمر إلى إعادة توحيد الجيش في سورية وإلى تطويره وإلى التدريب المتواصل، والاستعداد المستمر للمعركة، وإلى تزويده بالأسلحة المتطورة، والقيام بوضع الخطط اللازمة ليوم التحرير، كل ذلك ضمن تكتم كبير، لكسب عامل المفاجأة في اليوم المَوعود، وفي خلال سنوات ثلاث، حدثت معجزة توحيد الجيش، وتوحيد المجتمع وأمكن للجيش استيعاب السلاح الجديد، وبات جاهزاً للقيام بمهامه، يتحرك بذكاء وفعاليّة ويغرر بالعدو، ويربكه، وكانت حرب تشرين العظيمة، والحديث عن حرب تشرين مديد،

القائد التاريخي للأمة العربية

وعن نتائج تشرين يحلو الحديث، ويكفينا أن نقول: إننا منذ تشرين وإلى اليوم، ونحن نحتفل بالإنجازات، ويقوم العدو بإقامة المناحات لما حدث، هذا العدو الذي لم ينل منذ تشرين طعم الاستقرار، ولم ينعم بالأمن، مع إنه حصل بعد تشرين - كما هو معلوم - على معطيات «كامب ديفيد» وبعد ذلك على أوسلو ثم على وادي عربة، وما لا يحصى من التنازلات، وحاول الانتقام من تشرين في لبنان، وفي أكثر من مكان، إنما بلا استقرار: العنف يزداد في داخل هذا الكيان المصطنع، والزلزال تلو الزلزال يهز أركانه بشكل متواصل، وزارة تسقط تلو الأخرى، ودور يأتي ومعه وجه قيادي جديد، ودور يذهب، ومعه سقوط للوجه القيادي مع اتهامات واختلاسات وفضائح، في حين أن عملية الاستقرار وعملية البناء استمرت لدينا، ففي سورية التي خاضت حرب تشرين للتحرير لا للتحريك استمرت الإنجازات، على الرغم من تخاذل السادات، والانتكاسات التي شهدتها الساحة العربية، من زيارة السادات للقدس إلى كامب ديفيد، إلى ما نحن شهوده، وتحملت سورية تشرين التحرير حرب الاستنزاف، ودخلت إلى لبنان لتصونه من الطائفية، ومن التمزق، ومن التبعية لاسرائيل، وحين كانت سورية تصون لبنان تمكنت من صيانة ذاتها من جرائم العملاء وبقي الخطاب التاريخي الإسلامي للقائد الأسد واضحاً تمام الوضوح، جوهره التمسك بالإسلام الصحيح، والرفض المطلق للمتاجرة بالإسلام والإرهاب باسم الاسلام، والحرص على علاقات داخلية فيما بين المسلمين وغير المسلمين، علاقات كلها ود وتسامح وتعاون وانسجام، وبالوقت ذاته الحرص على إبقاء الجسور ممدودة مع بلدان العالم الإسلامي أجمع، ولاسيما مع كل من باكستان وإيران.

وفي الحقيقة كان هناك تداخل فيما بين الحقبة الدستورية الأولى والثانية، فقد استمرت في الثانية الأزمة اللبنانية، واستعصت في كثير من الجوانب، ولم تستطع أية قوة من القوى أن تزيل قائدنا التاريخي من موقفه القومي المتوازن، فهو مع لبنان كل لبنان، وليس مع طائفة دون أخرى، فأهل لبنان جزء لا يتجزأ من الشعب العربي في سورية، الذي هو بدوره جزء لايتجزأ من الأمة العربية، وكما أنه لا اعتراف بالطائفية في سورية، لا اعتراف بأمراض الطائفية والإقليمية والعشائرية في لبنان.

وأحبط أخيراً المشروع الصهيوني في لبنان، وأخفق التحالف الغربي في الحرب الاستعمارية الغربية عام ١٩٨٢ - ١٩٨٣، وخرج المارينز وحلفاء المارينز مدحورين من لبنان، وسقط اتفاق ١٧ أيار، وكان سقوطه أول ضربة قاتلة لسايكس

بيكو، وبات لبنان كتلة جهادية بنادقه ضد الصهاينة وأعداء الأمة، وانتقلت هذه الروح الجهادية إلى فلسطين المحتلة، فكانت ثورات أطفال الحجارة ثم قيام حماس وكتائب عز الدين القسام وسواها، واستعد لبنان في الوقت نفسه لخوض تجربة البناء والاستقرار، ولم تتوقف سورية أثناء ذلك كله عن تقديم كل المساعدات، فدائمًا الأخ الكبير يحنو على - الأخ الصغير ويرعاه، وستظل العلاقة فيما بين لبنان وسورية علاقة أخوّية.

وفي أثناء ذلك كله امتلكت القيادة التاريخية للرئيس الأسد وضوح الرؤية تجاه الحرب في محاولة لاغتصاب الكويت، وتشريد شعب هذا البلد الشقيق، ففي هذه الحرب كان تقديم التسويغ لما قامت به اسرائيل من تشريد لشعب فلسطين.

استمرت في سورية مسيرة البناء الشاملة والاستقرار الذي لا نظير له، والتطور الديمقراطي العقلاني المتوازن، والنماء الاقتصادي، فقد بنيت عشرات السدود، وخاضت سورية معركة الأمن المائي بكل نجاح اعتمادًا على الذات، وصارت البلاد تمتلك شبكة استراتيجية من الطرق، وجرى تطوير الجامعات وإحداث جامعات جديدة، وتأمين الكوادر اللازمة، وتضاعف عدد المدارس عدة مرات، وتضاعفت أعداد الطلبة في كل المراحل، وظل التعليم مجانيًا وللجميع، وتطورت الصناعة، وصارت سورية هي البلد العربي الوحيد الذي ينتج من القمح والحبوب ما يؤمن كفايتها ويحقق الأمن الغذائي.

وازدادت أعداد المشافي والمعامل، وشهدت البلاد مسيرة ازدهار اقتصادي واعدة، على الرغم من الحصارات غير المعلنة ضدنا.

كل هذا والجهد مستمر لجمع الشمل العربي، ومواكبة التطورات العالمية، فبين أواخر المرحلة الثالثة وفي المرحلة الرابعة التي عشنا أيامها كلّها، كان انهيار الاتحاد السوفييتي، وانتهاء الحرب الباردة، وأعلنت أمريكا عن زعامتها للعالم، وأنها الوريث للامبراطورية البريطانية، التي لم تكن الشمس تغيب عن أطرافها، وذلك مع الامبراطوريات الاستعمارية الغربية الأخرى، ولم تتأثر سورية بانهيار حليفها الاستراتيجي، وأجادت التعامل مع الاستعمار الجديد، الذي أعلن أنه يريد فرض العولمة، وأنه يريد تطبيق مفاهيمه عن الحرية والديمقراطية، لكن بوساطة الصاروخ وطائرات الشبح وأحدث الأسلحة المدمرة.

والمثير للدهشة أن هذه الدولة العظمى سمحت داخليًا لمواطنيها بالتنافس الديمقراطي، لكنها لم تسمح بذلك فيما

بين الدول والشعوب، وتحدثت دومًا عن مصالحها، وتجاهلت تمامًا مصالح الشعوب، وسيطرت على مجلس الأمن وسخرته لأهوائها، ولجأت دومًا إلى القوة المدمرة، واستنزفت طاقات الأمة العربية وأموالها، وصدرت إلينا الإسلام الإرهابي الذي صنعته ثم دمرته في أفغانستان.

واستطاع القائد التاريخي، أن يقلل إلى أبعد الحدود من هذا الأذى الذي لايعرف حدودًا ولا ضوابط، وتمكن من ضبط الأمور، ومن ثم الاستمرار في مسيرة الاستقرار والنماء، وظل ثابتًا في مواقفه تجاه إسرائيل، ولم يتنازل قط، وفي عصر التنازلات أمام إسرائيل والولايات المتحدة، فقط سورية حافظت على الشرف العربي، وعلى كرامة الماضي، وضمان عدالة الحاضر والمستقبل، وهذا الموقف هو الذي ساند - وما يزال يساند - رفض التطبيع مع العدو في كل مكان من الوطن العربي، وبات القائد الأسد وحده الصائن للهوية العربية ولأول مرة في تاريخ العرب الحديث كان هو الزعيم العربي الذي امتلك شرعية الجماهير العربية عن قناعة كاملة، لا عن عاطفة وانفعال.

وفي واقع الأمر عندما نتناول المراحل الدستورية الأربع التي مرت، نجد القائد الأسد قد وصل في نهاية كل مرحلة إلى ذروة شامخة على الصعد العربية والداخلية والإسلامية والعالمية، وهوبحكم مواكبته للتطور وللتقدم لم يركبه الغرور ليخلد إلى النجاحات، بل ثابر على التقدم والعطاء، وهكذا كانت كل ذروة بالنسبة له قاعدة للانطلاق نحو ذروة جديدة، أيضًا متطورة متجددة موائمة دومًا لمقتضيات التطور السياسي والاجتماعي لعالمنا الذي ودع قرنًا عجيبًا في التاريخ، هو القرن الذي شهد ذروة الاستعمار وزواله، وفيه كانت الحرب الكونية الأولى، ثم الثانية، وبعد ذلك الحرب الباردة والتبدل في القوى، وتعقد الصراع ضد إسرائيل، وكنا قد دخلنا في أواخر القرن الماضي إلى عصر المعلوماتية ومن ثم أخذنا طريقنا نحو مرحلة تالية كنّا نتمنى من الله تعالى أن نتلوها مراحل أخرى، وأن يمد الله في عمر قائدنا التاريخي، ويمنحه القوة للاستمرار في حمل الرسالة، لكن إرادة الله كانت أقوى من أمانينا.

من غير الممكن أن نفي في مقال واحد ذكر الإنجازات العملاقة التي نعمنا بها، وبحكم الاختصاص أقول: إن الحاجة قائمة لتوثيق هذا العصر بشكل علمي، وعلى العموم نلاحظ:

لقد نعم الناس خلال العقود الثلاثة الماضية بالاستقرار والأمن، وتطلعوا إلى السلم الاجتماعي الكامل، وإلى النمو الاقتصادي المتواصل، وإلى السلام والوحدة

القائد التاريخي للأمة العربية

وإلغاء التخلف، ومواكبة مسيرة العصر، وتطلع الشعب بلهفة إلى الاستمرارية، ومثلما اكتشف يوم التصحيح قائده التاريخي، رأى شروط الاستمرار متوفرة في الباسل، النجل الأكبر للسيد الرئيس، وخلال حقبة قصيرة بات الباسل مالئ الدنيا وشاغل الناس، لقد بات هوية متميزة، وإن كانت متينة الروابط وعميقة الجذور، وقوية الأواصر بالمدرسة التي تخرجت منها.

وبخلاف صلاح الدين نعم القائد الأسد بالزواج من سيدة عربية مؤمنة أصيلة وفاضلة، اتسم أولادها جميعًا بالنجابة، وحسن الخلق، والاستقامة، والتواضع، وقد اتخذوا من أبيهم مثلهم الأعلى، ومقرر أن الذي ينجح في بناء أسرة صحيحة، ينجح في قيادة شعبه. وكان كلما ازداد الباسل تألقًا كلما عظمت أحلام المستقبل، وازدادت الطمأنينة على الوطن وعلى الأولاد، وعلى الرسالة وعلى التحرير، والحضارة، وعلى أمانة الماضي وتطلعات المستقبل، لكن لا مرد لقضاء الله، قضى الباسل شهيدًا، فصنع بشهادته آخر الملاحم من جلجامش، إلى كربلاء وذات الهمة، وعنترة وحمزة البهلوان والملك الظاهر، ومثلما تفجرت المآقي تفجرت الأقلام، وكتبت شعرًا ونثرًا عن الباسل.

وكنت قد شهدت عشية الفاجعة شباب وفتيات جيل الباسل يندفعون بحزن عميق وعفوية مطلقة نحو سفوح قاسيون لتوديع الباسل، وكان الوقت - كما نعلم - شتاءً، البرد فيه شديد ومع هذا شاهدت الفتيان والفتيات يندفعون بملابس خفيفة، وبأحذية وبدون أحذية، أنستهم النازلة أنفسهم.

وشهدت في اليوم التالي - في الطريق إلى القرداحة، أمواجًا من شعبي، جاءت من جبل لبنان ومن كل مكان في وطني، لقد شعرت وقتها أن أمتي عادت فاتحدت، مشاهد لن أنساها، لن أنسى مطلقًا صورة القائد رحمه الله وهو داخل إلى حرم المسجد ليصلي على الباسل، يا لهول تلك الساعة، وفي اليوم التالي صافحته معزيًا، فإذا به هو الذي يعزيني، وفي هذا مصداق لما قلته: غدا الباسل هوية، امتلكها كل مواطن، وفقدانه كان فاجعة لكل مواطن، والقائد التاريخي، وإن كان الأول في الخسارة، لكن ريادته ورسالته رقت لتقديم التعازي لمواطنيه، وهذا ما حصل، وكلنا يذكر حديثه رحمه الله ورسالته إلى مواطنيه.

وما أن قضى الباسل شهيدًا، حتى أخذ الراية الدكتور بشار، فأظهر عبقرية فريدة، وأعدّ نفسه بزمن قياسي لحمل أعباء المسؤولية، وعندما فوجئ العالم بوفاة قائدنا الأسد، بادر كل مواطن إلى بيعته، لذلك لم نشعر بوجود فراغ، نعم لقد

القائد التاريخي للأمة العربية

فجعنا، وحق لنا ذلك، فعلى الأسد لتبك البواكي، ولتتدفق الدموع من دون توقف، ذلك أنه عاش حميداً رشيداً، فلقد كان عظيم الفهم، كثير الحلم، رفيع العماد، واري الزناد، منيع الحريم، سليم الأديم، ولقد كان في المحافل شريفًا، وعلى الأرامل والمحتاجين عطوفًا، وعن الفحشاء عفيفًا.

أسأل الله الذي فجعنا بفقدان القائد الأسد، وابتلانا بفراقه، أن يغفر له يوم الحشر، وأن يفسح له في القبر، وأن يجعل سبيل الخير سبيل الرئيس الدكتور بشار، ودليل الرشاد دليله، وأن يمنحه التوفيق، وأن يكون عونه في حمل الأعباء، وأن يصونه، ففي صونه الأمن والأمان، وأن يمدّ الله بعمره، ففي ذلك وفاء بعهده بجعل بلاد الشام العاصم من الفتن.

فَلَيْسَ لِقَلْبٍ لَمْ يَهِمْ بِكَ مِنْ عُذْرِ

شعر: محمد رجب رجب (*)

أُجِلُّ عُلَاكَ السَّمْحَ عَنْ صُحْبَةِ القَبْرِ ... وأربأ بكفِّ الموتِ يَسْطو على البَدْرِ
عَزيزٌ عَلَيَّ القولُ أنَّكَ مَيِّتٌ ... وأنَّ لُجَيْنَ الشَّمسِ في غُربَةِ القَفْرِ
فَمِثْلُكَ فَوْقَ النَّعْيِ والنَّأْيِ والفَنَا ... رَفِيعٌ، وعِنْدَ اللهِ في عَالَمِ الزُّهْرِ
رَمَيْتَ بِثَوبِ الأرضِ للأرْضِ باسِقًا ... فَخُلْدُكَ مُزْدانٌ، وإسْتَبْرَقُ الطُّهْرِ
وَفي مَذْهَبِ المَوْتِ البَهِيِّ حَقائِقٌ ... تَجِلُّ عنْ التَّأويلِ والمَنْطِقِ الوَعْرِ
فَمَا مَاتَ مَنْ أبْقَى على الغيبِ حاضِرًا ... وإنْ صَحَّ ما في الموتِ مِنْ فُرْقَةِ العُمْرِ

(*) محمد رجب رجب: شاعر من سورية عضو اتحاد الكتاب العرب.

فليس لقلب لم يهم بك من عذر

وما مات من أحيا على الدهر شامخا ... جليل اقتدار جل عن سبب الوزر
وهل غاب من في العين والقلب والنهى ... وفي دفقة الشحنان، في معبد الصدر
مهيض جناح الموت إذ كان جاهلاً ... فإن عزيز القوم جل على الأسر
فما من فؤاد، ضمه الشعب، وامق ... بريء من الإخلاص أو رفة العطر
فما بالُه الموت استخار لسعيه ... حبيبا إلى مولاه في السر والجهر
ولولا وقار الحشر في يوم حاشر ... حزيران كان الحشر في غرة (العشر)

❖ ❖ ❖

أراك على وجه الصباح اقتداره ... وفوق جبين الشمس أيقونة النصر
وألقاك في بحر الليالي مشعشعا ... سلام لهيب الليل حتى ندى الفجر
وأفديه شبلاً في عرينك أصيدا ... أمينا وفيا باسلاً معقد الأمر
محضناه حبا لا افتراق لشمله ... فهذا النمير العذب من سلسل النهر
نرجيه عينا، وامق القلب راعيا ... ونعليه سيفا في مجالدة النكر
ونوليه عهدا قاله الشعب صادقا ... نعم، ألف ألف للحضارة والفكر
نعم، ألف ألف للعلا نستزيدها ... نعم للقرار الحر، للفتكة البكر
نحارب شجعانا، نموت أعزة ... نسالم فرسانا فلا من موقف ذعر
أضاميم جلى نضد (الليث) غارها ... تقمصها الأجيال عصرا على عصر
فيا سيد الشعب العظيم وفاؤه ... تظل أبا، والجاحد اليوم في خسر

❖ ❖ ❖

لنا الله و (البشار) في محنة الصبر ... سنمضي على الإيمان بالحمد والشكر
بكاءان: من وجد ونعمى بشارة ... فأكرم سجال الدمع بالوجد والبشر
نقيضان لا جدوى على المرء فيهما ... وأمران سكنى القلب بالحلو والمر
فرحماك يا ابن الخلد تزهو بأمة ... أقامت على عهد الوفاء مدى الدهر

فليس لقلب لم يهم بك من عذر

أجلتك ليثاً من بنيك مكرماً   عصياً على الأوزار، حراً على حر
مقيم على نهج (الأمين) وبره   فكان (الأمين) السبق في دوحة البر
فيا أيها المقدام في جحفل الرضا   نبايعك الربان في البر والبحر
نمد إليك القلب زلفى محبة   (فليس لقلب لم يهم بك من عذر)
وإذ تبسط الآمال، إنك وحيها   وإذ تضحك الظلماء كنت ضحى البدر
وإذ يكتب الجولان سلوى جراحه   فموعده الآتي على الكر، لا الفر
وإن من ثرى لبنان فاضت مودة   فأنت به، كالراحل، الجبر للكسر
فسر أيها الربان زهداً كحيدر   رفيقاً كصديق مع العسر باليسر
مهيباً كخطاب، حكيماً كجعفر   كسيف صلاح الدين في مذبح الشر
كإقدام ضرغام، كحافظ عزة   كأنت عزيزاً في مقارعة الضر
فسر أيها الربان، تلك مشيئة   من الله أنا منك في عالم السحر
وسر أيها الربان شعباً موحداً   فوا الله إنا اليوم في ليلة القدر

❖ ❖ ❖

حافظ الأسد في ذكرى الرحيل الثانية: استثناءات رئيس في زمن صعب

الدكتور عماد فوزي شُعيبي(*)

يصعب وأنت تكتب عن الرئيس الراحل حافظ الأسد بعد سنتين على الرحيل، إلاّ أن تقف باحترام أمام ظاهرة فريدة في السياسة المُعاصرة، تتمثل في رجل سبق سياسيي ومثقفي بلاده، والأهم من هذا أنه لم يشعر للحظة بالغبن إزاءهم، ولم يواجههم إزاء قاعدة «لا طاعة لنبيٍّ في عصره»، بالاستعراض والترفع، بل وعلى العكس تماماً؛ كان حافظ الأسد هو الأكثر تواضعاً وتنسكاً.

كان الرئيس الراحل استثناءً في الزمان والمكان؛ والعدُّ في هذا يبدو للحظة وكأنه طلب للمصانعة، لكننا وإذ نعدّ الرجل تراثاً، فإننا سنسمي الأشياء بمسمياتها، مستدركين سلفاً أن الرجل يعنينا، لأننا لم نرَ سياسة قبل عهده، وكل ما رأينا لم يعدُ كونه ترانيم فكر سياسي أو أوهام سياسية أو ذاتوية سياسية...

(*) د. عماد فوزي الشُعيبي: باحث من سورية، دكتوراه في الفلسفة.

ففي ذروة عصر الإيديولوجية الثورية بفهم رجل امتاز بهدوئه وصمته أن السياسة عقلانية وحسابات ميزان قوى. كان هذا هو الاستثناء الأول.

وفي أجواء من التصعيد اللفظي الشعاراتي الذي حمله مناخ الستينيات وقبل ذلك الخمسينيات، امتاز الأسد – الراحل بأنه من النوع الذي لا تستفزه الكلمة، بل ينشد الفعل بعيدًا عن استعراضاتها، صحيح أن خطابه السياسي قد حفل بالمواقف التي يمكن وصفها بالعقائدية، لكنه كان يدرك المسافة بين العقيدة والشعاراتية والفعل السياسي، واستطاع – ببراعة ملفتة – أن يجير ما هو سياسي لخدمة ماهو عقائدي ولكن وفق إيقاع محدد وهو «فن الممكن».

وصحيح أيضًا أنه سعى إلى تحقيق أحلامه العقائدية كالوحدة والقوة الإقليمية والدور العربي....لكنه ورغم كل العقبات، كان ينتقل وفي اللحظة المناسبة، من الحلم إلى الواقع متعاملاً مع الممكن ولكن دائمًا لصالح مشروعه الاستراتيجي، وصولاً إلى مرحلة التسعينات التي شهدت تحولاً كبيرًا في خبرته السياسية إثر تراكم متزايد حصّله الأسد عقلانية وواقعية سياسية. وهذا كان استثناءه الثاني.

لم يكن في حياته رهين «عُصاب الكلمات والمفاهيم». لم تكن الأفكار – بالنسبة له – صنمًا يُعبد، ولم تكن لديه مشكلة في أن يُمارس الفعل السياسي (المطابق للواقع) حتى وإن تحمّل أوجه تأويل شديدة الحساسية.

كان على الأفكار – لديه – أن تخدم الواقع دائمًا، ولهذا نفسر أنه وعلى الرغم من كونه قوميًا عربيًا شديد المراس، كان مستعدًا للقبول بدور سوري مواز لدور قطر عربي كمصر وأحيانًا بعدها، إلاّ أنه ومع خروج مصر من المعركة لم يتردد أن يحمّل سورية المسؤولية ويحملها – هو ذاته – على كاهله إلى أن قضى، فالمسألة هنا هي كيف يمكن للأمة أن تحمل أقطارها مسؤوليات بعضها البعض، لأن الأهم هو كيف يمكن استمرار رصيد هذه الأمة.

كانت المفاهيم – لديه – تخدم فعليًا المنظور القومي العربي، وكان مستعدًا، بصورة أو بأخرى، لاستخدام كل ما يفيد هذا المنظور وإن تعارض معه (شكليًا)، لأنه كان يحسب حسابات لاستخدام المفهوم تتجاوز الحسابات البسيطة:

البعض لم يفهم كيف يمكن لقومي عربي أن يدخل لبنان، وعلى الرغم من أنه كان حديث العهد بالرئاسة وقريب العهد من تمديد رئاسته الأولى، وعلى الرغم من معارضة ثقافوية لرواد السياسة الوجدانية التي لاترى أبعد من سور الفكرة، كان الأسد يمضي، لأنه فهم أن حماية المسيحيين في لبنان تبعدهم عن إسرائيل وتقربهم من العروبة وتضرب إسفينًا بينهم

وبين بعض دعوات التغريب والانفصال الحضاري لديهم، فضلاً عن رؤيته لضرورة عدم السماح بالتورط بقيام دولة دينية تشرعن المشروع الصهيوني وتكون إسرائيل ثانية على خاصرة سورية، ولأنه كان يُدرك أن الفلسطينيين يتورطون «بحَوَلٍ سياسي» في معركة ليست لهم، وأنهم يغلّبون الثانوي (لبنان والدولة البديلة فلسطينيّاً ولو مؤقتًا) على الأساسي، أي الصراع العربي الإسرائيلي.

كان الأسد يبحث عن (حزب للّه) بالمعنى المجازي المُقارب، بين صفوف الفلسطينيين، لتحويل الصراع الإسرائيلي إلى كابوس عليها. ولكن عبثًا كان ذلك. ومع مرور الأيام اكتشف كل الذين كانوا يعارضون الأسد من منطلق نظري بيوريتاني ساذج، أنه كان الأدق وأنه حمى لبنان وحمى سورية وصان مشروعه الأساسي (أي القومية العربية)، التي لم تعد مجرد موقف وجداني، بل هي سياق يحتمل أي ممارسة تفيد في تحقيقها أو على الأقل صيانتها، حتى لو كان في ذلك (شبهة!) آنية لمن لا يفهم العمق.

كان الأسد وبنوع من الإشفاق على الذين لا يفهمون يدير ظهره لحَوَل الرؤية وسذاجة التحليل ووجدانية المواقف السياسية، ويلتفت للفعل المفيد على الأرض وبما يخدم التاريخ، وهذا هو رجل الدولة أصلاً، وكأن سكناه بالتاريخ كانت تجعله كناسك لايلتفت الى الآني وينتظر أن يتعلم الذين يُؤخذون بالظواهر مع الزمن، ذلك أن التاريخ لايرحم السذّج، والوقائع تفرض نفسها على الأرض وعلى الناس.

صحيح أن الشائعات والتحليلات قصيرة النفس كانت تلاحقه، لكنه كان يمتاز بعدم اكتراث من نوع غريب فلايستفزه الأمر، ولا يضطر إلى أن يشرح خلفياته تاركًا، وبشكل مبكر في سنوات حكمه، للتاريخ أن يحكم، وقد فعل.

وعلى الرغم أن الكثيرين أدركوا ماذا قدم الرجل، وبعضهم قدّم نقداً ذاتيًا، على فهمه قصير النفس، وبعضهم الآخر تكبّر على ذلك، إلاّ أن الأسد - وحده فعليًا - الذي كان يفعل... وهذا استثناء آخر.

بنى دولة من اللادولة. ومارس عقلانيّة في زمن اللاعقلانية. تحمّل مسؤولية القرار الصعب، في وقت كان جلّ السائد في السياسة العربية: المطالبة بالمواقف الحالمة و (البيوريتانية) والتي لاتقدّم بل تؤخّر.

كانت عيناه على الصراع العربي - الإسراتيلي والبوصلة لديه لاتحيد فلا يخلط الأولّي بالثانوي ولايبدد منجز الدولة على مذبح الأوهام والصراعات الجانبية. وكان بناء الدولة من اللادولة هو الاستثناء الآخر. هذا الاستثناء الذي لم يره رواد وفرسان الكلمات المنفلتة من عقالها والتي تجعل الراكب مكان المركوب، فتتادي

بصفات الدولة المثلى قبل الدولة نفسها. وإذا كان الموقف الأخير حَوَلاً سياسيًا واضطرابًا في ترتيب الأولويات، فإن الأسد كان - وعلى العكس - صائب الرؤية وعقله منظم، وهذا استثناء آخر.

بنى الدولة على منطق السيادة فلاأجّر الأرض ولا فاوض من تحت الطاولة أو في الدهاليز السوداء، بل أعلن أنه يفاوض عدوًا وليس (عزيزًا).

في كل اللحظات الحرجة وخاصة عندما خُيِّر بين الانتصار للمشاعر الشخصية أو المكانات الأسرية، وبين الانتصار للدولة انتصر لمطلق مفهوم الدولة.

المفاوض الأصعب:

رفض الرئيس الراحل أن يستخدم الإسرائيليون الأرض مادة لصفقات ومساومات. وقال (لا) عندما لا يجرؤ أحد على قولها. وفي لحظات وجد أن قول (اللا) ليس من الحكمة قولها كلامًا قالها فعلاً أشد وقعًا من الكلام، هو فعل المقاومة.

برع إلى أبعد حد بلعبة حافة الهاوية فذهب بالخصوم والأعداء إلى حافة الهاوية إلى أن يصرخوا أولاً فينسحب من الحافة إلى أمان يصبح لاحقًا مادة تفاوض جديدة.

ينقل وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق أنه وبعد ست ساعات من التفاوض معه على حضور مؤتمر جنيف أعاده إلى نقطة الصفر، فوقف باحترام أمامه ليقول: «لقد أدهشتني حتى أنني أتمنى أن أكون وزير خارجيتك». وبلهجة الواثق الحليم داعبه على الفور: إذن فلتقنع الرئيس نيكسون أن يتخلى لي عن البيت الأبيض.

كل المعادلات كان طرفًا فيها، وفي وقت كانت سورية قبله جزءًا من السياق وفي بعض الأحيان سمادًا لسياسات الآخرين، وفي أحسن الأحوال مادةً للصراع... فإنها غدت معه مركز الصراع وصاحبته، فجأة يتحوّل (الطرفي) إلى (مركزي)، وقرد الأمة على غياب مركز ثقلها بعد انسحاب مصر نهاية السبعينات، بحلاوة روح تجد في سورية مركزًا احتياطيًا في دمشق.

أحب دمشق عاصمة للتاريخ، فجعلها مركزًا في لعبة الأمم لتقول إنه أعاد لها وزنها التاريخي، لكن الواقع أنه أضافت إلى وزنها أوزانًا: فيأتيها رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية ولا يُذهب إليهم.

يقيم فيها خمسة وزراء خارجية لأمريكا وفرنسا وروسيا والاتحاد الأوروبي وإيران لأكثر من أسبوعين أثناء حرب عناقيد الغضب ١٩٩٦، لتكون عاصمة عالمية للفعل السياسي بامتياز فإذا كانت «الحرب امتداد للسياسة وإنْ بوسائل أخرى حسب قول كلاوزفيتش» فإنه قد جعل

السياسة تطويقًا للحروب بدون أن تطلق طلقة واحدة. أهي السيمياء؟ بلى ...هي السيمياء. وهذا أبرز استثناءاته.

من عسكري، يعكس نموذج العسكريين الذين عرفتهم السياسة السورية، كم هو الفرق كبير بين النوايا السياسية والفعل اللاسياسي عند هؤلاء، إلى سياسي صاحب مدرسة في البراغماتية التي لا تُفرط بالاستراتيجية، ومن مهنة حيث يُفترض أنه لايفهم إلاّ لغة القتال، إلى سياسي يفرق بين الحرب والقتال ويسخّر الثانية للأولى ويسخّر الحرب بدوره لخدمة السياسة. وهذا استثناء.

لم يدخل الحرب حيث لايجب أن يفعل. أدخل مفهوم ميزان القوى من حيث الممارسة لغة العمل السياسي السوري، لكنه لم يستسلم لواقع الاختلال في هذا الميزان، فبحث في ثنايا مفهوم ميزان القوى، ليكتشف بعقل الحسابات التي تتجاوز الحساب البسيط إلى الحسابات التانسورية والرياضيات العالية المُعقدة، أن ميزان القوى ليس فقط الميزان العسكري إنما هو الميزان البشري وتكتيكات الصراع المختلفة...فلم يستسلم لواقعية محافظة ترى أن ليس بالإمكان أكثر مما كان. فابتكر وسائل أخرى للصراع لتعديل ميزان القوى:

اكتشف بعقله الاستراتيجي أن ميزان القوة لا يتلخص بما تستطيع تحقيقه بشكل آني إنما بما لديك من قوى استراتيجية وتاريخية، وبما يمكن أن يمنعه عندما اعتمد في الصراع مع الإسرائيليين الخيار صفر في معادلة قدرة الإسرائيليين على تحديد زمان ومكان المعركة. فضلاً عن قراءته العقلانية لمدى معرفتهم بما يمكن أن يمنعهم عن القيام به، فدخل معهم لعبة مزدوجة تارة هي لعبة مفتوحة بسياسة حافة الهاوية وتارة هي لعبة مستورة إذ كان الإسرائيليون يُعدون وسيلة لمعرفة ما الذي سيتمخض عنه قراره في اللحظة الأخيرة وهو المعروف بأنه رجل الربع ساعة الأخيرة. وبهذا أيضًا كان استثناءً.

كان يجسد دائمًا قاعدة البحث عن خيار والاحتفاظ بأوراقه الاستراتيجية وعدم استخدام إلا الجزء اليسير منها. كان يُدرك أن خيار الصراع المفتوح الذي تحملته سورية عن الأمة العربية، يجعل من قدر سياسته أن تبتكر دائمًا الخيارات وإلاّ لعادت السياسة السورية ريشة تتجاذبها الأهواء وصماداً لسياسات الآخرين.

لم يكن له أن يستثمر أوراقه كلها، لأن احتراقها كان لا يعني تدمير التجربة السياسية في سورية فحسب بل المغامرة بشأن تاريخي لايمتلك امرؤ وحده خيار المجازفة به، ولهذا كان الأسد استثناءً في تاريخيته، فقد كان ثمة فرق بين أن تكون رجل سياسة أو أن تكون رجل دولة، ورجل الدولة لايمكن إلاّ أن يكون مسكونًا بالتاريخ.

مدرسة الأسد في العمل السلمي:

منذ البداية يجب التأكيد على أن اختيار الديبلوماسية السورية العمل السلمي أو ما أسمته «معركة السلام» للحصول على حقوقها الكاملة، لم يكن وليد مؤتمر مدريد لعام ١٩٩١، إنما كان خيار (الواقعية السورية) مطلع السبعينيات، وهذا ما يفسر قبول سورية المشروط بوفد عربي مشترك بمفاوضات تحت مظلة الأمم المتحدة منذ منتصف السبعينيات وصولاً إلى رفضها الذهاب إلى مؤتمر جنيف بسبب عدم تحقق الشروط السابقة، فضلاً عن استباق سورية لهذا بالقبول بالقرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ إدراكًا وبشكل مبكر أيضًا إلى أن مفاعيل الصراع لم تعد تسمح بتجسيد التصور (المحق) لإمكانية استرجاع كافة الأراضي الفلسطينية المحتلة ومنذ عام ١٩٤٨، وبالتالي القبول بالحد الأدنى؛ وهو حدود الرابع من حزيران/ يونيو لعام ١٩٦٧. وهكذا انتقلت (الواقعية) السياسية و (العقلانية) السياسية السورية من (الحق) إلى (الممكن)، وقامت بإدراج الحق في ملكوت ما هو استراتيجي وتاريخي، على الحقوق التاريخية لأصحابها لاتضيع وأن مثال ذلك يكمن في ٢٠٠ سنة من حكم الصليبيين لفلسطين وهم إذ رحلوا فذلك لأن التربة الحضارية والتاريخية لبلاد الشام منبت الحضارات ومهد الديانات لاتستوعب طويلاً الغزاة الذين لا يندمجون في مناخها، كي ترسم تشكيلة من المصالح تدفع مع الزمن إما إلى الحل بما يتوافق مع فرضيات التاريخ، أو إلى (الحسم) وفقًا لما تتأتى به المصالح من عوامل تضاف إلى (القوة) المطلوبة لمثل هذا الحسم، في آلية من (التغذية الخلفية الراجعة) (Feed Back) التي لا تبدد وفق رؤية إيديولوجية صرف، إمكانية لاستثمار كل شيء وذلك لإضفاء عناصر إضافية إلى معاملات (القوة) في وقت يجب أن نفهم أن مفهوم القوة لايعني - فقط - في الأداء الديبلوماسي الاستراتيجي السوري البعد العسكري ولا يعني القوة (الغاشمة) إنما يعني كل عوامل القوة العسكرية والاقتصادية والاجتماعية واللوجستية والدولية والإقليمية ...

وفي هذا السياق يأتي القبول السوري للعمل السلمي، حيث كان الرئيس الراحل حافظ الأسد قد عبّر عنه أمام وفد المحامين العرب أواخر عام ١٩٩٤، بالقول[1]:

«لقد قبلت العمل في نطاق عملية السلام...لأنني مؤمن وأرى معطيات عالمية كثيرة تحتم علينا السير في هذه الطرق، وعلى أساس أن ننال - واقعيًا - أكبر قدر ممكن من حقنا كعرب في فلسطين (وأن

(١) جريدة السياسة الكويتية ٧/ ١/ ١٩٩٥.

في ذكرى الرحيل الثانية

يظل الباب مفتوحاً) أمام تطور في أخذ الحقوق بالوسائل السلمية والديمقراطية، بما يضمن أن لا يظل الظلم على العرب وأن يتطور وضعهم لما هو قريب أو متطابق مع حقوقنا الكاملة.

لقد قبلنا بمبدأ الأرض مقابل السلام والاعتراف بالحقوق المشروعة للفلسطينيين في بلادهم وحقهم في تقرير المصير... والأمر هنا واضح لا لبس فيه استناداً إلى قراري ٢٤٢ و ٣٣٨ الانسحاب من الأراضي التي احتلت بالقوة خلال حرب الخامس من حزيران /يونيو عام١٩٦٧.

وبهذا يتوفر الحد الأدنى من العدل الذي يمكن أن يقبل به العرب حالياً ...وتعود جميع الأراضي إلى ما كانت عليه خارج السيطرة الإسرائيلية حتى يوم الرابع من حزيران /يونيو فيتم الانسحاب ويقرر الفلسطينيون مصيرهم ليوضع بهذا الأساس المتين لسلام مشرف وعادل لايتضمن أي نوع من امتهان الكرامة وزرع الأحقاد وتفتح بواسطته الأبواب لنهوض المنطقة ونمائها وازدهارها.

لكنهم يريدون تسويات مذلة ومهينة للكرامة ويريدون المزيد من الأراضي ويطالبون قيوداً تجعل من العلاقة مع إسرائيل أولوية على علاقة العرب بالعرب، يريدون إلغاء أي خيار عروبي مستقبلي، فإذا فكرت سورية بالوحدة مع الأردن أو العراق أو لبنان أو مصر أو ماتبقى من فلسطين أو غيرها تفزع إسرائيل لأنها جزء من الشرق الأوسط وجزء من المعادلة فأي تعاون يجب أن تشارك به إسرائيل وأي توجه يجب أن توضع إسرائيل في صورته ولذا فإنهم يتصورون أننا يجب أن ننزع أسلحتنا ليظلوا هم متمتعين بسلاحهم ونخفض عدد جنودنا لنظل تحت رحمة سياطهم ونكف عن التفكير ليفكروا هم عنا إنهم يريدون منا أن نخرج من جلودنا فلنعلن أننا غير عرب وغير مسلمين».

ويقول: «لقد رأيت في حياتي جنازات عدة لأموات، وشاهدت على شاشة التلفزيون كثيراً منها، وعلق في ذهني صورة جنازتين اثنتين والإنسان في نهاية المطاف سيأتيه قدره المحتوم وكل نفس ذائقة الموت وسنذوق الموت طائعين صاغرين مؤمنين بقضاء الله وقدره، ولذا فإنني لا أحب من صورة ما رأيت من الجنازات إلا جنازة جمال عبد الناصر. أريد أن أموت وأنا راض عن نفسي، والناس راضون عني، وقبل ذلك والأهم هو أن أنال رضى الله ورحمته، لهذا فإنني لن أسمح لنفسي بأن تتمنى إلا جنازة يملؤها الحب والكرامة والشرف مثل التي شُيِّع بها جمال عبد الناصر.

هكذا أنا، وهكذا سيكون بإذن الله، ولهذا فإنني لن أوقع إلا سلاماً مشرفاً، أما سلام البؤس وامتهان الكرامة وطمس

إحساس العز والشرف لدى الناس فإنني لن أوقعه بإذن الله» وهذا ما حدث فعلاً[٢].

وبالعودة إلى النص السابق نلاحظ أن سورية لم تدخل عملية السلام لأنها قد ركنت إلى أن «العين لا تقاوم المخرز»؛ على طريقة المثال العثماني الذي يردف «بالسير من الحائط إلى الحائط والقول يا رب السترة»، إنما لتقديرات عالية تحتم الأخذ بها واقعيًا وعقلانيًا لأن من لا يأخذ بها يكون مصيره وشعبه ووطنه خارج اللغة العالمية وبالتالي خارج الجغرافيا والتاريخ، وهذا ما حدث مع دول كثيرة لكن استدراك الأسد الراحل آنذاك بأن على الباب أن يبقى مفتوحًا أمام تطور في أخذ الحقوق بالوسائل السلمية والديمقراطية.. وأن يتطور وضعهم لما هو قريب، هو ما يشكل العمق الاستراتيجي لرؤيته.

مدرسة الأسد في التقانة التفاوضية

بدت التقانة التفاوضية لسورية محكومة بعاملين: الأول تاريخي أشرنا إلى بعض جوانبه سابقًا، والثاني تقني يتلخص بالعناصر التالية:

١ - تقانة فاوض في المكان:

أرسى الرئيس الراحل هذه التقانة التي تقوم على رفض تقديم أية تغييرات في آلية التفاوض أو تنازلات عن طريق (مثلاً) اللقاء المباشر، إلا بعد أن يقدم الإسرائيليون تنازلات ذات قيمة. حيث رفضت سورية إطلاقًا أن ترفع مستوى التفاوض إلى مستوى رئاسي لأنها تعدّ ذلك ثمنًا لا يمكن تقديمه (لعدو). وهي فضلاً عن قناعتها أو (مبررها) بأن مثل هذا اللقاء إذا حدث ولم يسفر عن إنجاز فإنه سيؤدي إلى الحرب فإنها - وفي واقع الأمر - قد رفعت من شأن مكانة قادتها السياسيين وجعلت ثمن اللقاء بهم أكبر بكثير مما يتوقعون، ذلك أن الإسرائيليين يتوقون إلى الوقت الذي يرون فيه السوريين في وضع (عادي) وهو ما لم يحدث حتى الآن؛ إذ أن لقاء وزير الخارجية السورية فاروق الشرع مع وسيلة إعلامية[٣] جاء وقتئذ بعد تقدم واضح من رابين أعلن فيه وبوضوح وديعته المشهورة للرئيس بيل كلينتون، وبسبب إصرار كريستوفر وزير خارجية الولايات المتحدة، بأن على سورية

---

٢ - لا أكتم أن هذا القول هو الوحيد الذي يهزني كلما تذكرته، وهو الأقرب إلى قلبي ووجداني، فيه وجدت نفسي ورأيت عقلانية وصدق حافظ الأسد في أبلغ تجلياتهما في وقت يصعب فيه أن تجمع الواقعية والعقلانية مع الصدق الوجداني في السياسة، وهذا من مآثر هذا الرجل بامتياز.

٣ - كان الأستاذ فاروق الشرع يتحدث في ذلك ببراعة متميزة، واثق للغاية يتعامل مع عدو وليس مع صديق، حاضر البديهة بصورة تبعث على الإعجاب، لايقدم أي تنازل، حتى عندما أراد المذيع أن يحشره بالسؤال عن موقف سورية من عملية ناتانيا التي جرت قبل أيام، أجابه ببراعة ملفتة: «ما أعرفه أن الشعب السوري لم يحتفل بهذه العملية كما احتفل الشعب الإسرائيلي بمجزرة الحرم الإبراهيمي».

أن تقدم ما يشعر الإسرائيليين بجدية خيار سورية السلمي الاستراتيجي. كان واضحًا أن سورية قد حصلت على إنجاز تأكد بعدئذ من خلال رسالة وجهها الرئيس الأمريكي السابق بيل كلنتون في ٦/ حزيران يونيو/ ١٩٩٥ يؤكد فيها (أن في جيبه التزامًا من رئيس الوزراء رابين بالانسحاب الكامل إلى خط الرابع من حزيران لعام ١٩٦٧). وعليه فقد رفع الرئيس الأسد الراحل مستوى التفاوض إلى مرتبة رئيس الأركان وأوفد رئيس الأركان السورية إلى ملاقاة شاهاك. كان ذلك مؤشرًا إلى نجاح قاعدة تفاوض في المكان وعبر وسيط حيث مرت خمس سنوات حقق فيها المفاوض السوري إنجازات متعددة: أهمها هبوط شعارات مستوى التفاوض الإسرائيلية من شعار شامير (السلام مقابل السلام) إلى (السلام مقابل انسحاب في الجولان) إلى (الانسحاب على الجولان)، إلى الانسحاب من الجولان ولكن ليس إلى خط الرابع من حزيران)، إلى (انسحاب إلى خط الرابع من حزيران) وكان هذا التنازل غير ممكن لولا قاعدة المفاوضة في المكان بحيث بات واضحًا أن الطرف الآخر هو الذي عليه أن يلهث باتجاه سورية وتقديم التنازلات تلو التنازلات، حيث تدعّم هذه التقانة تقانة أخرى هي تقانة سياسة (الباب المُوارب): نصف المفتوح نصف المغلق، بحيث تثير شهية الطرف الآخر تلك المساحة المحدودة التي يراها، ويلهث وراء المساحة التي لا يراها، وهي عمليًا تقانة (الإثارة...بالرؤية) ولها ما يرادفها في علم النفس تحليلاً لطبيعة النفس البشرية.

وعندما اختارت سورية أن تجري المباحثات على مستوى وزير الخارجية السوري في شيبردستاون مطلع عام ٢٠٠٠ كان ذلك على خلفية إنجاز أكبر وهو إنجاز ما يعادل ٩٨٪ من المطلوب سوريًا، وكان اللافت أن سورية فرضت قواعدها في التفاوض حيث لامصافحة ولا عناق..كان الوزير الشرع يفاوض عدوًا ويسير معه ولكن بصحبة (الوسيط الأميريكي)، وكل شيء كان بحساب.

وهكذا أثبتت تقانة التفاوض في المكان نجاعتها حيث كان على الإسرائيليين أن يتقدموا إلى (الحقل) التفاوضي السوري وليس العكس.

٢) الحرب امتداد للتفاوض وإن بوسائل أخرى:

هذه التقانة تُكرس فعليًا قاعدة كلاوزفيتش الشهيرة التي تجعل الحرب امتدادًا للسياسة وليس العكس. وقد أدركت السياسة السورية أنها تخوض «حربًا» للسلام ولم يعتورها أيّ شك بأن هذه الحرب هي شكل آخر من أشكال الحرب بالسلاح، وكان ثمة تمييز واضح بين الحرب والقتال الأمر الذي يجعل الفاعلية القتالية تحكم قضية الحرب بكونها قضية سياسية صرف.

وفي الحقيقة ان الرئيس الراحل حافظ الأسد كان يبحث فعليًا ومنذ اتفاقية فك الاشتباك الثاني لعام ١٩٧٤ عن جبهة مفتوحة وعن قوة عسكرية أو معسكرة يساندها، لتعويض استحالة العمل العسكري من الحدود السورية بعد أن فرضت مصر معادلة عزلة سورية في الصراع العسكري مع إسرائيل، وهو صراع لو استمر عبر الجبهة السورية وفي ظل غياب وضع لوجستي وبشري لدى السكان العرب السوريين في المرتفعات يؤهل لمقاومة مسلحة من نوع مجد، لكان قد دمر سورية - الدولة، وكان خياره منذ البداية المقاومة الفلسطينية؛ لكن خياراتها الإيديولوجية الموغلة في التناقض والحلول السياسية والشعارات المنفلتة من عقالها، وأوهام (عمان هانوي العرب) و (لبنان فيتنام العرب)..والدخول في أوحال اللعبة الطائفية اللبنانية والاستنزاف بعيدًا عن خط المواجهة الأساس ضيع هذه الفرصة التي كانت تهدف للإبقاء على الخيار العسكري مادة ضغط متواصل على السياسة الإسرائيلية وعلى القرار السلمي لها، وهو ما سمحت الظروف بتوافره في المقاومة الوطنية اللبنانية التي بدأت بعثية وقومية سورية وشيوعية ومن حركة أمل....لتتجد تبلورها (الكريستالي) في حزب الله الذي فهم الآلية العقلانية المُبتكرة للصراع في العقل الاستراتيجي السوري، وهي آلية الضرب (في الزمان والمكان) أي الضرب في وقت يربك العدو ويحدّ من خيارات ردّه ويضعفه سياسيًا إن اتبع آلية القوة الغاشمة التي عفا عليها الزمن، ولا تجد من يدعمها أو لايشعر بأبلغ إحراج عندما يضطر لتغطيتها. وهذا ما وقعت به إسرائيل مرارًا منذ مطلع التسعينات، وصولاً إلى انسحابها تحت وقع ضربات المقاومة. كانت استراتيجية الأسد تتلخّص بأن الإسرائيليين لا يستطيعون تحمل الخسائر العسكرية بينما تستطيع المنطقة الحضارية العربية أن تتحملها لأن جذورها ضاربة في العمق(٤).

كان لسورية دائمًا أن تفاوض تحت وقع مواجع الإسرائيليين وحشرهم في الزاوية وجعل كل الخيارات تمر بالخيار

٤ - ينقل البعض عن الرئيس الراحل حافظ الأسد أنه في أول لقاء مع الرئيس كلينتون في جنيف وفي الجلسة المغلقة طلب البدء بالكلام، حيث كان يعرف أن الجلسات المغلقة يخرج فيها الأمريكيون عن اللياقة بالتهديد والوعيد، ليقول له إنني أعرف أنكم أقوى قوة في العالم وأنكم تستطيعون احتلال أي دولة في أيام لكنني أعلم أنكم لن ترتاحوا أبدًا في منطقتنا لأن لدينا شعبا يحب الموت ويرى فيه حياة، ولو فتحنا النسل في منطقتنا فستجدون فيها بعد عدة سنوات شعبًا يريد النيل من كل ما يمت لكم بصلة، وأنا أدعوك الآن إلى الحديث في السياسة..ووسط دهشة كلينتون وإعجابه أدرك أن الأسد قد انتزع منه كل أسلحته وبادر للعقلانية، مما جعله يخرج إلى المؤتمر الصحافي ليقول بأنه كان تلميذًا في حضرة الأستاذ وأن كل ما نقل له عن الأسد كان أقل مما رآه.

السوري، وفق قاعدة تقول « بحشر عدوك في الزاوية وترك منفذ وحيد له يمر عبرك». وكانت محاولاتهم للإفلات من الأنشوطة تصطدم بأنها تزيد الالتفاف عليهم، وفيما كان العقل الإسرائيلي لايريد أن يراكم التجربة (كبرميل بلا قعر) كانت الديبلوماسية السورية تضيف إلى قواعدها القاعدة الأهم وهي: «الانتظار والصبر الطويل» مشفوعة بقاعدة أخرى تقول «دع الأحمق يقدم لك رأسه ولاتستعجله حتى لا تدفع ثمن ذلك من كرامتك وحقوقك».

ولم يستفز الراحل بدعوات إسرائيل لعدم التفاوض تحت وقع إدانة إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية العمليات لأنه كان يعرف أن هذه العمليات صحيحة بالقانون الدولي واتفاقية جنيف، مهما كان (النباح) حول أنها (إرهاب)، وأن ردّ إسرائيل الموغل في القوة الغاشمة ليس له تسمية أخرى إلاّ إرهاب الدولة، وهنا تضيف الديبلوماسية السورية لتقانتها قاعدة إضافية تقول: «لا تبخس عناصر قوتك قيمتها وتركن إلى مخاتلات العدو الذي ينزع نحو بث البخس فيها، كما لا تُفرط في تقدير قوتك» المهم أن تعين عناصر قوتك كيف ومتى تستخدمها. ولهذا نجحت قاعدة الحرب امتدادًا للديبلوماسية وإن بوسائل أخرى.

٣) ضرورة الاختيار وتوافر الخيارات:

تعدّ هذه القاعدة من أولويات السياسة السورية عمومًا فمنذ تسلم الرئيس الراحل حافظ الأسد مقاليد الحكم في البلاد بنى سياسته على تجنب الخيار الوحيد، وهذا ما لم يجعل سورية فلكًا من أفلاك الاتحاد السوفياتي كما أنها في عملية السلام لم تضع البيض كله في السلة الأمريكية، وإن كانت تُقرّع الراعي الأمريكي على عدم تحمله لمسؤولياته كشريك كامل ونزيه، في وقت كان فيه الخيار الروسي ضعيفًا حاولت الديبلوماسية السورية تعويم الموقف واستحداث توازن فيه بدور أوروبي بدا مترددًا وأصبح طرفًا (بمعنى من المعاني) عبر تعيين الاتحاد الأوروبي مندوبًا دائمًا له في عملية السلام في المنطقة، كان وبغض النظر عن عدم الفاعلية المطلوبة - يؤدي دورين: الأول الترميز إلى التواجد الأوروبي في العملية السلمية، والثاني دور الوساطة وتخفيف حدة التناقضات ونزع فتائل الانفجار في ظل (الحرد الأمريكي) أحيانًا أو الإهمال أحيانًا أخرى، مما أبقى عملية السلام في أحلك ظروفها في وضعية العمل (ولو في حالة انعدام الحمل كما يقال بلغة المهندسين) فضلاً عن النجاح في نزع فتائل انفجارات كثيرة وتطويق الإسرائيليين وردعهم عن التمادي في العبث بالتوازن في المنطقة. ولم يفت الديبلوماسية السورية الزج باليابان والصين في إطار إكمال الصورة وزيادة العوامل الدولية التوازنية، مع عدم التفريط بالدور الأمريكي

كدور أساسي يجب استخدامه للضغط على إسرائيل واستخدام القوى الأخرى لردع الضغوط الأمريكية. صحيح أن سياسة (التقابل في ميزان القوى) لم تعط المطلوب وجدواها كاملة لتقديرات دولية لكنها شكلت اجتهاداً ناجحاً عند اللزوم (ونذكر هنا أحداث حرب عناقيد الغضب ١٩٩٦ حيث فرّعت سورية الدبلوماسية الأمريكية وشكلت لها كابوساً دولياً ودفعتها إلى المسارعة إلى دمشق لحسم الموقف، في وقت زجت دمشق بفرنسا ولأول مرة منذ سنوات كثيرة وطويلة كطرف أساسي في لجنة تفاهم نيسان بما جعل الطرف الأمريكي مجرد ورقة، وسرعان ما ربطت أيدي الإسرائيليين وصولاً إلى نصر المقاومة).

لانضع سياسة الرئيس الراحل البيض كله في سلة واحدة. فهو يعتمد قاعدة THE NESSECITY OF CHOICE بامتياز، لأن توحّد الخيار سيجعل النتائج محكومة - على الأغلب - بخيارات الطرف الآخر ويجعل الدبلوماسية سماداً لخيارات الآخرين.

وهكذا نستطيع أن نلمح بروز مدرسة تفاوضية جديدة في العالم العربي تضيف لبنة إلى مدماك الخبرة السياسية التاريخية.

برحل حافظ الأسد، بعد أن خلف إرثاً يصعب تجاوزه ويصعب الحفاظ عليه، إلاّ إذا كان سلفه معنيّاً بذلك، وهذا هو سرّ ما جعل الناس ترنو إلى الرئيس بشار، وهو مما بات واضحاً أنه صيانة إرث وحماية دولة وصيانة التاريخ من كارثة البدء من الصفحة البيضاء.

❖ ❖ ❖

التصحيح والأسد: جدلية الضرورة واستمرارية التطور

أ. د. نجاح محمد (*)

هاجسنا في كّل ما نكتب، ونتمنى لو نوفق، هو المساهمة المتواضعة في مجالنا وحسب قدرتنا، ولو الجزئية والنظرية، في تطوير الوعي في وطننا الغالي، والذي هو أحد الأسس المحورية في عملية تطويرد ككلّ، والتي هي، وكما يؤكد السيد الرئيس بشار الأسد: «الهاجس الأساسي لكل مواطن في هذه البلاد في مختلف المجالات»(١)، ونظرًا لأن جدلية التصحيح هي منطلق العملية التطويرية بالضرورة، فقد اخترناها موضوعًا لبحثنا هذا حول ماهيتها عند القائد الراحل والخالد حافظ الأسد، بمناسبة الذكرى الثانية لرحيله. هو تنظير، هذا صحيح، ولكنه ممنهج بكل الشفافية، في محاولة لتحميله كل الفائدة المكنة والمرجوة لفعل

(*) د. نجاح محمد: باحثة من سورية، أستاذة في قسم التاريخ بجامعة دمشق.

التصحيح، فعل الإصلاح والتطوير، والذي هو شاغل سوريا اليوم، ومحور اهتمام رئيسها الدكتور بشار الأسد المتميّز بشفافية القول والفعل، طبعًا إلى جانب الشأن الفلسطيني والتحريري للمناطق المحتلة من العدو الصهيوني عمومًا، وشأن المقاومة وانتفاضة البطولة خصوصًا، والتي هي في القلب والعقل معًا.

١ - المضمون العلمي العام للتصحيح:

التصحيح، الضرورة، التاريخ: ثلاثة مفاهيم ومعطيات تدور مضامينها حول محور واحد هو عماد فلسفة التاريخ، وهو قصة الحياة. إنه محور حركة التطور الصاعدة للإنسان والمجتمع. وإذا كان التاريخ هو مسيرة أو صيرورة هذه الحركة من الماضي عبر الحاضر إلى المستقبل، فإن الضرورة هي الحتمية القانونية لواقعها الموضوعي العام، أي واقع حركة التطور، والتي، أي الضرورة، تتجسد من خلال فعلها الجدلي، أي فعل تبادل دوريّ التأثر والتأثير على المستويات الحياتية الثلاثة المترابطة الآتية: على مستوى العلاقة مابين هذا العصام، الذي يشكل الظروف الموضوعية، ومابين الداخل أو الخاص القومي والوطني، الذي يشكل الظروف الذاتية، أولاً. وعلى مستوى العلاقة مابين بنى وأنساق كلّ من المادة والفكر، ثانيًا، وعلى مستوى العلاقة مابين بنى وأنساق كلّ من القديم والجديد، ثالثًا.

هنا يبرز مضمون التصحيح على أنه فعل الجديد في مواجهة القديم، ولكن ليس كلّ جديد، وإنما هو المنسجم مع تطلعات الإنسان والمجتمع نحو الأفضل على كلّ صعيد سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي. من هنا فإن فعل التصحيح، أي فعل دعم وخلق هذا الجديد البنّاء، هو فعل مستمر وشامل، وصانع بالتالي لحركة التطور، لحركة التقدم الإنساني، لحركة التاريخ عمومًا في أبعاده الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل.

هذا هو المضمون العقلاني العلمي الشمولي المجرد للتصحيح. والسؤال الآن: أين موقع حركة التصحيح في سوريا من هذا المضمون؟ يحتاج الجواب ليكون علميًا دقيقًا إلى مصادر ووثائق صحيحة ودقيقة على صعيد جانبي هذا الحركة بكونها تمثل توجّه ومعطيات الحكم في سورية منذ قيامها في ١٦تشرين الثاني ١٩٧٠ وحتى اليوم، أي الجانب النظري والجانب التطبيقي. بحثنا هذا يهتم بمعالجة الجانب الأول فقط، أي النظري، لأنه من المفترض أن يكون المنطلق والمحرك للجانب الثاني، ولأنه وحده فقط في حدود إمكاناتنا. ومن الطبيعي أن يكون المصدر الأول بالنسبة إلينا فيه هو فكر قائد التصحيح المرحوم الخالد حافظ الأسد، ويصبح السؤال المطروح: ماهي رؤية التصحيح عند الرئيس الأسد؟ لنعرف مدى اقترابها أو بعدها عن

مضمونه العقلاني العلمي الشمولي المذكور، ولنرضي بالتالي توقنا إلى استكمال التعريف بمعطيات نظامه الإبيستمولوجي، أي المعرفي - القيمي، منهجًا وفكرًا (٢).

٢ - رؤية الأسد للتصحيح:

رأينا كيف يرتبط مضمون التصحيح بفلسفة التطور، فلسفة التاريخ، وهي فلسفة يؤمن بها حافظ الأسد ويستوعبها جيدًا حسب تأكيد الكثير من المعنيين والباحثين(٣)، ممّا يفسّر وجود إحدى أبرز ركائز إبداعه الاستراتيجي المعروف، وهي ركيزة قراءة التاريخ الذي يؤمن أنه «لايصنع صدفة»(٤)، والذي يراه حقيقة علمية(٥)، «يعرف وزنه في صياغة حاضر الشعوب ومستقبلها، لايقدم على خطوة إلا بعد أن يزنها بميزان التاريخ نفسه»(٦). وخطواته إذن، أي خطوات التصحيح، هي موزونة بميزان التاريخ، أي بقوانينه، قوانين التطور، فكيف يتجسّد ذلك في رؤيته للتصحيح كهدف أولاً، وكمنطلق ثانيًا، وكوسيلة ثالثًا، وكأداة رابعًا.

١) الأسد وهدف التصحيح:

يجب التمييز بداية بين الهدف الآني أو المرحلي الذي مثّلته الحركة التصحيحية حتى قيامها في ١٦ تشرين الثاني ١٩٧٠، والذي رُدّد، ومايزال يُردّد كثيرًا حول أنّه تصحيح لأخطاء قيادة الحزب والحكم السابقة في سورية على الصعيد الداخلي، الحزبي والعام، وعلى الصعيد العربي والدولي (٦مكرر)، وبين الهدف التاريخي الذي يعكس القصد الأعمق والأشمل والأهم لمقولة «التصحيح ضرورة تاريخية»، فما هو هذا الهدف لدى الأسد؟

هدف التصحيح لدى الأسد هو تطوير الإنسان والمجتمع نحو الأفضل، نحو تحقيق الدولة العربية القوية الحضارية الواحدة بمضمونها الإنساني القيمي. وهو، أي هذا الهدف، إذ يحمل هذا التطوير نحو الأفضل، فإنه منسجم مع حركة الحياة والتاريخ، والتي يرتبط معها بعلاقة وجود مصيرية، ويتسم بسماتها، فما هي هذه السمات له وبها؟

أ - التصحيح كالتطور، كالحياة «حركة نحو الأحسن»(٧)، و«سيكون هدفنا دائما تغيير اللحظة التي نعيشها نحو لحظة مستقبلية أفضل» (٨). فالمهم أن يحدث تقدم «وأن يشعر الإنسان إنه يسير إلى الأمام»(١٠).

ب - قانون التصحيح كالتطور وكالتاريخ هو قانون الحياة الذي يقول: «الحياة حركة» (١١)، وإنه «دائمًا يوجد تطور»(١٢)، و«التطور قانون حتمي تاريخي لايستطيع أحد أن يمنعه»(١٣). وتفرضه الضرورة أو «الحاجة الفعلية، التي هي «متحركة وتتطور»(١٤)، وتختلف باختلاف مراحل التطور عند الإنسان وفي التاريخ.

التصحيح والأسد

حيث «كل مرحلة لها خصائصها، وبالتالي لها حقوقها وواجباتها» (١٥)، أي متطلباتها.

جـ - التصحيح كالتطور عملية شاملة لجوانب الفكر والواقع الاجتماعي، أي الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية(١٦)، والتي ترتبط فيما بينها بعلاقة جدلية أو تفاعلية، أي تبادلية لفعلي التأثر والتأثير. يقول الأسد: «تعطي حصيلة التفاعل بين الفكر والواقع تطويرًا للفكر ذاته من جهة، وفهمًا أوسع للواقع من جهة أخرى» (١٧).

د - التصحيح كالتطور وكالتاريخ من معطياته القصدية ماهو مرحلي آني تكتيكي متغير ومنه ماهو دائم استراتيجي ثابت (١٨). و«يجب ألا نخطئ فنجعل الأشياء التكتيكية المؤقتة تطغى على الأشياء الاستراتيجية البعيدة» (١٩).

هـ - التصحيح كالتطور وكالتاريخ وكالحياة التي «دائمًا فيها شيء جديد» (٢٠) مرتبط بعملية الصراع المستمرة مابين القديم والجديد، ويقف إلى صالح الجديد في مرحلة تعايشه مع القديم، والتي يراها «حتمية» إذ يقول: «في أي عملية انتقال من حال إلى حال لابدّ أن يعيش القديم والجديد معًا، جنبًا إلى جنب زمنًا، هذا لأن المرء لايستطيع أن يحذف القديم دفعة واحدة، وينتقل إلى الجديد» (٢١)، و «الحياة تفرز أمورًا مستجدة ومستمرة، ولكن المهم أن نكون عند مستوى هذه الأمور المستجدة» (٢٢).

و - التصحيح كالتطور وكالتاريخ وكالحياة مرتبط بالعملية الجدلية مابين العام والخاص، أي مابين الظروف الموضوعية المستقلة نسبيًا ومابين فعل الذات في الداخل القومي والوطني. يقول: «في الحياة عوامل موضوعية ثابتة، وهذه العوامل الموضوعية الثابتة لها إفرازتها التي تغير بين فترة وأخرى أرقام المعادلات في كلّ المجالات» (٢٣). و«إننا بقدر مايقوم أحدنا بواجبه فإننا نقلّل من آثار العوامل الموضوعية في الصعوبات» (٢٤). ويؤكد: «إذا كانت الأسباب الموضوعية تفرض نفسها فإن الأسباب الذاتية نفرضها نحن وبفعلنا من البداية إلى النهاية» (٢٥).

هذه هي السمات الأساسية لهدف التصحيح عند الأسد. والسؤال الآن ماهي رؤيته لمنطلق التصحيح؟

٢) الأسد ومنطلق التصحيح:

يرى الأسد أن منطلق التصحيح هو قراءة الواقع «بجوانبه المختلفة قراءة متأنية موضوعية علمية»(٢٦)، «قراءة من يتطلع بعيدًا في مستقبل الحياة والتاريخ، ومن يصبو مكافحًا إلى تطويع هذا المستقبل في خدمة الأمة، ووفقًا لمبادئها وقضاياها ومبادئ وقضايا الإنسان عمومًا» (٢٧)،

قراءة بشكل «المنطق الجدلي» (٢٨) فيها: «المنطق العلمي الذي يقوم على التحليل العلمي الموضوعي لظروف النضال، وعلى التحليل الواقعي للأوضاع الملموسة التي ماتبرح في تطور وتغيّر» (٢٩)، وبحيث، مهما تكن عواطفنا لابدّ أن نبقى في إطار الواقع الممكن» (٣٠)، على أن لانقبل به ونستسلم له باسم «الواقعية» (٣١)، وإنما نعمل على تصحيحه باستمرار من خلال الثورة التي هي وسيلة هذا التصحيح في رؤية الأسد، فماهي ماهيتها عنده؟

٣) الأسد ووسيلة التصحيح: الأسد والثورة:

الثورة إذن هي أداة التصحيح المجتمعي عند الأسد، وبالتالي فهي تتسم بسماته المذكورة. إنها «عمل دائب للانتقال إلى الأفضل، وجهد مستمر من أجل التقدم والبناء... فطريق الثورة طريق لا نهاية له، إذا قطعنا شوطًا كان أمامنا أشواط أخرى» (٣٢). و«الثورة ليست قفزة خلابة محصورة في زمن معين... إنها فعل متتابع متطور. الثورة إرادة ثابتة فهي إنجاز متواصل متسارع» (٣٣). وهي «متكاملة الجوانب» (٣٤) لأنها تحمل العلاج الكلّي الشامل وليس الجزئي الوضعي. يقول: «دائمًا معالجة الأمور بأن ننظر إليها على إنها جزئية بمعزل عن الشمولية، مثل هذه النظرة والمعالجة على أساسها لا تؤدي إلى نتائج إيجابية» (٣٥)، مؤكدًا أن الثورة الوطنية «جزء من الثورة العربية الشاملة» (٣٦).

ويرى الأسد إن منجزات الثورة في كل مرحلة تاريخية تشكل «قوة دفع جديدة» للمرحلة التالية. يقول: «قوة الدفع هذه أو «الشحنة الجديدة هي حصيلة الانتقال بين الموقعين الزمنيين، هي حصيلة التفاعل بين الحركة والمسار... هي حصيلة التفاعل بين مختلف عناصر الانتقال» (٣٧) من مرحلة إلى أخرى. فيها العبر التي هي «حصيلة جهدنا الماضي مانجح من هذا الجهد وما فشل» (٣٨).

ويبين الأسد أن الثورة في توجهها إلى التصحيح التطوري تتألف من فعلين: الأول هو فعل التغيير التراكمي الذي يؤدي إلى الفعل الثاني الذي هو فعل التغيير التحوّلي لمعطيات الواقع، والذي يراه «عملية متجددة متطورة» (٣٩). وبهذا لا تكون الثورية عنده «انسلاخًا تامًا عن الواقع»، وإنّما هي «أن نتحرك ونحرك معنا هذا الواقع لكي يصل إلى المستوى الذي نريده» (٤٠). وطبعًا انطلاقًا من معطيات وإمكانات خصوصيتنا الوطنية والقومية، تراثًا وحاضرًا ومستقبلاً، أي انطلاقًا من ظروفنا الموضوعية والذاتية معًا، حيث لكل ثورة ظروفها» (٤١). ويرتبط تطور ومصير الثورة، فشلاً أو نجاحًا، بأداتها البنيوية

البشرية بالدرجة الأولى، فمن هي هذه الأداة حسب رؤية الرئيس الأسد؟.

٤) الأسد وأداة التصحيح:

أداة التصحيح عند الأسد هي نفسها إداة وسيلته الثورة، إنها مؤلفة ككل بنية ثورية من طرفين: طرف القيادة أو الإدارة، وطرف القواعد أو جماهير الشعب. تحمل هذه الأداة المسؤولية الأولى في تحديد نسبة نجاح عملية التصحيح، والذي يتحدد، أي هذا النجاح، في رؤية الأسد له، فيما يخّص هذه الأداة، بأربعة شروط مترابطة جدليًا: الشرط الأول، والذي يشكل «الأساس في مواصلة الطريق» طريق التصحيح والثورة، هو وجود التفاعل المستمر بين الثورة وجماهيرها... بين القيادة والشعب»(٤٢)، والذي منه تبادل الثقة والتعاون مابين طرفي الأداة الثورية، إذ يؤدي إلى التفاف الطرف الأول الجماهيري حول الطرف الثاني القيادي المتمثل بالحزب الحاكم.

أما متى يتم هذا الالتفاف؟ فقد جاء في مقدمة تقرير السياسة الداخلية للمؤتمر القطري الخامس، المؤتمر الحزبي الأول بعد الحركة التصحيحية، والمعقود في أيار ١٩٧١، حول تحديد ذلك، بأن هذا الالتفاف يكون «حسب النسبة التي يستطيع فيها هذا الحزب تمثيل مصالح الجماهير وأهدافها، وبقدر ماتكون برامجه متلائمة مع الواقع وظروفه، وبقدر ماتثبت ممارساته لبرامجه صحتها وفائدتها للجميع» (٤٣)، أي مصداقيتها. يقول الأسد: «كلامنا سيفقد مصداقيته إذا لم نمارس كما نقول» (٤٤). ويؤكد أن «القيادة بسلوكها وممارساتها»(٤٥). وهنا تبرز ضرورة المحاسبة وسيادة القانون ومحاربة الفساد على كل صعيد، والذي يمكن لعيناته «أن تدمّر أخلاق المجتمع تدميرًا كاملاً» حسب تأكيد الأسد (٤٦)، مما يفسّر التوصيات المتكررة لكل المؤتمرات الحزبية بشأن تنفيذ هذه الضرورات جميعها، لأنه وحده يعني حماية هذا التفاعل الشرطي مابين الحكم والشعب، ومن منطلق يؤمن به الأسد وهو «أن الحكام وجدوا من أجل الشعب، وأن الشعب لم يوجد من أجل الحكام»(٤٧).

الشرط الثاني لنجاح عملية الثورة، حسب رؤية الأسد، هو الوجود القوي والفعال للثوريين الحقيقيين في صفوف طرفي الأداة الثورية، أي طرف القيادة وطرف الجماهير، والذين يشكلون «الطليعة التنظيمية» التي لابدّ منها لكل ثورة» (٨٤)، والتي «هي قدوة في العمل والسلوك في أي وقت وموقع نحن فيه» (٤٩)، ويحمل أصحابها كما يقول الأسد «مواصفات الصدق والصراحة والشجاعة والوضوح والرؤية الشاملة» (٥٠). ومنها مواصفات التفائل وامتلاك الثقافة والمرونة وصدق

التصحيح والأسد

الانتمـاء، والالتـزام قـولاً وفـعـلاً، ومنهـا عـقـلانيـة ومـوضـوعـيـة الفكر والموقف وأخلاقيـة واسـتـقـامـة السلوك، ومنهـا مسؤولية الضمير، وحكمة القرار، وتخطيط الفعل، وتنظيم الجهـد، وتصـميم الإرادة، ووعي السياسة، ومعرفة التاريخ، التي يؤكد الأسد على أهميـتهـا، ليس فـقط بالنسبة للثوري وللسـيـاسي الذي بدونهـا «لايكون سياسيًا كما يجب»(٥١)، وإنما لكل مواطن. يقـول: «لابدّ لكل إنسـان ولكل شـعب أن يتـذكر دائمًـا حـقـائق التـاريخ وأن يمسك بهـا»(٥٢). ونتسـائل هنا: كم من قـيـاديينا ومـسـؤولينا ومـثـقـفـينا يعـرف المرتكزات العلمية الموثقة لكون وجود الأمة العربية هو أول وجود بشري عاقل مستمر في «التاريخ» وهو الوحـيـد في ذلك، وإنه بالتـالي هو الأصل البـشري والحضـاري لكلّ شـعـوب وحـضـارات العـالم، ولكون سـورية مـهـد الحضارة؟ ولما لهذا من منعكسات محورية هامة؟

الشـرط الثـالث هو وجـود المناخ الديمقـراطي الآمن، مناخ حـقـوق الإنسـان وبخاصة حق العدالة التي يرى الأسد أنها «تدخل في الإطار السـيـاسي والثـقـافي والاقتصـادي وبالتالي في الإطار الحيـاتي عمومًا (٥٣)، وأن الحيـاة «لايمكن أن تكون بمعـزل عنهـا» (٥٤)، وحق الحـرية التي هي «حق مقـدس» في الدستور السـوري، والتي يؤكد الأسـد على ضرورة وجودها منذ أول أيام الحركة التصحيحية، مبدءًا وتطبيقًا وممارسـة (٥٥). يقـول: «إن الإيمان بالديمقـراطيـة يعني الإيمان بحـرية الجماهير وحقها في أن تنعم بهذه الحرية في ظلّ مؤسسات كفيلة بحمايتها والدفاع عنهـا ضدّ الذين يحـاولون انتـقـاصـهـا أو تشويهها. وبقدر ماهي الديمقراطية ضرورة لجعل السلطة في يد الشعب، فإن الحرية ضرورة أساسية ليصبح الشعب أقدر على العطاء، وأقـدر على البـذل، وأقـدر على الإبداع» (٦٥).

الشـرط الرابع لنجـاح عـمليـة الثـورة حسب رؤية الأسـد هو الوجود المستمـر لمراجعة الذات التي تتم بالنسبة للقيادة من خـلال عـملية نقـد ذاتي لبيـان الإنجازات أولاً، «ولكشف مـواطن التـقـصـيـر حـيـثـمـا وجدت للتنبيه إليهـا ومعـالجتهـا وإزالة أسـبـابهـا»(٥٧) ثانيًـا. من هنا جـاء تأكيـد الأسد على أهمية موقف عدم السكوت عن الخطأ، والذي دفع المؤتمر القطري السـابع المعقود في كانون الثاني عام ١٩٨٠ إلى أن يعـدّ قـول الأسـد حـوله، في خطـابه فـيـه، شعار المرحلة (٥٨)، جاء فيه: «لا أريد لأحد أن يسكت عن خطأ، ولا أن يتـسـتـر على العيوب والنواقص، لأن مثل هذا التسـتر سيحقق تنامي العيوب والأخطاء وتراكمها، مما يمكن أن يؤدي مع مـرور الزمن إلى

هدم ما بنيناه في أكثر من مجال... ان كشف الخطأ يشكل الخطوة الأولى لإصلاحه»(٥٩).

والمفترض أن نحرص جميعًا، كما يؤكد الأسد، على أن نكون من «الطليعة التي تعالج الخطأ وتتجاوز السلبيات وتصحح المسار عندما يعترض هذا المسار أي خلل»(٦٠). ويقول: «إن الصراحة بيننا وبين الشعب هي واجب علينا كقيادة، وعلى جميع المؤسسات أن تمارس دورها كاملاً بدءًا من قيادة الحزب وقيادة المنظمات الشعبية والإدارة المحلية ومجلس الشعب. إننا لسنا بحاجة إلى مؤسسات واجهية، وإننا بحاجة إلى أن يمارس كل فرد دوره كاملاً مع ضرورة معالجة الخطأ فور وقوعه»(٦١).

٣ - الخاتمة وقول أخير:

نراه قولاً هامًا هذا الذي يتوجّه فيه الراحل الخالد حافظ الأسد إلى جماهير الشعب مؤكدًا: «من يقرر صنع التاريخ ليس الخائفين والمستسلمين والمتخاذلين، من يقرر صنع التاريخ هو أنتم... الجماهير طال الزمن أو قصر. هذا ما أكده التاريخ ذاته، هو ما أكده الماضي ويؤكده الحاضر وسوف يؤكده المستقبل»(٦٢). أنتم من الأمة العربية التي «صنعت الأساس الذي قامت عليه حضارة اليوم. وليس هناك مايمنع بحكم المنطق ولابحكم الواقع أن تنهض من جديد وتعزز إسهامها الخلاق، بل يجب أن تفعل ذلك» (٦٣).

ونحن نقول كما يقول الجميع: كان المرحوم حافظ الأسد بحقّ وجدارة قائد المسيرة والصمود العربي. ولقد أمسك بسورية، كما يقول بيترلان، مثل «قائد المركب الذي يمسك بالدفة بيد حديدية فوق الأمواج الثائرة، فينعطف ذات اليسار أو ذات اليمين في اللّجة الغاضبة»(٦٤)، وبحيث، وكما يؤكد باتريك سيل، «لم تعد سورية في عهده كرة يتقاذفها لاعبون أكبر منها، بل أصبحت نجمًا بين اللاعبين»(٦٥).

بعد هذا كله، وباستيعاب ماذكرناه من معطيات رؤية التصحيح عند الأسد، يبرز التساؤل المشروع والمسؤول والمستمر، للذات والآخر، عن مدى التزامنا بها، قيادة وإدارة وشعبًا، قولاً وفعلاً.

ثمّ، واليوم، ونحن أكيدون من أن رئيسنا الدكتور بشار الأسد، بكلّ شفافيته المعهودة، عازم على أن يوازن بين اهتماماته في مواجهة تحديات الخارج وشجون الداخل، وعلى أن «لايحمل في يديه سوى خارطة البناء والتطوير»(٦٦)، فإننا نؤكد أن مصير هذه الخارطة، في تحوّلها إلى واقع حياتي معاش، هو منوط بإسهاماتنا الواعية والجادة جميعًا بلاشك، ولكن الأهم هو بنية العناصر القيادية في المواقع الحساسة في هذه الخارطة، والتي هي وحدها صاحبة القرار في تحريك وتفعيل وتنظيم هذه الإسهامات على كلّ صعيد، ممّا يطرح بدوره الأهمية المحورية لوجود المعايير الصحيحة في تعيين هذه العناصر، معايير قوة الانتماء الوطني أولاً، والمقدرة على العطاء والبناء والتطوير ثانيًا، والالتزام بالقيم، وبخاصة سيادة القانون، ثالثًا.

هوامش البحث

(١) - من خطاب القسم للسيد الرئيس الدكتور بشار الأسد في ٢٠٠٠/٧/١٧ الصحف السورية في ٢٠٠٠/٧/١٨.

(٢) - انظر مؤلفنا: المتغيرات والنظام العالمي الجديد، سوريا، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٥، ص١٠٦ - ١١٥. انظر أبحاثنا عموماً حول منهج فكر حافظ الأسد.

(٣، ٤) - عادل رضا: قراءة في فكر الأسد، أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٣، ص١٩٢ - ١٩٣.

(٥ - ٦ - ٧، ٩ - ١٥، ١٩ - ٢١، ٢٣ - ٢٤، ٣٠ - ٣١، ٣٥ - ٣٨، ٤٠ - ٤١، ٤٤ - ٤٦، ٤٨، ٥٠ - ٥٥) راجع أقوال ومحادثات الأسد في مؤلف اسكندر لوقا التوثيقي: حافظ الأسد قيم فكرية إنسانية، دمشق، ١٩٩٤.

(٦مكرر) - انظر منشورات مركز المعلومات القومي بهذا الشأن.

(٨) - من كلمته في ختام المؤتمر القطري الثامن للحزب في ١٩٨٥/١/٢٠.

(١٦و ٢٨و ٢٩) - انظر «بعض المنطلقات النظرية».

(١٧و ٣٩) - من خطابه أمام مجلس الشعب في ١٩٩٤/٩/١٠.

(١٨و ٦٣) - من خطابه في افتتاح مؤتمر اتحاد العمال في كانون الثاني ١٩٩٢.

(٢٢) - من كلمة الأسد في الذكرى الثالثة عشرة لثورة آذار في ١٩٧٦/٣/٨.

(٢٥) - من خطابه أمام مجلس الشعب في ١٩٨٦/٢/٢٧.

(٢٦) - من خطابه أمام مجلس الشعب في ١٩٩٢/٣/١٢.

(٢٧) - من كلمته المرتجلة في اجتماع اللجنة المركزية للحزب في ١٩٨٤/١٢/١٠.

(٣٢و ٤٣) - من كلمته في الذكرى الثانية عشرة لثورة آذار في ١٩٧٥/٣/٨.

(٣٣و ٥٧) - من كلمته في الذكرى السادسة عشرة لثورة آذار في ١٩٧٩/٣/٨.

(٣٤) - تطرق لذلك في كل خطبه. انظر على سبيل المثال خطابه في الذكرى السابعة عشرة لثورة آذار في ١٩٨٠/٣/٨. وانظر الدستور المقر بعد الحركة التصحيحية.

(٤٢) - المقدمة في التقرير السياسي المقدم إلى المؤتمر القطري الخامس المعقود فيما بين ٨ و ١٤ أيار ١٩٧١.

(٤٧) - جان توشار وآخرون: تاريخ الفكر السياسي، ترجمة عن الفرنسية لعلي مقلد، الطبعة الثانية، الدار العالمية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣، ص٢٢٥.

(٤٩) - راجع فصل «الثورة وحزب البعث

العربي الأشتراكي في كتاب: كذلك قال الأسد، دار طلاس، ص٢٩ ومابعده.

(٥٦) - من خطابه أمام مجلس الشعب في ١٩٧٣/٦/٩.

٥٨) - راجع مقررات المؤتمر القطري السابع.

(٥٩ و ٦٠) - انظر كلمته المرتجلة في الجلسة الختامية للمؤتمر القطري السابع للحزب في ١٩٨٠/١/٦.

(٦١) - من خطابه أمام مجلس الشعب في ١٩٨٥/٣/١٢.

(٦٢) - من كلمته المرتجلة في مسيرة دمشق الشعبية الكبرى في ١٩٨٢/٣/٧.

(٦٤) - Cf. Lucien BITTERLIN: Hafez El - Assad Le parcours d' un combattant, paris, 1986, p. 260.

(٦٥) - باتريك سيل: الأسد - الصراع على الشرق الأوسط، ص٥٦٨.

(٦٦) - من حديثه إلى صحيفة الشرق الأوسط في شباط ٢٠٠١ (جريدة البعث، العدد ١١٤١٩، تاريخ ٢٠٠١/٢/٨).

في علم اجتماع القيادة التاريخيّة للقائد الخالد حافظ الأسد

الدكتور: فايز عز الدين (*)

مقدمة:

في مطلع العقد السابع من القرن العشرين /١٦/ تشرين الثاني بدأ تاريخ جديد لبلدنا سورية. ولحزبنا القائد حزب البعث العربي الاشتراكي بظهور القائد حافظ الأسد على رأس مناضلي الحزب، وجماهير الشعب الوطنية في حركة تصحيحية أعادت ترتيب البناء الداخلي لسورية، والأهداف القومية للحزب، والسياسة الدولية المطلوبة خدمة لأهم القضايا العربية قضية فلسطين والأراضي العربية المحتلة.

(*) د. فايز عز الدين: باحث من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب.

ولئن كـان الحـدث التـاريخي يمثل دومًا بداية في التاريخ، وإضافة عما سبق، فـالحـدث كـذلك مـيدان البطولة التي هي بدورها استثناء التاريخ. ففـي كل حوار مع التـاريخ نلتـقي بالبطولة، والبطل، وبالقـوة الصانعة، والمؤثرة صاحبة الميسم الذي وسم المرحلة، وأدرجها في السياق العام لحراك الوطن والشعب.

فـالقـادة في التـاريخ كـانوا المفـاعل الأقوى لحركية الذات، والموضوع، والمحرض الصحيح لكل فـاعلية اجتمـاعيـة تاريخيـة بحـيـث يصـبـح الوعـي مـحـكومـًا بالواقع، والوقـائع، ويتـحـول التطور إلى نتـيـجـة منطقية لعلّة سببية راجحة.

وبالحـوار مـع قـادة التـاريخ نكتـشف ثلاثيـة التـجـادل: التـاريخي، الاجتـمـاعي، البنيوي لنتـمكن -إثر ذلك- من أن نحـدد المسار التحولي لتاريخ دخل حلقة التراث، وصار مـحركًا، ونهجًا نتواصل معه الناس بجـديـة على أنّـه المحـدد النهـائي لدورها، ودور البطل الصانع، والمدوّن.

وتتـوافـق -عـلـى نحـو كبـيـر- أحـلام الناس مـع الحـالة التـاريخـيـة التي صُـنعت، ليصـبح زمن الحداثة مـعلنًـا عن نفسـه في كل مجال وعلى صعيد كل حياة للوطن.

ولما كانت الدراسات السوسيولوجية مدعوة -دومًا- لإظهار اللوحة الاجتماعية الواقـعـيـة عن حـيـاة الشـعب، وعن قـوانين سيرورته، وعمله، وتطوره، فإنها ستساعدنا في تلمس الملامح الكبرى للقيادة التاريخية للقائد الخالد من خلال النظر في منظومة العلاقـات الاجتمـاعيـة المتشابكة: وطنيـًا، وقـوميـًا، وعـالميـًا، وكـذلك بنائيـًا، وتعـبـويـًا حـــتـى نســتـــوضح الأثر الكلي للنسق الاجتماعي العام في التمهيد لظهور القائد، وكـذلك الأثر الخـاص للفـرد الموهوب في التحديد الجديد للعصـر الجديد، وإدخال النسق الاجتماعي العام في شروط تاريخية مـسـتـجـدة، وقـادرة على الخلق المبـدع، والتلوين الخلاق لطيف الوطن المتـرامي الأبعاد، والأحلام.

وبناء عليـــه سنرى أن التـــاريخ - كمقولة، وواقع في الزمـان- تتألف مكوناته من جـدليـة الاجتـمـاعي، والفـردي، والعـام، والخــــاص، والـذات، والموضــــوع، وعلـى أساسها يُصنع، ويُكتب.

ثانيـًا: القيـادة في منظور العلم الاجتماعي:

في القـرن التـاسع عشر كان المذهب البطولي الذي تحـدث عنه كـارليل تومـاس، الكاتب والمؤرخ الانكليـزي، يُعظّم من شـأن الفـرد البـارز في صناعـة التـاريخ.. وكـان هيغل الفيلسوف الألماني يرى الرجل العظيم

أنه في المقام الأول تعبير عن روح العالم في زمنه، وهو روح حضارته.

واعتقد هيغل أن انتصار يوليوس قيصر ليس انتصارًا شخصيًا وحسب، بل هو حافز لا واعٍ قد هيّأ ما كان قد نضج الزمن من أجله. فالعظماء -كما يرى- تنطوي أهدافهم الخاصة على إرادة روح العالم في عصرهم، ويمثلون هم هذه الروح بمصداقية.

أما بليخانوف -المفكر الروسي الكبير- فقد رأى أن الفرد - بفضل الخصائص والميّزات التي يتمتّع بها- يمكن أن يؤثر في مصير مجتمعه، لكن هذا سيبقى مشروطًا بقدرته على خلق الشروط اللازمة. ويحاول بليخانوف أن لا يرى هوّة سحيقة بين ثنائية الذات، والموضوع.

وفي كل قراءة للمفكرين، وعلماء السوسيولوجيا سنجد أن مقارباتهم للتاريخ، وللبطل تنطلق من أن الرجل العظيم يعدّ عظيمًا لكونه يتحلّى بصفات تجعله أقدر من الآخرين على الاستجابة للضرورات الاجتماعية التاريخية في عصره.

ونعود إلى تسمية كارليل توماس لهؤلاء العظماء بأنهم: البادئون، فهم الذين يرون أبعد من الآخرين، ويباشرون نضالهم لمواجهة المسائل المحتاجة إلى حلول تاريخية، ووقفة وطن، فهم السبّاقون والبادئون.

وحين عالج علم الاجتماع مسألة العملية التاريخية انطلق من القيادة، والقائد، والتاريخ ليصل إلى أن القيادة لها الدور الحاسم في النشاط الواعي للناس.. والعظماء ليس بمفردهم يصنعون التاريخ بل بقدرتهم على حشد الشعب في تنضيد نفسي صحيح، وتعبئة ذهنية إرادية قوية. فالشعب مصدر كل عمل تاريخي، وأداته، والصانع الماهر لكل تاريخ.

والقائد -بكل عمل- سيحقق الثورة في الشعب، وبه، وله. ومهما تعددت اتجاهات تأويل التاريخ سيبقى التاريخ نتاجًا للعمليتين: الوعي الذاتي، وحرية الاختيار، والمجهود الإبداعي.. والعوامل الموضوعية في جدلية كاملة.

وحين نتفحّص العملية التاريخية نلمس بعلميّة منطق كل قيادة، وأسلوب إدارتها، وآثارها.. ومنذ ابن خلدون العربي، وفولتير الأوروبي، وفيكو، وهيردر، ومونتسكيو، وروسو أعلام الفكر الأوروبي والتاريخ يقرأ، ويؤوّل. وتستخلص منه العبر ليتضح في كل قراءة أن دورة الزمان ولو تعدّدت طبائعها ستبقى تمثل مملكة في الانتظام، والقانونية كما رآها هيجل.

والتاريخ ليس سلسلة من الحوادث فقط، بقدر ما هو تشابك معقد لأفعال البشر، مملكة من الانتظام، والصيرورة يستلزم فيها الماضي حاضراً، ويستتبع الحاضرَ مستقبلٌ. وبذلك يتواصل التاريخ بكونه ميدان تحقق الروح العالمي التي تبدو وكأنها تسير وفقاً لخطة مرسومة.

واستناداً عليه فالقائد. والتاريخ لايمكن النظر إليهما بفهم مجرد، وأحادي بل يمكن أن يُنظر إليهما معاً بذلك نتعمق في فهم التقدم الذي كان، والذي استجدّ في الطور التاريخي، والقانونيات الحاكمة في العملية الاجتماعية، وأسباب تفاعل حلقات التاريخ الدينامي.

ومن المؤكد أن مجال التاريخ خاضع لضرورة تكشف عن نفسها عبر جملة من الأحداث الطارئة، والمعلومة الحدوث. وأن أعمال البشر قد تأتي متوافقة مع هذه الضرورة، أو ضدّها. والقائد هو العامل الحاسم في عملية انسجام أعمال الناس مع الضرورات التاريخية المتوقعة، والمشهودة. وهذا الجانب القصدي هو الذي يشكل العامل التثريري الفاعل في التاريخ.

والقيادة – وفق هذا التأسيس- هي علم، وفن المبادرة التاريخية... فمن من الرجال العظماء أن يكشف عن سنن التطور، وأن يمتلك ناصية التاريخي، والاجتماعي، والبنيوي هو الذي يقبض – بثقة- على زمام التاريخ، ويصبح قادراً على إدراك القانونية الحاكمة في الميل فيه. ليقوم بتوجيه ذلك كله في مصالح وطنه، وشعبه، وأمته، وهو بذلك لا يسير مع التاريخ بل يصنع فيه، ويكتب...

ثالثاً: سمات القائد التاريخي:

إن نظرية القيادة التي اعتمدت على العلم بالمبادرة التاريخية التي يدخل في إطارها الفعل الإرادي الواعي، والعوامل الموضوعية المعيشة، تجمع -إذاً- بين الذات بنشاطها مشاركة بالحدث التاريخي، وبين الموضوع الذي هو مجموع الشروط التاريخية المصاحبة للحدث، والمسببة به.

وتبحث نظرية القيادة في مسألة القائد بوصفه وضعية مركبّة، أي متشكلة بشمولية من الجانب الفئوي، والطبقي، والشعبي، والوطني، والقومي، والداخلي، والخارجي، والسيكولوجي، والأخلاقي والروحي، والجمالي، والمعرفي.

فالقائد محصلة لكل ذلك، ورائد فيه. وذلك كله ما يجعله: شخصية متفردة، ولها تميّزها... وشخصية مندمجة بآفاق المرحلة التاريخية. ومحققة للتقدم التاريخي... وشخصية لديها القدرة الخّلاقة

على الاستجابة لكل حدث اجتماعي تاريخي، بفعل محايث يحقق التراصف الصحيح لشعبه لمواجهة هذا الحدث.. وشخصية تجعل من آليات التطور الإنساني، واتجاهاته منسجمة مع طموح جماهيره، وأهدافها في الحرية، والحياة الكريمة، والعدل.

فالقائد هو الأقدر على تجسيد جدلية الواقعي والذاتي بفعل ورد فعل مستمرين، ومتجاوبين في أفق تاريخي واحد، وهو المالك الدائم للقانونية الاجتماعية، السياسية بأفق متطلع، ومتطور، وحيوي.

فالمرحلة التاريخية التي تمر به، أو يمر بها مرصودة من قبله، معلومة عناصرها، وقواها، ومتوقعة اتجاهاتها، ومعدّ الحساب الكافي لها.. لذلك لن نرى القائد مرتبكًا، مداهمًا، مترددًا، أو فاقدًا لزمام المبادأة في كل شأن.. بل نراه دومًا متمتعًا بنظرة صائبة، وروح متمردة، وذات متفائلة صانعة بتوازن انفعالي كامل، وعقل راجح، متفتح، مستنير.

وبفعل آلية التراكم المعرفي المتوافرة لدى القائد نجده قادرًا على اكتشاف ماوراء الحدث الذي يواجهه، ومتمكنًا من إدراك عملية تحول هذا الحدث الداخلية. ومصرًا على أن لا تكون نتائج هذا الحدث بغير مصالح وطنه وشعبه. وهو بذلك عصب التحكم المأمول بالتحولات الحاضرية، والمستقبلانية لا تباغته الظروف المستجدّة ولا تشوّش رؤية تفاعلاتها المركبة، أو تبعثر ذهنيته تعقيداتها المتلاحقة، المتشابكة بحيث يصعب القرار الحاسم، أو يتأجل بما ليس فيه مصلحة للوطن، والمواطن.

القائد -بكل حال- هو الاستراتيجي البارع، والتكتيكي العملاق، وهو المفكر وهو يعمل، والعامل وهو يفكر على نحو يسمح له باكتشاف آلية الواقع المتغيّر، والاحتمالات المنطوي عليها هذا التغيّر ليكون العالم المفكر بمسائل العصور، والدهور، والقابض على عصا المرحلة التاريخية برؤية مستقبلية سليمة عبر جدلية الراهن في طور الفعل التاريخي، والمتحول في آفاق التقدم المطموح به والثابت في حقل التجديد، والمتجدد الممهد لظهور غيره.

وبالمحصلة نجد أن سمات القائد التاريخي طيفها واسع، ويمكن أن نحدد منها:

- القائد شخصية امتلكت إحاطة شاملة بالحركة الكلية للمجتمع، والتاريخ، وسنن تطورهما.
- القائد شخصية امتلكت جدلية الفكر،

والعمل ليفكر عاملاً، ويعمل مفكراً.

- القائد شخصية التزمت بمقتضيات النهج العلمي الموضوعي في المعرفة، والممارسة.
- القائد شخصية انتمت إلى أهداف المرحلة التاريخية، وانخرطت في نضالها ممسكة بقانونياتها.
- القائد شخصية اختارت منهجها القادر على أن يدفع بأفق المرحلة التاريخية الناهض.
- القائد شخصية جريئة في التبني، والدفاع عن فكرتها، وفي النقد الذاتي لأدواتها، وأساليبها.
- القائد شخصية تنطلق دوماً من موقع من تتبنى قضاياهم، وتمثلهم، وتحرص على تحقيق مشاريعهم.
- القائد شخصية موحّدة في ذاتها، متصالحة مع نفسها، وتطرح الوحدة، والتصالح مع الناس.
- القائد شخصية جذابة، ومتجاذبة ترفض العزلة، والتقوقع، والتكتل، وتمنح التفاعل، والتكامل.

والحاصل الأكبر من جميع هذه السمات هو: الدراية الشاملة، والإرادة الكاملة، والذهنية العاملة والمنهجية الفاعلة التي تمثل المحرك الأقوى لسيرورة الزمان، ولديها الإجابة المطلوبة عن أسئلة الحداثة، والتطور فيه.

رابعاً: القائد الخالد نموذج القائد التاريخي:

بعد أن استعرضنا رؤى علم الاجتماع، والسيوسيولوجيا الثقافية بخاصة في نظرية القيادة. وسمات القائد التاريخي نجتهد الآن كي نطابق هذه المحددات التي تعرّفناها على شخصية القائد الخالد حافظ الأسد عبر مسيرة نضاله المتسلسلة في كافة جوانب الحياة النضالية للوطن، والحزب، والدولة.

من المرئي بجلاء عبر ما كتبه لوسيان بيترلان، أو باتريك سيل، أو غيرهم من المؤلفين والمثقفين العرب أن القائد الخالد امتلك سيرة تاريخية لها فرادة في كل شأن.

فهو مذ كان طالباً تميز بين أقرانه.. وحين أصبح مناضلاً في الحزب نَمْذَجَ نفسه، وغدا النموذج لرفاقه.. وعندما أصبح في الجيش تحول إلى قدوة عمل، وبطولة.. ولما قامت ثورة آذار آثر دور المناضل على دور المنافس إلى أن أصبح على قمة الحزب، والدولة بتأييد حزبي، وشعبي كاملين.

في علم اجتماع القيادة التاريخية

وعلى مدى حياته التي امتدت إلى سبعين عامًا استمر يمثل مظهر الوعي التاريخي السليم، وظاهرته. وقدم النمط الاستشفافي، التنبؤي برؤيته التي تتجاوز ظاهر الحدث لتغوص -ببعد معرفي استراتيجي- إلى أعماقه. وما وراءه. فلم تشغله الآنية عن رؤية ما سيلحق. بل كان الأذكى في اكتشاف حلقات التتابع المرهصة في الحدث المعني، وكان الأعلم في مجرى الأحداث... كيف تبدأ؟ وأين تتجه؟ وهدفية المآل.

ثلاثون عامًا في قيادة الحزب، والدولة، والمجتمع حقق فيها الدور الكامل للحزب، ودولته. ومجتمعه حتى اتسمت سورية بنظام الوحدة الوطنية، والديمقراطية الاجتماعية، والسياسية، والتعددية الحزبية، والقطر العربي الذي ينطلق من المصالح العليا للأمة العربية سعيًا وراء هدف الوحدة القومية المرّجح على كل هدف. والبلد العربي الممتلك لقوة عظمى إقليميًا تواجه المخططات الصهيونية المدعومة إمبرياليًا.. ثم إلى البلد الذي يمتلك مدرسة في الواقعية، المبدئية، العقلانية في السياسة الداخلية، والقومية والدولية، وأخيرًا إلى بلد القرار العربي في السلم، والحرب.. وتتويجًا لكل هذا غدا القائد الخالد شخصية عالمية تخطّت حدود الوطن، والإقليم، والقارات لتعانق الساحة العالمية الكاملة بسمة العربي المخلص، الأمين على قضايا شعبه، صاحب المصداقية في العلاقات الدولية.

لقد حقق القائد الخالد معادلات القيادة التاريخية بتوازنية منقطعة النظير، فهو على صعيد الداخل باشر يعبئ الجماهير -منذ صبيحة السادس عشر من تشرين الثاني ١٩٧٠- ويضع الأرصدة المتينة لبناء سورية الحديثة... وعلى الصعيد العربي عمل على تقوية جبهة العمل العربي المشترك. وتفعيل دور التضامن العربي الذي يهيئ مناخات الوحدة القومية في المستقبل القريب.. وعلى الصعيد العالمي قام بتدعيم العلاقة مع جبهة الأصدقاء، وتخفيف حدة سياسة الخصوم لنا، ومعاودة حوارهم بهدف تقريب وجهات نظرهم من عدالة قضايانا القومية. والإنسانية. ومن ثم التعامل المبدئي الثابت، والشجاع مع الأعداء الذين لا يمكن أن يتحولوا عن عداوتهم على أن مشاريعهم -بالأساس- على حساب مشاريعنا القومية، ووجودنا العربي كالصهيونية، وكيانها العنصري إسرائيل.

فالتوازنية بمعادلاتها الكاملة مارسها القائد الخالد، وحقق فيها النصر تلو النصر، ونقل فيها بلده إلى بلد ذي سمعة

في علم اجتماع القيادة التاريخية

كبيرة، وشأن كبير. وهذه التوازنية- المعنية- كانت مدرسة الفكر السياسي والمنهج في العقلانية المبدئية الذي نجح في تفويت الفرصة على الأعداء، وأمّن التقدم التاريخي في كل مجال.

هذه المدرسة من الحكمة. بمنهجها الاستشفافي في بُعدي: السيرورة والصيرورة صنعها القائد الخالد ثم أورثها لنا في الحزب، والدولة، والمجتمع. فالتجربة القياديّة -كلما استكملت- تصبح ميراثًا للشعوب تفيد منها الأجيال المتعاقبة، وتستنصر بها الأمم المتطلعة نحو الغد المشرق.

وحين نتعامل مع أدوات علم البحث الاجتماعي. أو السيكولوجي لنقارب بها ملامح شخصية القائد الخالد سنجد أن عيّنة بارزة تظهر لنا قبل الشروع بالبحث نجملها بما يلي:

- التكوين القومي، والروح الوحدوية المناضلة.. حيث كان يصرّ على أن الوحدة هي العودة إلى وضع العرب الطبيعي.
- الوثوقية الذاتية، وإرادة تحويل المستحيل إلى ممكن.. فهو عامل بدأب على تجميع كافة عناصر المواجهة بقناعة النصر.
- المنهج المعرفي الاستشفافي التنبؤي.. يمتلك ثقافة مستلهمة للماضي، ومتعمقة بالحاضر، ومُعيّنة للمستقبل.
- التواضع، وسمة العالم المستنير.. فالتواضع سمة معرفية تسمح له بأن يعايش ما يحدث ويتقراه بحواسه.
- الجرأة في الدفاع عن المبادئ، والتمسك بالحقوق، والثوابت.. فالحق الساطع، والشعب الواسع شعاره.
- تفاؤل المكافح. وقوة القناعة بالمستقبل.. فلن يدخر جهدًا في الخندق إلى أن يقضي حاجة الوطن والتاريخ.
- ترجيحه الدائم للمركزي والمصيري على المحلي، والآني.. فهو يرسم صورة الوجود الواحد للعرب والمصير الواحد.
- براعة استحضار الاستراتيجي، والتكتيكي كلٌّ بأوانه.. فالاستراتيجي فقط لا يوصل إلى هدف، والتكتيكي فقط لايوصل إلى هدف.. إذ لا بد من أن تُلازمَ الاستراتيجيةُ تكتيكاتها، والتكتيك استراتيجياتهُ.
- حكمة استثمار الزمان ببعديه: البيولوجي، والخارجي.. كي يتشكل القرار بحمل انفعالي سليم.
- نظريته الحياة. ومن الحياة إلى المعرفة والنظرية.. بجدلية العقل، والنقل المعطاة.

❖ أخلاقية الحكمة، وما فيها من اجتماع العقل بالعاطفة... القائد هو من امتلك العقل والعاطفة مجتمعين.

❖ السرّ الإنساني في الشخصية المؤمنة، الودودة، الخيّرة... فالشعب له مَثَلٌ أعلى في قائده.

ولو عدنا إلى قراءة خطابه السياسي، أو الثقافي، أو المجتمعي لا بد أن نلتقي بالحكمة من أوسع أبوابها فها قوله:

«ليحرص كل منا على كرامة الجميع، فلا كرامة لأحد منا إذا لم تكن الكرامة للوطن بجميع أبنائه».

«إننا في سورية حملة مبادئ، وسورية هي المؤمنة بقضايا الأمة العربية لاتزعزعها الرياح، ولا طعنات الغادرين».

«السماء العربية تبدو حالكة، ولكنها في العمق ليست كذلك. إنها فترة المخاض، وغداً سيولد الفجر العربي الجديد الذي تبدو، وتطلع علينا تباشيره».

«جماهير الشعب هي قاعدة الحكم، وأساسه».

وفي خاتمة المسعى تحيلنا الذكرى الثانية لرحيل القائد الخالد حافظ الأسد إلى عقود ثلاثة من القرن العشرين ترسم لوحتها أمامنا، وأمام كل جيل بمنجزات حضارة شاملة في سورية العروبة تزّينها الشوامخ والسدود، والكهرباء، والماء، والطرق، والمصانع، والمدارس، والمستشفيات، والشعب المنظم، والدولة القوية، والفكر القومي المبدئي الإنساني.

وفي الذاكرة يجتمع الحزن على الفقد، بالفخر بالمُنجز. ومع كل حال فهاهي السنون تَخضَرُّ زمانها أكاليل غار على القائد الخالد الذي حمل إرادة العرب، والعروبة منتصراً... وخطاب المواطن في الذكرى الثانية لمجاورتكم الملأ الأعلى -أيها القائد الخالد- أن نهجكم باقٍ في الوطن المخلص لكم، ومحمولٌ في الشبل الذي يواصل الكفاح في الخندق، وعيناه مملوءتان بالألق المندّى بعبق تاريخكم الخالد.

❖ ❖ ❖

المراجع

- المعجم الفلسفي، دار التقدم -موسكو- ١٩٨٦.
- دور الفرد في التاريخ -دار دمشق ١٩٧٤- بليخانوف.
- مسيرة مناضل: لوسيان بيترلان.
- كذلك قال الأسد: اختارها، وقدم لها سيادة العماد أول طلاس.
- كريم بقرادوني: لقاء في جريدة تشرين الشهر الحادي عشر ١٩٩١.
- مجلة لوبوان الباريسية التاريخ ١٩٨٣/١٢/١٤.
- حافظ الأسد: الديمقراطية، والمتغيرات الدولية. د.فايز عز الدين- طبعة عام ١٩٩٣.
- حافظ الأسد: سوسيولوجيا القيادة التاريخية. د.فايز عز الدين - طبعة عام ١٩٩١.

في ذكرى الرئيس الراحل (حافظ الأسد) حدثٌ أجلٌ..!!

شعر: خضر الحمصي (*)

حَدَثٌ أَجلٌ وفي الأذانِ نداءُ ... أين الأمينُ ونورُه الوضّاءُ؟
أين الذي وهب النضالَ حياتَه؟ ... فسمتْ بنا أيّامُه الغرّاء
يا راحلاً عبرَ الوجودِ مُيمِّمًا ... زُهْرَ النجوم يشدُّه الإغراء
شقَّ الفضاءَ إلى السماءِ مُسافرًا ... ومضى ترشُّ جبينَه الأنداء
حمل الرسالةَ مؤمنًا بخلودها ... وله جناحُ السّافياتِ رداء
وجهُهُ توشّح بالضياءِ مُكلّلاً ... تزهو ومن قسماته الأرجاء

(*) خضر الحمصي: شاعر من سورية عضو اتحاد الكتاب العرب.

حمدت أجل

أسدٌ تعانقه النجوم كأنما ... فتحتْ يديها للعناق سماء
غنَّتْ ملائكة السماء وهلَّلتْ ... عند اللقاء نجومها الزهراء
هذا الذي أمضى الحياة بعزةٍ ... يده ومن دنيا الغِوى بيضاء
هو «حافظٌ» والدهر خلَّدَ إسمه ... غذَّتْ خطاه بمجدها العلياء
قاد البلاد مجاهرًا في عدله ... أنَّ الضعيفَ مع القويِّ سواء
مدَّ الجسور من الجسومِ مضحيًا ... رقدتْ بفيء جناحه الشهداء
يا راحلاً وحدّتَ شعبك بالهدى ... ومنحتَ ما قد يمنح العظماء
أأبا البواسل يا رفيق حياتنا ... صبر المحب على الحياة شقاء
يبكيك شعبٌ، والدموع سواجمٌ ... مثل الغريق تلفُّه الدأماء
فيريمُ مفجوعًا، ويلهثُ جازعًا ... أكذا الوفاء من القلوب سخاء
الشعب جاء إلى الأمين مودِّعًا ... والدمع في يوم الوداع دواء
ملأتْ مآثره الدنا فتألَّقتْ ... والأرض من إعجازه خَضراء
قد آمن الشعب الأصيل بفكره ... فزهت دُنى، واخضرَّتِ الصحراء
ماذا أقولُ وللبيان توجُّعٌ ... عند العظائم تصمت الشعراء
والحرف من ذكرى الفجيعة تائهٌ ... عند النوائب تنزفُ الأحناءُ
قدر الحياة مدوَّنٌ في سفرنا ... بمضي الرجال، وترحل النعماء
يا سيد الأمناء عفوك لم تمتْ ... يانعم ما قد يترك الأمناء
إن غاب ظلّكَ أنت فينا حاضرٌ ... وسماتُ وجهكَ روعةٌ ، وصفاء
يامن رحلتَ إلى الخلودُ مبكّرًا ... لك في الصدور الحانيات بقاء
فلأنت ذكرى في القلوب يضمُّها ... نورٌ يشعُّ ، ومبسمٌ غنّاء
لا تبتئسْ «بشار» بعدك رافعٌ ... عرش اللواء،، وكلنا خلصاء
«بشار» يا أمل العروبة كلِّها ... سر في دروب المجد كيف تشاء
هذا عرينك في الشآم فكنْ له ... أسدًا به يتفاخر الآباء
واعلِ الصروحَ إلى النجوم منيعةً ... فلأنت للشعب الأمين رجاء
وأعد «لحافظنا» الحياة وعِشْ بها ... ذكر الغوالي شرعةٌ ، ووفاء
واحملْ لواء الحكم فكرًا ناصعًا ... فبظلٌ عهدكَ يلتقي الشرفاء

الرئيس حافظ الأسد

في مقاومته الصهيونية العنصرية حيث هي حصيلة استعمار استيطاني

الدكتور: جورج جبور(*)

(١)

ليس سهلاً الحديث عن الرئيس حافظ الأسد، ولما تمض سنتان على رحيله. ليس سهلاً الحديث عنه إذا أحببنا أن نتحلى بكل الموضوعية، والموضوعية أمر مطلوب. إنه ما يزال معنا، في حياتنا اليومية، فكرياً وقومياً. إنه ما يزال معنا، في عواطفنا إزاءه. إنه صاحب الأثر الأول في كل سوري، أو في معظم السوريين، على الأقل لأنه مارس الحكم لمدة ثلاثة عقود. ليس سهلاً الحديث عن الرئيس حافظ الأسد بالموضوعية المطلوبة، أي بالموضوعية التي أحاول التمسك بها، ولكنني سأبذل اقصى الجهد في ذلك الاتجاه، ذلك أن ما أخذت نفسي به في هذه الصفحات إنما ينطلق من التزام إزاء الرئيس الخالد حافظ الأسد. وينطلق أيضاً من التزام إزاء الأمة والإنسانية والعلم جميعاً.

(*) د. جورج جبور أستاذ محاضر في الدراسات العليا في كلّية الحقوق -جامعة حلب (سوريا) مؤلّف بضعة عشر كتاباً منها «القرار رقم ٣٣٧٩ ومؤتمر دوربان».

كـيـف إذن أمـنـهـج العـنوان الذي وضعته في بحث مسلسل؟ أبدأ بالحديث عن خبرتي مع الرئيس الأسد في موضوع الصراع العربي - الصهيوني، ثم أنتقل إلى تقديم أهم محطات مشروع فكري تقدمت به للرئيس الأسد فوافق عليه وتبناه. لأنتهي إلى اقتراحات قد يكون مفيداً أن نأخذ بها اليوم، ولأختم بعد ذلك بنوع من الخلاصة الموضوعية بشأن محاولة الرئيس الأسد بناء عنصرية الصهيونية على أساس مفهوم الاستعمار - الاسيتطاني. وسأفعل كل ذلك باختصار شديد.

(٢)

تبتدئ خبرتي مع الرئيس الخالد حافظ الأسد، بالواسطة عام ١٩٦٦، في العدد الثاني من جريدة البعث الأسبوعي، وقد صدر في ١٩٦٦/٢/١٩، كان لي مقال سلمته إلى رئيس التحرير آنذاك، فنشر قبل أيام من ٢٣/ شباط، معتنىً به، مؤنقاً مهندماً، لافتاً للنظر. لفت المقال - وهو عن منظمة الوحدة الأفريقية، ويتضمن مقارنة بين المنظمة وبين جامعة الدول العربية - لفت نظر أصدقاء وغيرهم من غير الأصدقاء، وكان السيد الرئيس آنذاك ضابطاً طياراً. وقيل لي: يود أن تجتمعا. ولم يحصل. سمعت باسمه لأول مرة بمناسبة نشر المقال، إلا أنني أخذت أسمع باسمه مراراً بعد ذلك، إنه واحد من الضباط الذين كانوا يقررون مصير البلد في تلك المرحلة.

ودهشت بإعجاب: كيف يرتب ضابط موقعه في صميم مصائر الوطن، كيف يرتب وقته ليقرأ. وليعبر عن إعجابه بما قرأ.

ثم أصبح رئيساً للجمهورية العربية السورية باستفتاء شعبي. وبعد لقائنا الأول بالواسطة أوائل عام ١٩٦٦، تلقيت بالواسطة أيضاً طلباً منه وهو رئيس وأنا عامل في القصر الجمهوري. كان ذلك صيف ١٩٧١ وقد استقر في القصر بعد جولة في محافظات القطر. وكان طلبه مدهشاً مرة أخرى: يريد السيد الرئيس أن تلخص له بالعربية كتابك عن الاستعمار الاستيطاني الذي كان قد صدر باللغة الانجليزية. هكذا أبلغني مدير مكتبه الخاص. ففعلت. ولم أشأ أن أنتهي من الأمر عند ذلك الحد. رفعت إليه اقتراحاً بأن تنشئ جامعة الدول العربية مؤسسة لدراسة الاستعمار الاستيطاني المقارن في العالم، وقد وافق السيد الرئيس على هذا الاقتراح وتبناه.

(٣)

دلّت الموافقة السريعة الحاسمة على شخصيته. إنه قائد يستوعب الأمور، وينهض بما يرتبه عليه الاستيعاب. وابتدأت في ١٩٧١/١٠/١٤ رحلة إنشاء المؤسسة المنشودة. وهناك محطة هامة في الرحلة كانت في معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة، وهو معهد أنشأه الفيلسوف

ساطع الحصري ليكون مؤصِّلاً للقومية العربية. حاضرت في المعهد عن الاستعمار الاستيطاني خريف عام ١٩٧٣. وفي ربيع عام ١٩٧٥ صدر عن المعهد مجلدان عن الاستعمار الاستيطاني الصهيوني. إلا أن موضوع إنشاء مؤسسة بقي قيد البحث. إن نظرة الرئيس الخالد حافظ الأسد إلى قضية فلسطين والمشروع الاستيطاني الصهيوني للأرض العربية كانت نظرة استراتيجية، ففي عام ١٩٧٣ تركز خطابه أمام مؤتمر قمة عدم الانحياز على مفهوم الاستعمار الاستيطاني. وفي عام ١٩٧٥ وَجَدَتْ أصداءُ خطابهِ في الجزائر مكانًا لنفسها في ديباجة القرار /٣٣٧٩/ الذي صدر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٩٧٥/١١/١٠ وبه قررت الجمعية أن الصهيونية شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصري. واستمر مفهوم الاستعمار الاستيطاني ظاهرًا في خطب الرئيس الأسد ورسائله العالمية. لم تثنه عنه زيارة عام ١٩٧٧ وما تبعها من تبعات متعبة.

كان السيد الرئيس حريصًا على إيصال هذا الفهم إلى العالم أجمع، وكان مؤمنًا بأن الصهاينة أتوا دون وجه حق. وأن سكان الأرض الأصليين - الفلسطينيين هم الجديرون بكامل فلسطين. وكان يأمل (ويعمل) للحق أن يستعاد.

في تشرين المعارك وفي جولان البطولة، كانت له أيضًا رؤيته للفكر كوسيلة لتجاوز النكبة. في صيف عام ١٩٨٤ وجه رسالة إلى مؤتمر التضامن العربي مع النضال التحرري لأفريقيا الجنوبية، وبها طالب بصراحة الرئيس - المفكر المقتدر بأن تنشأ مؤسسة لدراسات الاستعمار الاستيطاني. ولم يكن بالإمكان تجاهل الطلب. في آب (أغسطس) ١٩٨٩ قامت جامعة الدول العربية بتوزيع مذكرة إلى المندوبيات العربية المعتمدة لدى مقر الجامعة (في تونس) وبها قرار اللجنة الوزارية العربية الأفريقية بإنشاء مؤسسة دراسات الاستعمار الاستيطاني. حازت المؤسسة الشرعية التنظيمية بجهدٍ من الرئيس الخالد حافظ الأسد. إلا أن الجو العربي سرعان ما تلبد بأحداث صيف عام ١٩٩٠. لم تتحول الشرعية التنظيمية إلى شرعية تنفيذية، لماذا؟ لست أدري. ودعم الرئيس الخالد حافظ الأسد المقاومة اللبنانية إلى أن تحرر الجنوب اللبناني (في معظمه) ففتح الباب واسعًا أمام استعادة التضامن العربي. أليس ذلك التحرر أهم إنجازات التحالف اللبناني - السوري الذي أرسى دعائمه الرئيس الأسد؟ أسبوعان يفصلان بين تحرر الجنوب ورحيل الرئيس الخالد، كأن الله أحب أن تقر عينا القائد العربي برؤية الجنوب محررًا، قبل أن تقر عيناه إلى الأبد.

الرئيس حافظ الأسد

(٤)

لماذا لا تقوم الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بإنشاء المؤسسة المقترحة التي ستدعم النشاطات الدولية الآيلة إلى إحياء القرار /٣٣٧٩/ الشهيد؟ لماذا لا يقوم اتحاد الجامعات العربية بدراسة فكرة المؤسسة المقترحة، ولماذا لايوصي الجامعات العربية بها خيراً؟ بل لماذا لا تقوم الجهات المعنية بالمتابعة وهي التي كلفها بذلك الرئيس حافظ الأسد في خريف عام ١٩٧١؟ وما رأي جامعة دمشق والجامعات السورية؟ وما موقف المعهد العالي للعلوم السياسية؟ ذات يوم نشرت لي مجلة المناضل (العددان ٢٠٤ – ٢٠٥ كانون الثاني شباط ١٩٨٧) مقالاً في الموضوع ختمته بعدة اقتراحات آنذاك، شعرت بأن نشر المقال في المناضل ضمانة لتنفيذ ما تبناه الرئيس الخالد حافظ الأسد. وها أنذا الآن أستعيد الشعور نفسه إذ أتوقع رؤية مقالي هذا منشوراً في مجلة المعرفة، ورئيس تحريرها هو الذي سألني أن أكتب. ولكن هل سيتم شيء يا ترى؟ أم أننا ننسى أصل الموضوع إذْ نخوض في تفاصيل مؤتمر دعا إليه شارون، فأيّده جورج بوش الابن، فوصلنا منه مبعوث اسمه بيرنز.

(٥)

حاول أن يبني عنصرية الصهيونية على أساس مفهوم الاستعمار الاستيطاني، ونجح مرحليًا فقد كان القرار /٣٣٧٩/ ابنًا لخطابه في عام ١٩٧٣. أليست إسرائيل ظاهرة استعمار استيطاني؟ أليست هي «روديسيا الآسيوية» التي كانت تقليداً رغب به هرتزل لروديسيا الأفريقية التي استعادت اسمها الأصلي: زمبابوي؟ ألا تدلنا مجمل الأحداث، ولا سيما منذ بدء الانتفاضة في ٢٠٠٠/٩/٢٨، أن فلسطين ستستعيد اسمها الأصلي بعد أن غيبته إسرائيل؟ ألا نتذكر في هذا اليوم، ونحن على مشارف الذكرى الثانية لرحيل القائد الخالد حافظ الأسد، ألا نتذكر نبوءة له، ستتحقق إن شاء الله، حين قال: بأننا سنجعل الجولان في وسط سورية؟ كان يقول: نحن واثقون من الانتصار لأن لدينا الشعب الواسع والحق الناصع. مَنْ من العرب لا يقول قوله؟

❖ ❖ ❖

ذكرى الوفاء
رحيل وبقاء خير وعطاء

د.عبد الرزاق المؤنس (*)

قال الله عز وجل:

(الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤن بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار)

سورة الرعد الآيات ٢٠ - ٢٢

(*) د. عبد الرزاق المؤنس: باحث من سورية. مدير التوجيه والإرشاد في وزارة الأوقاف

تمسكَ بالثوابت واغتنى بالفضائل ووفى بعهده وأبرّ قسمه ولم تغره زينة الحياة الدنيا ولم ينس من كان صادقًا أو مخلصًا ولم يؤثر على مبادئه وثوابت دينه وامته قريبًا ولا مهيبًا، أعزَّ الشرفاء وكرم الأبطال وأعلى قيم الشهادة والشهداء وتمنى أن يكون على مقدمتهم: **(من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا)**

سورة الأحزاب الآية ٢٣

تحدته المحن واتحدت عليه السنون وانقلب عنه جوار ومقربون، فازداد تمسكًا بإيمانه وثقته بالله رب العالمين وأصر على مبادئه ومواقفه يبني ويدافع ويؤلف للحياة ويخط للمستقبل وأضحى بهمته وهمه وغيرته ومصداقيته كجهاز المناعة للوطن ولهذه الأمة... صبر وهو يعمل واتجه إلى المستقبل وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة وكأنه قد فني عن نفسه وعن راحته نسي حاجته وسعادته وهو ينادي: لا هم لي حتى أكون بأمة شماء راوية من الإخلاص راهن على المستقبل لما ألقيت أمامه قضايا خطيرة بصُر فيها بما لم يبصره الكثيرون، فتُرك وحده ثم انجلى الغبار وانكشف الصواب ورجع الآخرون إلى رأيه وعزمته... حقًا إنه حافظ الأسد الرئيس الإمام القائد الراحل رحمه الله تعالى ظاهرة إنسانية عالمية تحويلية للقضايا والمصائر السياسية لا تستطيع العقول أن تدرسها في مدى سنة أو سنتين مرتا على وفاته، بل أطلق الزمنُ حتى تُستكملَ الدراسةُ فلا تزال هناك أعماق من الإيمان والعزة والفكر والمستقبل لم يتأهل بعد من يتعرف إلى شخصيتها، ففي الحسبان الإنساني كلٌّ منها ومن غيرها يمثل قائداً وقيادة مستقلة ولكننا قد نكشف السر عنها فيهون علينا ويتيسر استشراف المقاصد والآفاق، إذا استطعنا بقوة ويقظة وإيمان راسخ وإخلاص وعلم أن نلج إلى تلك الشخصية الشاملة العظيمة مستبشرين وراء قيادة الرئيس المحبوب بشار الأسد ومسيرته المطمئنة، لنعلم بما أذهلنا به من أفكار وقضايا وأهداف ومناهج عمل وتحديث وتطوير استوعاها خطاب القسم الأول له وفيما أدهش العالم من خطابات وأحاديث وأفكار وتطلعات عبر المؤتمرات العربية والإسلامية والداخلية يجعلنا كل ذلك نبدأ بكشف سرّ حافظ الأسد الذي عاش موته في أعماله وأهدافه وقضاياه بصورة تفصيلية متجددة متطورة حيوية الفعل والعطاء تأهل بإذن الله عز وجل وبتوفيقه ليتحملها بأمانة ومصداقية وشفافية الرئيس الدكتور بشار الأسد، فجاء على قدر كأنه الشمس لهذا الوطن والعافية لأبنائه... نؤمن ونحن في الذكرى الثانية لرحيل الرئيس حافظ الأسد لمآثره وبلاغته في القول والفعل

ذكرى الوفاء... رحيل وبقاء خير وعطاء

والمضمنات وعلى الخصوص فهمه للدين، للإسلام وتجديده لأبعاده وآفاقه ومقولاته كما سنستعلم فيما نستتبع من هذا ليصب هذا المعنى الجوهري في الساحة الوسطية المعتدلة المتنورة ولتؤثر عن ذلك كلمات بليغة له تنم عن نفس عميق وتبصر نادر المثال أصغى له الجميع بإمعان وتلقف المحللون والسياسيون في العالم ما يقوله من أفكار ورؤىً وحسابات فقهٍ بواعثها السياسية والاجتماعية وخبر أسبابها في سبق عبقري ولحظ خاطف قل من ينتبه له، لأن قلب حافظ الأسد وعقله كان مرآة صافية لم تعبرها الحظوظ والأهواء، في زمنٍ يترنح ويطّرب للحظوظ والأهواء فلم ينج منها إلا الأوفياء والشرفاء ولم يعد من بعد حافظ الأسد الإنسان الرئيس القائد بل أصبح حافظ الأسد المعيار التاريخي والمستقبلي والميزان الحضاري والحصن الذي ستر هذه الأمة وحفظها من أن تتكشف أمام براعة التآمر وكثافة جهود الطمع الاستعماري فأضحى بهذا وأصبح السد المنيع والهاجس المخيف للمد الصهيوني والأمريكي الداعم له في جسد هذه الأمة. إنه رجل العقيدة والجهاد وعزة هذه الأمة ورأسها الشامخ المعتز بدينه وعروبته وهو المحيا القادر بفضل الله تعالى على مواجهة الصعاب والتحديات، وهذا وسام حقٌ لمن كرّس حياته ووقته من أجل حرية الوطن والأمة والكرامة وتحريرها من عبودية الأمم وعبودية العولمة من ثم أخطر عبودية في هذا الزمن!..

إن حضور ذكرى وفاة الرئيس حافظ الأسد في نفوسنا ليس إيقاظاً للزمن المأساوي ولا ترسيمًا لمساحته العزائية، ولكن هذا الحضور استنهاض لقوة الدفع في هذا الوطن وتربية على تعليق الأجيال بهمم الرجال، ولكل عصر في الوطن والأمة رجل للمهمات والصعاب وللبناء والتجديد، ثم لتصحيح الانتساب إلى أدلة الإيمان والحق والإصلاح يزوّد به الله عز وجل الناس حتى لا تحتوشهم صوارف الدهر ودواعي الافتتان، فرأينا إذن كيف يتولد من الحزن العميق مسارات نحو التلاحم وتوحيد المشاعر والارتقاء إلى الحالة الأسمى للإنسانية. تذوب القيادة في الشعب ويذوب الشعب في القيادة ثم ليعزم هذا الشعب في إنهاض الفراغ بعد الفقيد الراحل رحمه الله تعالى ليبقى دافئاً وليتجدد هواؤه بانتعاش يستروح أطيب الجنى وأخصب الثمرات في المعاصرة وفي المستقبل... أجل لقد تحول الحادث الجلل إلى مشروع وثائقي لهوية هذا الوطن على مستوى الأمة، ورأى العالم كيف يفيض الحزن الذي غمر النفوس ليلتقي ويتصل بالله تعالى وهو يستمطره الرحمة والرضوان لفقيد باني سورية الحديثة الرئيس الراحل حافظ الأسد، ثم

ذكرى الوفاء.. رحيل وبقاء خير وعطاء

ليؤسس هذا الألم القاسي على الأوفياء أبناء هذا الوطن مشروعًا آخر يلد من المشروع الأول وحّد عقيدة هذا الشعب وتحرّض به من وقود حُزنه ليتقد إلى التآخي بمختلف فئاته وأنواع حياته وإلى المساواة بعد المواساة فأصبح بهذا صوتًا واحدًا وقرارًا واحدًا وورقة واحدة لم تضيعه حيرة الموقف المهيب ولم يضعفه التشكك بل انتقل من الألم إلى الأمل (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) كما جاء في قول الله تعالى: (لا أقسم بهذا البلد وأنت حلٌّ بهذا البلد ووالد وما ولد) سورة البلد الآية (١ - ٣) فولد الرئيس بشار الأسد حفظه الله تعالى بهذا مرتين: مرة من الرئيس المربي الراحل حافظ الأسد، ومرة من قلب هذا الشعب، وتلك معجزة هذا العصر في استثمار العزاء العظيم لينفتح بعفوية صافية يتحول إلى مؤتمر عظيم وإلى مجلس شعب أعضاؤه كل مواطن سوري وكل وفيٍّ صادق...

إن هذه الظاهرة الاستثنائية الاجتماعية الخلقية السياسية التي تفتحت بمنعطف غياب الرئيس حافظ الأسد لتنطق بما أحوى من ثمار بينة للغراس الحضارية في مفهوم العروبة ومقاصد الإسلام وفي العزة والكرامة التي تعلّقت بالصحوة المشرقة لتوطيد دعائم الوطن ولتجريف التخلف والوجاهات المتناقضة المتضاربة، وإنقاذ من هدر الطاقات وتعقل في استثمار القدرات ووقاية لأصالة الوطن واستقلاله من المزالق المشرئبة للمخططات الإسرائيلية والصهيونية والاستكبارية العالمية التي استهدفت بتعمد سورية وأرادت أن تطوق هذه الأمة. فاستطاع الرئيس الراحل أن يهضم هذه السياسة العالمية فكان على مستوى المهيمن عليها في سبيل رعاية مصلحة الأمة وحذرًا من أن تقع في براثن أخطبوط جديد، وأن لا تنتقل من مأساة إلى مأساة أخرى وهو يقرأ تلك الأحداث والمستجدات قراءة دقيقة وعميقة ويتخذ القرار المناسب لحفظ كرامة الأمة واستعادة حقوقها، ويمكن أن نتبين هذه القدرة في تقييد الأمة والوطن بمثال مؤتمر مدريد المعروف الذي تخوف منه كثيرون خشية أن يكون هذا المؤتمر مؤتمر استسلام، وأن تكون هناك مؤامرة تنفذ من خلال هذا المؤتمر، ولكن رأينا كيف أداره الراحل حافظ الأسد ببراعة فائقة وحكمة بالغة وهدوء وتيد ليكون فضحًا لمواقف إسرائيل وتمزيقًا لأقنعة طالما اختفت وراءها إسرائيل، إن هذا المؤتمر هو سيادة لسياسة سورية الأسد التي صنعت منه تكتيكًا سياسيًا لإبراز حقيقة واحدة هي أن إسرائيل موئل الإرهاب تمارس به الإجرام، وأن هذه الأمة العربية والإسلامية هي صاحبة الحق، لقد قرأ الرئيس الراحل حافظ الأسد لأجل القضية المصيرية بين العرب وإسرائيل والحقوق المستلبة الصورة

الشرعية الإسلامية المتوازنة بعمق ونفس طويل واستحضار استراتيجي لتاريخ الأمة الإسلامية، وما لاقته من أحداث ومحن شداد واستطاع أن يجتهد برشد وسداد ليوظف ذلك كله في مواجهة القضية المصيرية الأخطر في حياة العرب والمسلمين اليوم، فكان خير مؤتمن على عزة هذه الأمة وكرامتها ومصالحها لأنه تشبث بذرة تراب أرض الأمة والوطن كما تشبث بالأرض كلها لم يجزئ الحق ولم يؤخذ بالإغراءات والوعود كما فتن بها آخرون، فخسروا وحدهم العزة والكرامة، لقد آمن الرئيس الراحل أن الشريعة الإسلامية تنص على أنه لا يجوز للمسلمين أن يتنازلوا عن شبر من أرض لهم من خلال مفاوضات أو مصالحات أو نحو ذلك، وعلم أيضاً أن مؤتمر مدريد لن يقوى على استعادة كافة حقوق هذه الأمة، ولكن المهمة الآن هي استعادة ما استلب من أرضنا بالبحث عن الأقنية والطرق التي ينبغي أن نسترد حقوقنا عن طريقها، وإن شرع الله عز وجل في ذلك يقول لنا يجب التخطيط لاستعادة هذه الأرض كلها كاملة غير منقوصة، أما التنفيذ فإن الشارع يعطي الحاكم طائفة واسعة من الأحكام تسمى أحكام السياسة الشرعية يملك أن يتحرك تحت مظلتها، فتمكن الرئيس الراحل بحنكة سياسته أن يعطل المخططات الظالمة المعدّة لاغتيال هذه الأمة، وأن يضع أمام شعوبها الرؤية المحكمة لمستقبلها ولمسؤوليتها في مواجهة عدوها وتحمّل قضاياها المصيرية، ولا يستطيع أن يفعل ذلك إلا من كان صادقًا مع ربه عز وجل، صادقًا مع إسلامه العظيم ،وهذا كله إن هو إلا توفيق رباني تعامل معه بصدق إيمانِ الرئيس الراحل حافظ الأسد، وفي خضم تلك الأحداث الجسام لم يكن رحمه الله لينسى تضرعًا خفيًّا بينه وبين الله عز وجل يستمد منه العون والثقة والقوة والتسديد، بل إنه ليطلب من كل الأصفياء الأطهار، من الناس أن لاينسوه من الدعاء كما قال رحمه الله تعالى في مأدبة شهر رمضان لعام ١٩٩١م ملتقيًا بأهل العلم: إنني بأمس الحاجة إلى دعواتكم، وهناك أدعية تصلني وأدعية لا تصلني ولعلي بحاجة إلى الأدعية التي لا تصلني...

إنه كان زعيم أمة وقائد وطن عركته الأيام وصقلته التجارب وقدم لسورية في زحمة أمواج حالكة كانت تعصف بها الاستقرار والأمن والرخاء مما لم يُرق لمن باعوا ضمائرهم وضيعوا كرامتهم، فوظفوا للإخلال بالاستقرار والأمن وللبغي في الأرض ولحرمان الوطن من التمتع برخاءِ صنعه بتوفيق الله تعالى حافظ الأسد ولكن الله عز وجل نصره على من لبسوا مسوح الإسلام ونفخوا في بذور الفتنة والطائفية وتشددوا في معاقد التعصب وخسر هنالك

ذكرى الوفاء.. رحيل وبقاء خير وعطاء

المبطلون، ثم جاء من بعدُ وقتٌ وقد خسروا الرهان يطلبون الإعذار ويعترفون بسوء الرؤية ويتمنون لو أنهم كانوا مسلمين على الحقيقة من غير رعونات ولا نفاق ولا تقنع بوجوه مستعارة...

إن عمرًا في القيادة والسياسة ورئاسةً موفقة لسورية استمرت ثلاثين عامًا فيها ما فيها من شدائد ومتحولات وتحديات وتطورات وتوازنات وأهداف كبرى، إن هذا وحده كاف للدلالة على حصافة الرئيس الراحل وعلى حكمته البالغة ووطنيته المعطاء فضلاً عن الحقائق الشاهدة على إيمانه بالإسلام والتزامه بالقرآن واقتدائه بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام... حقق من خلال ما سلفنا تعايشًا جماهيريًا أخويًا ووحدة وطنية رائعة بين المسلمين والمسيحيين لم ير لها نظير في العالم يجمعهم الوطن على المحبة والتعاون والإخاء، وهذا في الحقيقة إنما يصب في مصلحة قوة الجبهة الداخلية التي أقام عليها إدارة القضايا الخارجية في ظروف الحرب والسلم، ولعمري إنه كان أروع من استطاع أن يقود جبهة السلام الحقيقي وينتصر على المتلاعبين به والمتربصين... لقد عَرف هذا الوطن بحافظ الأسد دينه وإسلامه، عرف عزته وكرامته، عرف وحدته وإخاءه ونهضته وتطوره ،عرف قوته وقوميته وقدرته...

إننا عندما نكرم أنفسنا بهذه الفضائل لنستجمع شيم الوفاء أيضًا ونحن نحيي تأبين الذكرى الثانية لوفاة هذا الزعيم الكبير لأننا جميعًا أبناء خير بررة لهذه الأمة، وإن الأمة العظيمة هي التي تقدر الرجال وتحب الذين خرجوا من صفوفها مجاهدين عاملين لإعلاء شأنها والذود عنها في كل الميادين، والأمة الكريمة تكرم أبناءها البررة الذين كلما ازدادوا عزةً ورفعة ازدادوا لها حبًّا وحنانًا وعطاءً، والوطن الأصيل يعرف من خلال أصالة قائده الذي لا يعرف إلا بصدق الانتماء إلى منهجها وإيمانها وربانيتها... في عصر المتغيرات والتحولات في السياسات والثقافات والقناعات كان الرئيس الراحل يقول للدنيا بأسرها الحق ديننا والحرية في جذورنا والكرامة نحن رعاتها... نحن نحب الناس كل الناس ولكن نرفض الظلم من أي كان، ونحن لسنا دعاة إرهاب ولكننا دعاة حق نطالب به ونقدم لأجله كل غال ورخيص، ونحن نقترب من الآخرين أو نبتعد من خلال قانون الله في الأرض، قال الله تعالى في القرآن العظيم: (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) سورة الحجرات الآية ١٣، لقد قيض الله عز وجل لهذه الأمة الرئيس الراحل حافظ الأسد ليجدد فيها عهد عزتها وكرامتها وليؤسس لها معاقد

قوتها ومناعتها في وجه التحديات الكثيرة التي استهلكت كرامة الأمة وقدراتها في القرن العشرين وعلى الأخص صياغة الصورة الحقيقية للإسلام باعث الحضارات وحامي الحريات ومحيي الكرامة الإنسانية فوق الجاهليات، حيث اطلعنا في سيرة أفعال هذا الرئيس الراحل وفي أقواله إلى مبادرات وآراء وأفكار تصحيحية في الإيمان والإسلام وفي فضائل الأخلاق استطاعت أن تنحي برشدها ذلك الغي الذي ألصق بالإسلام ظلمًا وزورًا. من هذا قوله رحمه الله (إننا نرفض كل تفسير متخلف للإسلام يكشف عن تزمت بغيض وتعصب مقيت فالإسلام هو دين المحبة والتقدم والعدالة الاجتماعية دين المساواة بين الناس جميعًا دين المحافظة على حقوق الصغير والكبير الضعيف والقوي الدين القادر على استيعاب روح العصر ومواكبة التطور والقادر على أن يكون دافعًا إلى التقدم) - دمشق ١٩٨٣/٢/٢٠م من الرسالة التي وجهها إلى مجلس الشعب.

ثم يتعهد رحمه الله تعالى بإعلاء راية هذا الإسلام الحقيقي الذي يؤمن به ويدافع عنه فيقول: (راية الإسلام في بلادنا ستبقى عالية خفاقة لأنها مسألة عقيدة وإيمان لا تخضع لردود الفعل، ولن ينجحوا في محاولاتهم تشويه صورة الإسلام بل ستظل صورته هي الصورة الحقيقية الناصعة) - دمشق ١٩٨٠/٢/١٠م من حديث الرئيس إلى صحيفة الرأي العام الكويتية.

أما المعيار الحقيقي للمؤمن والصورة الثابتة لمن اهتدى ولكل مسلم صحيح فهي التي تنطلق نحو الأسوة الحسنة في الرسول محمد عليه الصلاة والسلام فيقول: (إن القريب من رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القريب بعمله بخلقه بقيمه بجهاده بنضاله، هكذا علّم رسول الله هكذا علم الإسلام الذي جاء به رسول الله) - دمشق ١٩٨١/٣/٢٤م من الكلمة التي ألقاها الرئيس الراحل في الذكرى (٢٥) لتأسيس الاتحاد الدولي للعمال العرب والذكرى (٤٢) لتأسيس التنظيم النقابي في سورية ولكن البعد المهم للفعل الإسلامي إنما يظهر في ثمراته الخلقية العامة وإن الرئيس الراحل إنما جعل من أعمال حركته التصحيحية الرائدة تصحيح المسيرة الإسلامية بعد أن كادت تظلم جنباتها ويعشش عليها التطرف والتلبيس مما ينذر بخطر وبيل على الجميع يصنعه من يريدون أن يحتكروا الإسلام في إملاءاتهم وتصوراتهم ويحرفوا مهمته في نشر الفضيلة والسعادة ،فقال رحمه الله: (علينا أن نعمل من أجل نشر الفضيلة في بلادنا لننتقل بعد ذلك ما نستطيع تحقيقه من سعادة وفضيلة إلى غيرنا من أبناء أمتنا

ذكرى الوفاء.. رحيل وبقاء خير وعطاء

وإذا استطعنا إلى أمم أخرى - ثم قال - راية الإسلام لم ترفع في سورية منذ الاستقلال كما رفعت بعد عام ١٩٧٠م) - دمشق ١٩٨٢/٧/١٨م من الكلمة التي ألقاها الرئيس الراحل لدى اجتماعه بالعلماء والمفتين في مأدبة رمضان ١٤٠٢هـ.

وختام هذه الأقوال العظيمة - وهي كثيرة غير ماذكرت - تأكيد الرئيس الراحل على ما أكد للاستمساك به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في خطاب الوداع لأمته عام حجة الوداع، فأعاد هذا المعنى بقوله: (إن شهر رمضان هو شهر الفضائل والمعجزات وفي مقدمتها معجزة القرآن الكريم كتاب الله العظيم الذي إن تمسكنا به - ويجب أن نتمسّك به - وتمسكنا أيضًا بسنة نبينا فلن نضل الطريق ولن نخطئ الهدف أبدًا) - دمشق ١٩٨٨/٥/١٢م من الكلمة التي ألقاها الرئيس الراحل رحمه الله بمأدبة رمضان لعام ١٤٠٨هـ.

وقد تحقق هذا الاعتزاز الكبير بمعجزة القرآن الكريم عندما تولى الرئيس القائد الراحل بنفسه وضع اللبنة الأولى لافتتاح دور تعليم القرآن التي سميت بمعاهد الأسد لتحفيظ القرآن الكريم ثم انتقلت إلى جميع المحافظات السورية وانتشرت في المساجد وفي غيرها كدور التربية والإصلاح الاجتماعي وفي السجون أيضًا وزاد الاهتمام بطباعة نسخة جديدة أنيقة واضحة للقرآن الكريم بتوجيه من الرئيس الراحل وبإشراف ومتابعة لوزارة الأوقاف في سورية أوائل الثمانينات يسّرت على الناس حسن قراءة القرآن الكريم وسهولة حفظه في نسخ مختلفة الأحجام مشرقة الحروف والصفحات خلاف ما كانت عليه نسخ المصحف المخطوط إبان الدولة العثمانية، ومن ثم انتشرت هذه الطبعة المشرقة الجديدة إلى كافة أرجاء العالم بعد أن نقلت حقوق الطباعة إلى جهات أخرى داخل سورية وخارجها...

أما الجوانب الأخرى لهذا الواقع الإسلامي المنهجي الوسطي الحكيم الذي تبناه الرئيس الراحل وساهم في دعمه ودفعه، فتحدثنا عنه الخطوط البيانية لانتشار المساجد بالآلاف تغطي كل منظور جغرافي وسكاني في سورية ثم العناية بترميم المساجد القديمة والآثار الإسلامية وفي مقدمتها الجامع الأموي الكبير في دمشق ثم من بعد الجامع الأموي في حلب، وكذلك نرى افتتاح المزيد من المعاهد والمدارس والثانويات الشرعية للذكور والإناث في المحافظات السورية وتنظيم الدراسة الأكاديمية الشرعية ثم في استقبال طلبة العلم الشرعي من جميع أنحاء العالم ذكورًا وإناثًا يتلقون العلم الشرعي الإسلامي بتنور ووعي وخلق كريم

ذكرى الوفاء... رحيل وبقاء خير وعطاء

يجتنب كل تشدد وينفي كل تطرف وتزمت ويتصل بحبل الود والخير والعطاء مع جميع الناس شعاره في علمه وتعلمه ودعوته (خير الناس عند الله من كان خيرًا ورحمة لجميع الناس).

وإنه لا يكفي أن نحصي الأعداد ولا أن نكشف الأرقام الكبيرة المبشرة لكل ما أنجز من ذلك في عهد الرئيس الراحل حافظ الأسد من معاهد قرآن وعلم ومساجد وطلبة علم وإعلامٍ إسلامي حكيمٍ ولطيف في سورية ولكن المهم أن يتحرك الرقم وأن نؤكد على فاعليته وإخلاصه وعطائه وتطوره وتنوره. فمن يقرأ الأرقام المشهودة في صعيد ما ذكرت فإنه يلحُ - لضرورة الواقع والتحديات على الاستثمار أمثل لما تأهلت له تلك المواقع والأرقام وذلك لتحقيق حصاد إيماني إسلامي علمي خلقي وسطي يكون قوة لجميع النفوس في المجالات كلها ومقدمة وقاعدة أولوية لصحوة حضارية لها مكانتها ومهابتها وعطاءاتها على الصعيد الإنساني وفي صفحاته المعرفية والخلقية المشرّعة في جميع الاتجاهات العالمية والإعلامية النظيفة حتى نستطيع أن تؤهل القناعات الأخرى للتضافر والتضامن مع الاهتمامات الأساسية والحقوقية المشروعة لهذه الأمة...

وبعد، فإن الله عز وجل قد خلق رجالاً في أمة وخلق أمة في رجل: ولم أر أمثال الرجال تفاوتوا لدى العدّ حتى عد ألف كواحد.

ولقد خلت القيادة السياسية المؤمنة في هذا الزمن من الرجولة الاستثنائية لولا قلة جاؤوا على أطراف عقود قرن العشرين السابق وكان المجلّي منهم الرئيس الراحل حافظ الأسد الذي كان يتواضع أمام هيبته أكبر رؤساء العالم، ولقد كان رحمه الله تعالى مؤسس القيادة السياسية الرشيدة في هذه الأمة ومصحح لمسار التأصيل والبناء والتطوير في هذا الوطن، وجامع شمل أبنائه وموقظ دور المرأة الحيوي الرائد فيه على منهجية التكامل والتكريم ورعاية حقوقها وتذكيرها بتوثيق هذا الدور الفاعل الحيوي مع أختها المرأة العظيمة في صدر الحضارة الإسلامية العظيمة...

وستنمو وتربو في المستقبل ثمرات يانعات لهذا التصحيح وسيكتب التاريخ كيف يعظُم الرجال وكيف يبني القادة الشرفاء العظماء وأولئك الذين إن لم يكتسبوا لأمتهم انتصارًا، فهم لم يورثوها هزيمة وهذا أيضًا انتصارٌ عظيم من نوع آخر وعلى الأخص ونحن في زمن الانهيارات وانحراف البصائر وتبعية الضمائر...

ولكن سورية بما كانت عليه عهد الرئيس الراحل وبما هي عليه عهدًا ميمونًا

ذكرى الوفاء... رحيل وبقاء خير وعطاء

بالرئيس القائد بشار الأسد لا تزكي نفسها، بل تكفي شهادة الشعوب الحرة بمواقفها العزيزة المشرفة وبثوابتها الراسخة التي لم تهتز بالرغم من تناوب الضغوط حولها وقد اهتزت مواقف وثوابت أخرى بها، لأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، ولأن الصدق يهدي إلى الطمأنينة ويعزز الثقة ويولد الانتصار ويتربى في محيطه العظماء الناصحون المخلصون، فاهتدى الوطن واهتدت سورية الحديثة بصدق الرئيس الراحل حافظ الأسد وبقوته وحكمته إلى الرئيس الذي أجمعت بعزم وثقة على محبته وقيادته وفاءً للراحل رحمه الله تعالى وولاءً حرّاً متعقلاً في حبٍّ وقناعة لصاحب القيادة الموفقة الطيبة الرشيدة سيادة الرئيس بشار الأسد حفظه الله تعالى.

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدا) صدق الله العظيم سورة مريم الآية ٩٦.

الوداع والبيعة

عبد الحليم محمود بيريني (*)

١- النفسُ قد صُدعتْ إذْ جاءها الخبرُ ... ترجَّلَ الفارسُ المغوارُ يا بشرُ
٢- اليومَ يُنعى إلى الآفاقِ قائدُنَا ... بكى المذيعُ وناحَ الطيرُ والحجرُ
٣- إنّي شُدهتُ وكلُّ الناسِ قد حزنتْ ... لحافظِ المجدِ لمّا اختاره القدرُ
٤- وأخرسَ الحزنُ قلبي قبلَ قافيتي ... تدحرجَ الدمعُ فوقَ الخدِّ ينهمرُ
٥- الشامُ مظلمةٌ، بيروتُ واجمةٌ ... والحربُ قاطبةً قدْ هزّها الخبرُ
٦- يا جلّقَ المجدِ أنتِ اليومَ ثاكلةٌ ... من شدّةِ الخطبِ لا شمسٌ ولا قمرُ

(*) عبد الحليم محمود بيريني: شاعر من سورية، ينشر في الدوريات المحلية والعربية.

الوداع والبيعة

٧- فقدتِ أعظمَ منْ ضجَّ الفضاءُ بهِ   فالأرضُ تبكي ويبكي النبتُ والزَّهَرُ
٨- مهما تطاولَ نحوَ الشمسِ منْ علَمٍ   كُلُّ الكواكبِ عندَ الشمسِ تنحسرُ
٩- تقرَّحَ الجفنُ يومَ السبتِ منْ حَزَنٍ   وفي الثلاثاءِ راحَ القلبُ ينفطرُ
١٠- يا موتُ كأسكَ مُرٌّ في تجرُّعهِ   لفقدِ حافظَ ماتَ السمعُ والبصرُ
١١- فجنَّةُ الخلدِ عندَ اللهِ قد فَتَحَتْ   أبوابها البيضَ للأبرارِ تنتظرُ
١٢- يا حافظَ العربِ قدْ عَجِلَتْ محنتنا   حزني لفقدكَ ضمنَ القلبِ يستعرُ
١٣- لما قضى الباسلُ المقدامُ ما وَهِنَتْ   منكَ العزيمةُ بلْ زادتْ بكَ العبرُ
١٤- علَّمتنا الصبرَ والإيمانَ محتسبًا   فكنتَ قدوتَنا يا خيرَ منْ صبروا
١٥- سيفُ البطولةِ في تشرينَ مفخرةٌ   إنْ يفخرِ القومُ في ماضيكَ يفتخروا
١٦- عزاؤُنا فيكَ يا بشارُ يا أملاً   نَصْبو إليهِ فأنت الغيثُ والمطرُ
١٧- يا شبلَ حافظَ أنتَ اليومَ قائدُنا   إنَّا بأمركَ عبرَ الدَّهرِ نأتمرُ
١٨- الشعبُ بايعَ سيفَ المجدِ في ثقةٍ   والشعبُ يعرفُ من تسمو به البشرُ
١٩- في معهدِ البعثِ قد ربيتَ من صِغرٍ   نِعمَ العرينُ ونِعمَ الفكرُ والفِكَرُ
٢٠- وللفسادِ شهرتَ السيفَ تطردهُ   يا نجلَ حافظَ إنَّ الشعبَ ينتظرُ
٢١- فاجهرْ بصوتكَ صوتِ الحقِّ يطربنا   بشارُ يا أسداً يا خيرَ من جهروا

❖ ❖ ❖

حافظ الأسد والعمل السياسي
منطلقات التوحد ومعايير المشروعية والتأثير

أحمد الحاج علي (*)

إن منهجية البحث في الأصول والتطبيقات السياسية تلح باستمرار على توفر أنساق أربعة هي بالتكامل والتفاعل تقوم العمل السياسي بحقائقه من جهة من حيث هو مواقف ومسلكيات وأنشطة وقرارات، وتنجز مشروع التقويم للعمل السياسي من حيث هو حالة حيوية وديناميكية وشاملة، والنسق الأول يتمثل في وضوح الأصول والمنابع وفيه تتحقق مشروعية السياسة وهويتها فلا تكون احتمالاً أو وجهة نظر أو تعبيرًا عن مصلحة عابرة وفي النسق الثاني تتوطد علاقة الوعي بالعمل السياسي سواء أكان هذا الوعي قيمة من قيم القيادة أو قناعة اجتماعية سائدة، وأما النسق الثالث فتحتضنه مسألة النزعة الواقعية والفاعلة للسياسة بمعنى أن تقوم السياسة ذاتها في تضاريس

(*) أحمد الحاج علي: كاتب وصحفي سوري، باحث في مكتب الدراسات في القيادة القطرية للحزب.

الواقع الصعبة وأن تنجز غاياتها في ذات هذه التضاريس المتنوعة والمختلفة إلى حد كبير، والنسق الرابع تشير إليه مستويات العلاقة العضوية ما بين القائد والعمل السياسي وفي مثل نموذج دراستنا هذه يتفوق هذا النسق ليكون في المقدمة ذلك أن الحديث عن القائد حافظ الأسد بالمنحى السياسي هو حديث موحد لا فواصل فيه ولا تأرجح بمكوناته، فالقائد ذاته هنا هو المصدر الذي اجتمعت إليه أنساق العمل السياسي الكبرى متمثلة بقضايا الأمة ووعي الظرف وواقعية التعامل، وليس من الممكن في هذا السياق أن نتحدث عن سياسة مارسها الرئيس حافظ الأسد إذ لا بد من الحديث عن منهج سياسي أولاً ووقائع سياسية ثانياً صنعها القائد الراحل ونظم أبوابها وفصولها وأحاطها بقواعد الثبات وحيوية الاستجابات ومقومات الفعل والتفاعل بعيداً عن التحريف والجمود والمرحلية الزائفة، إننا بهذا الصدد نستطيع أن ندخل في عمق السياسية من ذات البوابة التي ندخل فيها إلى عمق القائد حافظ الأسد، ولعل أنصع المقدمات التي تطالعنا هنا تتمثل بالثلاثية التالية:

١ - إن الفهم العام للعمل السياسي كما قاده وبناه الرئيس حافظ الأسد لا بد أن يتماهى تماماً مع شمولية الموقف وعدالة القضايا القومية، بحيث تكون التجزئة المرفوضة بالمعنى القومي هي ذاتها التجزئة المرفوضة بالمعنى السياسي النظري والتطبيقي، وفي هذا السياق يطالعنا النص التالي للرئيس حافظ الأسد «يبدو أن هناك في هذا الوطن العربي من فهم العمل السياسي على أنه يعني أن نرمي كل أسلحتنا الأخرى، على أنه بالضرورة أن نصل إلى حل أي حل، إن العمل السياسي ضرورة لا بد منها وسلاح هام ويجب أن يهدف إلى تحقيق حل لكن ليس أي حل إنه الحل الذي يضع الأمور في نصابها الحل الذي يحقق العدل ولا شيء غير العدل»، ومن الواضح هنا أن الشمولية اقتضت وحدة المفهوم والتطبيق ووحدة القرار ومشروعية المطلب ووحدة الفاعلية السياسية لاتنفصل عن الإنسان ولا تنفصل عن الوسائل الأخرى العسكرية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، ومن هذا المنطق يستطرد الرئيس الأسد قائلاً:

«سنستمر في ممارسة العمل السياسي، ومن أجل هذا الهدف أيضاً سنستمر في ممارسة العمل العسكري وكم أتمنى أن نكون جميعاً في وطننا العربي يقظين كل اليقظة لكي نمارس العمل المناسب في الوقت المناسب فلا تضيع الفرص المناسبة».

٢ - والمقدمة الثانية تنطلق من الفهم المتعمق الذي لا بد أن تتجذر فيه أنماط

السلوك السياسي بحيث يتطابق العمل السياسي مع المدى القومي ومتطلبات المصالح العربية العليا، وهذا يعني أن السياسة هنا قومية الهوية والانتماء من جهة وقومية الفعل والفاعلية من جهة أخرى وقومية المحصلات بالأثر والتأثير من جهة ثالثة، يقول الرئيس حافظ الأسد «إن تحقيق التوازن الاستراتيجي مع العدو الصهيوني واجب قومي كنا نطمح إلى أن يكون النهوض به عملاً قوميًا مشتركًا، ولكننا إذ ووجهنا بالتردد والتخاذل والخروج على الخط القومي من بعض الأشقاء آلينا على أنفسنا أن نؤدي هذا الواجب مهما كانت التضحيات»، وبرغم أن خط التطابق بين المسؤولية القومية ومهام سوريا في هذا المجال كان يشكل مفصلاً يستثمر للتعبئة مرة ولتحديد المسؤوليات مرة أخرى وللالتزام الذاتي أحلك الظروف، إذًا ذلك كله لا يعني في الأصول والمنابع سوى أنه نزعة للإبقاء على العمل السياسي في حالته الحيوية بعيدًا عن التشنج أو الارتداد أو الانكفاء على الذات والأصل كما يرسخه الرئيس حافظ الأسد (هو أن الصراع مع العدو الصهيوني وكل ما يتفرع عن هذا الصراع هو قومي عربي لا سوري ولا مصري ولا أردني ولا فلسطيني ولا أي شيء آخر.. هو عربي).

٣ – وفي المقدمة الثالثة تتوزع فقرات المسؤولية ومفرداتها بصورة عملية في كل تفاصيل العمل السياسي، وبدءًا من الحالة النظرية إلى عوامل تكوين الموقف السياسي في وقت واحد، هنا يطالعنا هذا النص المبسط للرئيس حافظ الأسد حيث يقول: (إن كل الزعامات التي تعارض مقاومة الاحتلال تاريخيًا تتهم بالخيانة، وغالبًا ما تنتقم منها الشعوب) وفي موقع آخر تصبح المسألة السياسية ذات طبيعة أخلاقية حيث يقول الرئيس حافظ الأسد (القائد الفرد ليس في تاريخه أروع من أن يقف مناضلاً ضد المستعمر الذي يحتل بلده) وحتى لا تنحصر أخلاقية هذا التوجه في ضبط السلوك الرسمي عن السياسي يفتح الرئيس حافظ الأسد الأفق على مداه فيقول (لم تقدم الحياة مثالاً يشير إلى أن الهزيمة حالفت شعبًا كافح من أجل حقه وصمم على تحقيق النصر في نضاله من أجل هذا الحق) وبنقلة متسقة مجزية ينقل الرئيس القائد روح الموقف السياسي إلى البنية الاجتماعية الفردية والجمعية حيث يقول (الواجب يقع عليكم جميعًا في البيت والمسجد والمدرسة، يقع على الضابط في وحدته وعلى المعلم في مدرسته وعلى كل رب بيت في بيته كي تنشئ جميعًا جيلاً لا يساوم على قيمه ولايساوم على وطنه ولا يساوم على دينه جيلاً لا يعرف التردد ولا التخاذل ولا الخوف ولا يعرف شيء آخر غير النصر).

ولعله من المنطقي ونحن نبني مقدمات البحث السياسي أن نحيط الفكرة بالمعايير التطبيقية التي على أساسها يتجاوز العمل السياسي مطب الادعاء النظري وهلامية الأماني والأحلام إلى حالة تتشكل فيها معايير للحكم على العمل السياسي من حيث وجوده أو عدم وجوده ومن حيث جدواه وصدقيته ثانيًا وما يعطي لهذه الفكرة ألقها وضرورتها هو الربط الثلاثي بين الحق والحياة والإنسان حيث يقول الرئيس حافظ الأسد (إن الحياة ليست إلا نضالاً مستمرًا من أجل قضايا الحياة الإنسانية وقضايا الحياة الانسانية ليست إلا قضايا الشعوب... ومتى وقف النضال وقفت الحياة وكان الموت.. وإذا كانت العملية النضالية من طبيعة الحياة فإنها تبدو أكثر وضوحًا وإلحاحًا عندما تتعرض الشعوب للخطر) ومن هنا نكتشف أن جدلية الفعل السياسي إنما تنصرف في حالة البناء تمامًا كانصرافها في حالة الردع من خلال التأثير على مواقع الخلل وفضح مناطق التزييف والانهيار، والقائد الأسد يقول بهذا الصدد (على هذا فنحن لا نأبه بمظاهر الانهيار التي برزت وتبرز في عدد من أجزاء الساحة العربية لأنها ليست نتاجًا لنضالات الجماهير وتفاعلات أمانيها، وإنما هي اهتراء غير مستبعد على جانب الصراع الكبير بين الأمة وأعدائها، وإذا كان هذا الاهتراء يبدو كبيرًا فبسبب التناقض الواسع القائم بين أماني الحكام وأماني الشعوب)، وتتدافع في هذا السياق المعايير الأكثر ضغطًا وتأثيرًا بحيث لا ينفي النموذج الساكن في قمة الحكم فاعلية وخصوبة العمل السياسي في الحياة الاجتماعية، فالسياسة في وعي الرئيس الخالد الأسد ليست فن ما هو كائن وإنما فن ما يجب أن يكون، والسياسة ليست عهدة محصورة ومحاصرة في النظام السياسي بل هي حالة منتشرة محكومة بعوامل الانتماء وضرورات الدفاع عن المصير ومقومات بناء الموقف السياسي المعاصر، من هنا يطلق الرئيس الأسد الصيحة القائلة (إن الأمة العربية لن تستسلم) وحتى لا تبقى المسألة في نطاق الشعار العاطفي يجنح الرئيس القائد حافظ الأسد للاستشهاد بالمقاومة الوطنية وبالتضحيات الجماهيرية ردًا على صيغ السقوط والانحدار فيقول: (أيها المقاومون لقد علمتموهم أن السياسيين العرب المتخاذلين المهزومين من داخل أنفسهم لا يمثلون الجماهير العربية.. إنما يفعلون ذلك خوفًا على مناصبهم وامتيازاتهم وأموالهم التي سرقوها من عرق الشعوب ودماء الشعوب)، على أن مفاتيح القيم السياسية كما بناها الرئيس الخالد حافظ الأسد إنما تستمد مشروعيتها من خلال توجهين متلازمين كقاعدة عامة وأكثر وضوحًا في العمل السياسي حيث يلح التوجه الأول كما

يقول الرئيس الأسد على (أن التاريخ لا يتحرك من تلقاء ذاته وإنما يحتاج إلى بشر يحركونه ويدفعونه إلى الأمام)، ويحاول التوجه الثاني أن يرصد مستوى العلاقة بين الظاهر والحقيقي في الواقع بحيث لا بد من لحظة الإقرار بنقاط الضعف الواقع ولحظة الإبحار الإيجابي إلى عالم الحقيقة القومية من الداخل وهنا يورد الرئيس حافظ الأسد القول التالي (السماء العربية حالكة ولكنها في العمق ليست كذلك، إنها فترة المخاض وغداً سيولد الفجر العربي الجديد الذي لا بد أن تطلع علينا تباشيره). وإذا ما تبدى لنا أن قولاً كهذا يشتمل على ملامح معنوية وعاطفية غزيرة فإن الأمر برمته ينتمي إلى قاعدة الفعل ورد الفعل بحيث تستنفر الأمة بقواها ومصادر وعيها في اللحظة الصعبة وهنا لا يكون العمل السياسي إنجازاً تطبيقياً لما هو سائد ودارج في الواقع بل هو على الغالب رد على هذا الواقع وأكثر من ذلك هو حالة تحد للواقع وإذا ما كانت التطبيقات السياسية تقدم لنا نماذج من الفصل بين الحاكم والظرف الصعب، فإن القاعدة التاريخية المستقرة تقدم لنا الخلاصة التاريخية الخالدة والتي تؤكد على وحدة الشعب مع الظرف الصعب وهنا يشير القائد حافظ الأسد إلى ذلك بقوله (إنه بقدر ما تدلهم الخطوب وتسود الطرق وتتعثر أمامنا المسيرة، وبقدر ما نُحاصر في بلادنا، وبقدر ما نقترب من لحظات الخطر يجب أن نرفع رؤوسنا وأن نكون أكثر عناداً في مواجهة التحدي وفي مواجهة كل ما يريد الإذلال والإهانة لطموحاتنا وجماهيرنا)، وفي هذا السياق تبقى مسألة حيوية يعتمدها الرئيس حافظ الأسد في العمل السياسي مبنى ومعنى تتمثل في وحدة الهدف والأسلوب من خلال العمل السياسي حيث يقول (إن المهم ليس إعادة قطعة من الأرض بل الأهم هو الطريقة التي تعاد بها الأرض، من الأفضل أن تبقى أرضنا محتلة من أن نستعيدها على حساب كرامتنا الوطنية، الموضوع ليس موضوع أرض بل القضية التي ترمز إليها هذه الأرض).

إن النهج البنائي والتطبيقي في العمل السياسي يحتفظ بقيمه ومشروعيته من خلال عضوية الوحدة ما بين حافظ الأسد والحالة السياسية وهذا بالتحديد ما يجعل الدراسة الموضوعية والنقدية تنصب على العمل السياسي في سورية العربية على أنه هوية الوطن ووعي القائد في وقت واحد ولعله في حيثيات هذه الوحدة ما بين الوطن وقائده توطدت أغلى الدروس السياسية وأغناها فكراً وممارسة لذا يتعين علينا أن نستهدي بمقاطع متأصلة هي التي تشكل قاعدة الانطلاق في العمل السياسي العربي، وهي التي تتيح الفرصة لبناء موقف سياسي يمتلك مقومات الهوية

وقابليات التفاعل مع الحقائق الموضوعية القائمة في تراكيب الوضع السياسي العام للوطن العربي وعلى مستوى العالم، ويكون من الطبيعي بعد ذلك أن تتوطد الحالة المنتجة للعمل السياسي والقادرة على تَمثُّل ما هو متاح وكائن وصولاً بالفعل والتفاعل إلى ما يتصل بالهدف الاستراتيجي الشامل وإلى ما يجب أن يكون، وسلفًا يجب أن تجري عملية تكثيف وبلورة في أصل حقائق العمل السياسي منطقًا كان أم تأسيسًا أم قرارًا سياسيًا ذلك أنه من طبيعة الحدث السياسي الراهن ومن طبيعة الواقع العالمي أنهما معًا يقعان تحت مظلة التعقيد والتركيب ويخضعان لسطوة قانون القوة وللنهم المتزايد لتقديرات المصالح المادية والآنية، ومن هنا فإن ثمة حالتين يتوجب علينا إخراجهما من دوائر المعادلة الصعبة، أما الأولى، فإنما تتمثل في نزعة الشعارات المعممة واللافتات اللاهبة تلك التي تؤجج الجموع حول الحقائق والموضوعات دون أن تمد هذه الحقائق والموضوعات بما يلزم من مقومات القوة وخصائص التعامل الناجح وميزات التعاطي مع الأطراف جميعها بما تشتمل عليه هذه الأطراف من مزايا وتكوينات وبرامج ومخططات، وأما الحالة الثانية فإنما تجسدها وضعية الضعف والاسترخاء والتهاوي أمام سد القوة الذي يشكل الطرف الآخر في مواجهة منطق العدل والحق المشروع، الذي يشكل الطرف الآخر في مواجهة منطق العدل والحق المشروع، حيث يحاول البعض تحت وطأة الانهيار وتحت مظلة الواقعية أن يطرح الأمر على أنه ينحصر في نطاق الممكن من التحصيل وليس المطلوب في التحصيل، وهكذا وباجتماع الحالتين نرى أن المزاودة والتفريط كليهما ينتميان إلى المصدر ذاته برغم تعاكس خط سيرهما لأن الناتج في الحالين معًا سيكون على حساب القضية وليس لحسابها، إن شكلانية الطرح في القاعدة القائلة (كل شيء أو لا شيء) تتسبب بالجوار وبالمبنى والمعنى إلى حيثيات القاعدة القائلة (أي شيء أفضل من لا شيء)، والأمر في الصيغتين لا يعدو كونه انفعالاً إيجابيًا مفرغًا أو سلبيًا محبطًا كثيرًا ما عانت الأمم المعاصرة والسابقة من تأثيراتهما الخطرة والتي تعني في المقام الأول فصل قواعد الحق المشروع عن مقومات الموقف المطلوب، ونفي الإرادة المصممة والواعية والمتطورة عن مفاصل المخارج والحلول المكافئة لمنطق العدل والمجزية لمتطلبات الشعوب العادلة.

إن الموقف السياسي لسورية العربية بالتأكيد قد تبلور في عمق الحقيقة القومية وفي مسارات تأصيلها ومعاناتها معًا وكان من الطبيعي أن يلبي هذا الموقف كل التوجهات والاحتياجات المشروعة لمفردات متأصلة أصيلة كالحق وعدالة المطلب

والمصلحة القومية العليا والتمسك بالرسالة الإنسانية الحضارية وتبنى السلام العادل والأخذ بعين الاهتمام مصالح الشعوب وحضارة العالم ومصير الإنسانية الذي لابد أن يبقى باستمرار قاعدة الانطلاق ومقياس الحق والحقيقة وغاية كل نشاط أو قرار سياسي، ومن هنا فإن الموقف السياسي يبقى محكومًا بمشروعية المنطلقات وبضرورات الحق والعدل وبعوامل الاستجابة المعاصرة المتفتحة في كل موقف، وفي الأحوال كلها فإن المسافة ما بين ثبات المنطق والمنطق وحيوية التعامل والتفاعل في العمل السياسي هي التي تشكل القاعدة الأكثر متانة وصفاءً والأقدر على استجدات كل ما من شأنه أن يوصل قضايانا القومية إلى غاياتها ومقاصدها بقوة وأمن وسلام، وهاهنا تبرز أهمية ما تستند إليه وقائع العمل السياسي في سورية العربية من حيث الانتماء للحقيقة القومية والبحث الدائم والدائب عن كل ما يرسخ أو يبلور هذه الحقيقة في عصر يراد فيه للكيانات الحضارية وللأهداف المشروعة أن تتجزأ وتتلاشى أو أن يفتت بعضها بعضًا، ومن حيث بناء القواعد الاستراتيجية وجملة المناهج والبرامج المتصلة بأساسيات الحياة القومية للعرب، وما من شك في أن بواعث الهوية القومية وخطوط البناء الاستراتيجي العربي إنما يمثلان معًا تأكيدًا على حضور الذات أمام الذات نفسها وتوطيدًا لانتماء حضاري إنساني يعطي ولا يسلب يضيف، ولا ينهب الأمر الذي تصبح المحصلة من خلاله قائمة في أن الموقف القومي ليس أكثر من حالة واسعة الآفاق عميقة الأبعاد في وضع وسياق طبيعي تاريخي تحدوه عوامل الدفاع عن النفس ومقادير استعادة الحق والأرض ومعايير الانتماء القيمي والأخلاقي والتطبيقي للحضارة الإنسانية بكل ما يجب أن تكون عليه من تطور وتقدم وتكامل وانسجام وهذا ما يجعلنا نستنتج مباشرة أن التراجع أمام عوامل القهر وتبني حالة ضعف الذات إنما تشكل خرقًا فظًا لمنطلق الحضارة الإنسانية كلها قبل أن تكون عامل انهيار وانهزام ضمن الكيان القومي نفسه، ومن المفيد هنا أن نستذكر القاعدة الفقهية الأصلية التي ننطلق منها في سورية والقائلة بأن (فاقد الشيء لا يعطيه) وهذا يعني بالضرورة أن الموقف السياسي بأصوله وصيغه القومية هو المؤهل للاندراج على ساحة العصر والتوغل بحكمة وثبات في حقائق هذه الساحة من جهة، وهو المؤهل لاستقطاب مكامن القوة ومصادر التأثير من بقاع العالم المختلفة وقواه المتناقضة للوقوف إلى جانب المنطق والحق والعدل ولاختيار قوة السلام بديلاً عن أوهام سلام القوة، ويبدو من الضروري هنا أن نشير إلى أن الموقف السياسي القومي لسورية إنما يتمثل بكونه حالة شمولية في الأفق كما في العمق فهو قيم

ومبادئ، ومنطلقات وثوابت وتربية وسلوك سياسي وفي المحصلة قرارات ووقائع ومواقف سياسية تنتمي إلى مفاصل هوية واضحة وتأتي على شكل دلائل مفعمة بالوضوح وموضوعية الطرح وقوة التبني، وكما هو الموقف كذلك فهو يتأسس ويتحدد عبر مساحات الوجود القومي وبما يتجاوب مع ضرورات المصير العربي ومقومات المصلحة العربية العليا، وإذا ما كان من بعد يتصل بالنظام السياسي في سورية العربية فإن هذا يضيف تأكيداً جديداً هو الذي يؤكد قومية النظام السياسي بمقدار قومية القرار السياسي، ولعل الأصول والفروع في الموقف السياسي هنا تنتمي إلى ثلاث مجموعات من العوامل تتوزع منهجياً كما يلي:

١ - مجموعة العوامل الموضوعية والحيوية وهي تختصر في أبعادها الضرورات التي تشكل الحد الأدنى حيث لا تنازل ولا مساومة ولا تفريط، ذلك أن العوامل هذه إنما تعني حقيقة الوجود والمصير وتنطلق من الحق التاريخي ومن تقديرات بناء الذات العربية، وهي ما يمكن أن نشير إليها بالثوابت التي تشكل الحد الفاصل بين الوجود العربي وانتمائه وبين مقومات الحضارة واختفائها، إننا في نسق العوامل هذه ندفع عن أنفسنا الخطر ونحاول استرداد ما هو لنا وننطلق من حق ساطع وظلم واقع، وبالمحصلة فالعامل الموضوعي الحيوي هو متأصل وممتد في عمق وأبعاد الكيان القومي، فنحن لا نطلب من الآخرين أن يقدموا لنا من ممتلكاتهم أو مصالحهم ولا نمتد للاعتداء على أحد أو لاستعمار قطعة أرض في أية جزيرة نائية إن المسألة هنا بتكثيف واختصار متجسدة في وجود الذات القومية أو انكفاء وانتقاص هذا الوجود.

٢ - مجموعة العوامل البنيوية والتفاعلية وهي التي تؤطر لتحديد القضايا وتحليلها ولتوضيح المعالم التاريخية والسياسية والعملية لمجمل التحولات السلبية المعادية التي صدرت إلى ووطننا العربي واستحدثت لها الآخرين أسيجة مصنعة من مواد الأمر الواقع وتحكيم مقاييس القوة والغطرسة واستثمار حالة المرض العربي وزرع الوقائع المريرة فيه من قبل القوة الشريرة توخياً لتغييب الجسد الحضاري العربي وطمس معالم الحق العربي ووصولاً إلى حالة سهلة مستدامة تؤمن للآخرين استنزاف ثرواتنا القومية وتآكل مطالبنا المشروعة وإزاحة تقديرات الحق والعدل عن كل القضايا العربية وزجها قسراً في تطبيقات مجزوءة محمومة تقلب الحقائق وتبعث التناقض وتحيل الحق إلى باطل وتحكم إلى مفردات لا جذر لها ولا امتداد بحيث يبتلع الخاص العام

ويسيطر الشاذ على السوي ويتقدم الطارئ على الأصيل، إن مجموعة العوامل البنيوية التفاعلية تقتضي بالضرورة أن يكون الوعي هو المادة الأساس والفعل المؤثر المبرمج هو أداة وقناة هذا الوعي بحيث تتوضح الحقائق في الداخل القومي وتنتفي حالة الاختلاطات وبحيث تتوهج المشروعات والمطالب العربية وتتبلور بصورة كاملة ومقنعة وضاغطة وبحيث تتشكل في المآل قوة بناء سياسي للذات القومية في داخل هذه الذات وفي مجمل اتجاهات ومستويات هذه الذات، إن ذلك هو المقدمة الأولى والشمولية لاعتناق موقف قومي بتشكيل الاقتناع بحدود ومفاصل هذا الموقف وعندها فقط سوف يشعر العرب بخطورة ما يجري لهم وعليهم وبمعدلات أوضح سوف يتبنون كل تلك الآفاق اللازمة للتعامل مع العالم بأسره عدوه وصديقه بمعايير تمثل وحدة الحق والقوة وبمنطق يستجمع في ثناياه ضرورات المصير وقواعد الفعل الناجح بالمعنى السياسي مع أطراف العالم كلها.

٢ - مجموعة عوامل التأسيس والبناء والتي تضطلع بمهمتين متكاملتين في سياق الإحاطة بالموقف السياسي، التأطير الكلي والمنهجي والتراتبي الذي يرسم بصورة عامة أبعاد الحالة القائمة بالمعنى السياسي ويثبت الحدود العامة للموقف التعاملي مع الحالة الحديثة القائمة، وتلك هي المهمة الأولى وأما الثانية، فإنما تستوعبها قنوات نقل الموقف السياسي من حيث المشروعية والأبعاد والأولويات إلى مجالات التطبيق وتوجهات الفعل ورد الفعل في المواقع السياسية والأطراف المعنية بالحدث السياسي نفسه، وعلى جسر تكامل المهمتين تتوطد المحصلة المقصودة للموقف السياسي المطلوب، وها هنا وفي هذا السياق تتدخل عوامل كثيرة وتقديرات أكثر تشكل على الغالب منطلقات بناء الفعل السياسي ومعايير تكوين الموقف في هذه القضية أو تلك وبالتأكيد فهي متنوعة إلى حد بعيد ومتعددة إلى حد بعيد لكنها في المحصلة تنتمي إلى نسق تحديد معالم الموقف ومواصفات الفاعليات المطلوبة كلاً أو جزئيًا في معالجة الحالة السياسية المطروحة، وعلينا هنا بالتأكيد أن نشير إلى الأهم والأعم في قواعد ومنطلقات تكوين الموقف السياسي في سوريا:

آ - الإحاطة بشروط وظروف الحالة السياسية واكتشاف ترتيب الأولويات ومقاييس المشروعية فيها وبصورة عامة فإن السلوك السياسي السوري يميز بين ما هو مصيري وعارض وبين ما هو ثابت ومتحول وبين ما هو استراتيجي ومرحلي الأمر الذي يعني الابتعاد عن الحالة

الانفعالية أو عن عمومية التبني والطرح السياسي والإبقاء على الشقل النوعي للتعامل منسجمًا تمامًا مع طبيعة الحدث وموقع انتمائه من المصير القومي ومقدار امتلاكه للمشروعية المعاصرة ونسبة التأثير والضغط المباشر فيه على الواقع العربي، إن أفق النظرة هنا يبدو منهجيًا للغاية يحاول وضع فقرات الموقف السياسي ومقاطعه في الوظيفة الاستثمارية المجدية بعيدًا عن التفكير بمجرد طرح الشعارات وإلقاء التعابير السياسية المتخمة بالانفعال والترف والإيقاع المجاني وهكذا تنشأ للسلوك السياسي في سوريا مقومات أخلاقية تدخل في تكوين الهوية وتتداخل معها، منها:

- الشعور العام بأن الموقف السياسي السوري يملك ميزة الثبات ومزية الانتساب للمشكلات المطروحة دون أن ينجرف إلى عوامل الإغراء أو التجديف في الحالة النظرية السياسية إن السلوك السياسي في سوريا يتميز في كونه المعادل الموضوعي والعملي لحقائق قائمة في أرض الواقع ولمعادلات قائمة في أرض الواقع.

- حالة الثبات في تحليل مواد الموقف السياسي وظروفه كطريق لحالة الثبات في تبني الموقف السياسي واتخاذ القرار المناسب للتعامل معه، وهكذا فإن القرار السياسي في سوريا هو تجسيد لموقف وتعبير عن منطق وثبات في التبني وفي تحمل المسؤوليات والتبعات المنوطة بالقرار السياسي، ومعروف عن سوريا بأن قرارها لا يصدر من فراغ ولايؤول إلى المجهول وهو مقنن تمامًا في انتسابه للحقيقة الموضوعية ويمتلك ميزة الاستقرار والثبات في التعامل مع الأطراف جميعها حيث لا تبديل ولا تراجع الأمر الذي يؤدي إلى سلامة الموقف السياسي كفاعلية متممة لسلامة التحليل السياسي ولعلنا هنا نستذكر بأن الموقف السياسي في سوريا يعرف بأنه حالة قومية على المستوى العربي وحالة منهجية واضحة ومتكاملة على المستوى العالمي.

وفي المنحى التطبيقي تطالعنا باستمرار في الموقف السياسي السوري قوة الاستمرار المبنية على قواعد الاستقرار حيث تنتفي هنا ذرائع التحولات المفاجئة ويتراجع منطق المقايضة أو الاستجابة للظروف الضاغطة، بل إن معادلة ذات قيمة تطرح نفسها هنا تؤكد أن صعوبة الظرف وخطورة المرحلة واختلاط المواقف وقوة الضغط الخارجي إنما تشكل عوامل مهمة للتمسك أكثر بطرح الحقيقة القومية وطرح اشتراطاتها في العمل السياسي، وهذا يعني بصورة مباشرة سحب تلك الورقة القاتلة: القائلة بأن الدول تحصل على المكاسب والامتيازات بمقدار ضعف الآخرين وتتأثر

موقفهم وضبابية سلوكهم المباشر وغير المباشر بالمعنى السياسي، إن الموقف النموذجي السياسي لسوريا يعيد بهذا المعنى إنتاج المشروعية الأخلاقية والقيمية لأوجه النشاط السياسي ويسهم بصورة مباشرة في الإبقاء على وضوح أطراف المعادلة في الواقع السياسي بحيث يبقى الحق في نصابه والباطل في مساراته وإمكانيات الفعل والتفاعل محكومة بعوامل الضبط والربط بعيدًا عن الانفلاش أو التفريط أو التشنج والتزمت.

ب - تفرض المسألة القومية حضورها ومفرداتها وتشكلاتها في الموقف السياسي لسورية العربية بالمعنى العملي والتطبيقي، وفي الأصل تنتمي هذه الظاهرة إلى حالة التكوين التي تحكم الحياة السياسية والاجتماعية في سورية من حيث تكثيف مجمل الهموم القومية في الساحة السورية ومن حيث امتدادات وتأثيرات الموقف السوري في مفاصل ومقاطع الحياة السياسية العربية إن المنهج السوري بهذا المعنى يرفع درجة التعامل مع القضايا القومية إلى مستوى الحقائق والضرورات، الأمر الذي يؤهل السلوك السياسي السوري ليكون هو ذاته السلوك السياسي العربي تجاه القضايا الملحة والحارة، وباستمرار تشكل هذه المزية نوعًا من الضمان السياسي والثقافي للإبقاء على درجة حرارة عالية في طرح القضايا القومية ولمواجهة أية مستجدات أو ظروف طارئة أو حالات نشاز يمكن لها أن تلقي بظلالها في هذا الموقع العربي أو ذاك أو في هذا الظرف العربي أو ذاك، وهكذا فإننا على مدى أكثر من ثلاثين عامًا لانشهد نتوءات مفاجئة ولا تبدلات في العمق ولا تناقضات في مستويات القرار السياسي السوري، وإنما باستمرار نحن أمام هذه الحالة المتكاملة والمتطورة التي تعرف كيف تستجيب للظرف وتتعامل مع المستجدات وتنجز الأسلوب الحضاري القائم على الشمولية والمرونة في وقت واحد من بناء الموقف السياسي المطلوب، لقد أدركت سوريا بهذا المعنى ما يشبه الحكم السياسية الراهنة والتي تنص على أن التفريط بالموقف هو طريق لضعف الناتج السياسي، وعلى أن المزاودة والانهيار يلتقيان في نقطة واحدة، وعلى أن الانزواء والانكفاء فرصة لنجاح مخططات الآخرين، وعلى أن الموقف السياسي له حدوده الدنيا والفاعليات عبر الإصرار والإيمان، هي التي تؤهل هذه الحدود للنمو والانتشار والتأثير.

ج - قدَّم الموقف السياسي لسورية منهجية تتسم بالواقعية والموضوعية والفاعلية والمشروعية في وقت واحد وفي هذا السياق فإن المفردات والفقرات الناظمة للسياسة السورية والمنهجيات

المتبناة لهذه السياسة، إنما تستند إلى حالة من الوضوح والتأصيل هي التي تقدم المدلول القومي السياسي على أنه مشروع ومطلوب، وهي التي تحيط الحدث السياسي بأطر من الوعي والاستيعاب والموضوعية تكون من شأنها أن تكون الحد المقنع والفاعل في التعامل مع الأطراف الداخلية والخارجية، وفي هذا الصدد فإن ثمة عناوين وفقرات تطرح نفسها:

- المصلحة القومية وتقديرات المصير هي الأساس في تبني الموقف السياسي القومي وفي صياغة منهجه وتطبيقاته في المنطق السياسي السوري.

- المشروعية والعدل وضرورات المصير وبواعث الأمن القومي ومنطق الحق والسلام إنما يشكل قاعدة أصيلة وراسخة في عمق النشاط السياسي السوري، ومعروف هنا أن المصلحة الذاتية والضرورات المرحلية ووجهات النظر الخاصة تنتفي تماماً بمعالمها ومقدماتها وتوابعها من الموقف السياسي لسورية العربية وتتم البرهنة باستمرار على ذلك من خلال التمسك الثابت والحقيقي برغم احتمالات الخطر والفاتورة المرتفعة بالتسديد، وكذلك في الاستقرار على الموقف السياسي بالرغم مما يؤكد في اللحظة الراهنة على صعوبة التمسك به ولربما خطورة الثبات عليه.

د - إن المنهجية العملية في اشتقاق أولويات وتوجهات منتجة وعادلة في الموقف السوري سياسيًا كان لا بد من أن تطرح نفسها من خلال أمرين متكاملين، الشروط الموضوعية والتاريخية للواقع العربي كأمر أول ولا سيما بالاستناد إلى درجة النضج ومستوى الوضوح في القضايا القومية ومدى قدرتها على تحصيل المكاسب والمواقف المجزية على المستوى العالمي، وفي منحى آخر إمكانية الأدوات العربية السياسية على تطوير معدلات أدائها واستنباط ما يلزم من الوسائل والآليات للتخاطب السياسي مع قوى العالم المتنوعة والمتناقضة حيث لا مفر هنا من وحدة العلم والعدل وثنائية الفعل والاستجابة الحضارية المنهجية، وهنا نستطيع أن نتابع حيثيات الموقف السياسي لسوريا من خلال ترتيب أولوياته عبر التضامن العربي والعمل العربي المشترك والحفاظ على المؤسسات القائمة وتقليص مساحة التناقض والتركيز على عوامل الاشتراك والوحدة على أن يكون ذلك كله مدعمًا بفاعلية وأنشطة مستديمة تقوم على الحوار وتبادل المعلومات ونقل وجهات النظر والآراء والتخلص من الكمي والفائض لصالح النوعي والأساس وتقبل مستوى البدايات المتواضعة في الرد والردع وبناء الموقف وصياغة أساسيات الأمان والاطمئنان المناسبة للظرف الصعب ولشراسة التحديات.

لربما كان علينا أن نتحول بالمواصفات والشروط النظرية والعقائدية والتوصيفية إلى مداراتها التطبيقية والتجسيدية حيث يكون الموقف السياسي لسوريا عندها متشكلاً من فترتين متكاملتين: تكمن الأولى في عمومية المبادئ وضرورتها وتكمن الثانية في حيوية البناء وموضوعية التعامل وحضارية الفعل السياسي المؤثر والمنتج. وفي هذا السياق لابد من التأكيد على أن الوجه التطبيقي في السياسة السورية إنما يشكل التجسيد العملي والمسلكي لمقومات الموقف من جهة والمردود السياسي والحضاري للمتطلبات المعاصرة لهذا الموقف، إذ أن المقصود في المحصلة أن تبقى الحياة قائمة في قضايانا القومية، وأن تبقى تأثيرات هذه القضايا وإشعاعاتها وتأثيراتها قائمة أيضاً على الساحتين العربية والعالمية، وبقصد ضمان ذلك فإن الموقف السياسي لسوريا يتميز بخصائص مثبتة ومستمرة في كافة أوجه النشاط السياسي وتفاصيله:

- القاعدة الراسخة والأهم المتمثلة في أن حقائق الموقف السياسي والقومي هي ذاتها ضرورات الإبقاء على المصير القومي وشروط المساهمة في بناء حضارة العالم المعاصر، وها هنا تنتفي نزعات هجينة مثل المزاودة أو التفريط أو التجزئة أو المساومة أو التجاهل، وذلك كله هو الذي يقدم أوجه النشاط السياسي السوري على أنه استجابة موضوعية وعلى أنه مقطع تأسيس وعلى أنه معيار فرز للمواقف في كل مراحل مواجهة المشكلات والمعضلات القومية الناشئة.

- ثم إن الموقف السياسي السوري بما فيه من تعادل مع الموقف القومي وتلبية لاحتياجاته إنما يستند إلى منهجيات أخلاقية وعملية تقوم أساساً في الحفاظ على مصادر الهوية القومية وفي توسيع بقع التوحد والانسجام والتخلص أو التقلص في مساحات التناقض والاختلاف، ومن ثم تبنى منهجية التطور والتطوير من خلال الحركة والفاعلية بحيث تكبر وتتسع مع كل مرحلة عوامل الوحدة وبواعث الموقف الموحد وتتقلص إلى آخر درجة الحساسيات المفرطة والتقديرات الذاتية والاحتمالات المنفلتة من التقويم والقيم.

- ونشترط في هذا السياق مسألة القوى المشتركة في الحدث نفسها سواء على المدار القومي العربي أو في نطاق الواقع العالمي، حيث لا بد من تصنيف للقوة والقوى وللعلاقات الناظمة لتفاعلات هذه القوى وحيث لا بد من التأكد من الموازين المطروحة وما تفترضه من وقائع وتطبيقات تأخذ بعين الاهتمام المصالح ومستويات القوة والخيارات البراغماتية في اتخاذ المواقف، إننا في المحصلة نتعامل مع قوى بشرية سياسية حية لها منطلقها ولها مصالحها، ولها سطوتها في التأثير والتأثر ولا يمكن صياغة الموقف القومي بعيداً عن ذلك حيث تبقى المسافة قائمة بين حدي المشروعية والواقعية.

تأبين راحـل عظيم

فايز فوق العادة (*)

على الرغم من أن التأبين تظاهرة يُفعّلها الأحياء، فإنها متحررة من الاشتراطات. من هنا كانت لتظاهرة التأبين مصداقيتها الخاصة. إن لهذه المصداقية جذوراً عميقة وأصيلة لاسيما وأن التأبين الذي نخطّه هو تأبين لراحل عظيم. لا يهمنا من الحياة معناها المجرد، فالحياة يصنعها من أتوا الحياة. العظيم هو من يهب الحياة أكثر مما تهبه الحياة، هو من يخلّف الحياة في وضع أفضل بكثير مما كانت عليه الحياة عندما رفدها بوجوده لأول مرة. العظيم هو الذي يضفي لمسةً جديدة على الحياة عندما يلبس ثوب العيش. إنـه

(*) فايز فوق العادة: باحث من سورية، رئيس الجمعية الكونية السورية

تأبين راحل عظيم

يُعرِّف الحياة ولا ينتظر أن تعرِّفه الحياة. لا ينقطع العظيم بعد رحيله فكل ما صاغه وبناه وشكّله يبقى ماثلاً بتقديره هو. لقد أكّد الراحل العظيم بوجوده أن صانع العالم هو الإنسان الفرد العظيم.

إن معايير الحياة في سورية اليوم أفضل بكثير مما كانت عليه قبل عقود قليلة. إنها مسحة حضارية نلمسها في كل بقعة من سورية. إنها بالتأكيد لم تكن موجودة قبل برهة قصيرة من الزمن. لقد علّمنا الراحل الكبير أن للأفكار أجنحة، وأن علينا أن نركّب للأفكار أجنحة، وأن نتفتح على الأفكار المجنحة المغايرة. إنه الأسلوب الأكثر تقدمًا للتذهنية العلمية.

لقد فُتحت ولأول مرة في سورية الأقنية المعلوماتية أمام الأفكار الجديدة، لا بل والأفكار المستجدة. كما نعلم المرجعية في تقويم الفكرة العلمية هي الفكرة العلمية المستقبلية والمناقضة في كثير من الأحيان.

هذا هو شأن العلم، أن نتوقع الفكرة غير المتوقعة، وأن نقبلها في مرحلة تالية. لم تكن هذه التذهنية العلمية مألوفة لدينا، فغدت اليوم جزءًا من حياة العلم والعلماء عندنا. غدا النشر الأفقي لهذه المفاهيم سلسًا، وأزيلت من دربه العقبات والمصادرات. فالمناقشة العلمية بالتعريف هي المناقشة المفتوحة غير المسبوقة. لا يهدف الجدل العلمي تثبيت فكرة بل البحث عن الفكرة. لم تكن هذه المقولات لتجري على ألسنة علمائنا قبل عقود قليلة وأصبحت الآن في قاموس ما هو متعارف عليه. لقد خُلقت أجواء جديدة تستطيع هذه المقولات أن تتفعل فيها وتنتج حتى المدى الأقصى.

هيأت الأجواء الجديدة لكثير من المصطلحات أن تتجسد على أرض الواقع في سورية الحديثة.

وهكذا دخلت الدائرة مصطلحات كانت منسية أو متجاهلة: البحث العلمي - التطور المعلوماتي - التطوير التكنولوجي - توسيع المدى الأفقي للتعليم - أولوية الثقافة وبناء الإنسان - تبني أسلوب حياة محدثة معاصرة - الارتقاء الحضاري على كل صعيد.

حق الجميع في الارتقاء الحضاري والحياة بأسلوب معاصر هي أطروحة وُضعت موضع التنفيذ بحزم. تحقق مضمون الأطروحة بشكل تدريجي ويومًا بعد يوم. لايُمكن أن تُعقب إلاَّ بأفكار أحدث. لا تتعين هوية الإنسان بإرث بيولوجي أو انتماء اجتماعي أو ارتباط أُسري أو تاريخ خاص أو ثقافة متحيزة أو علم مستقر. إن هوية الإنسان هي إجمالي شخصه، وهي تتبدى بقدر ما يخلف من ذكريات وما كان يجسد من حضور. كان

تأبين راحل عظيم

للراحل العظيم حضور متفرد تجلى بإسقاطاته الشخصية في كل مجال. لا تتسع هذه العجالة لمسح كل الإسقاطات خاصة في مجال العلم والتكنولوجيا: الجامعات - مراكز البحوث - الزيادة الكبيرة في عدد المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية - الهيئات العلمية المتخصصة - المستشفيات المتطورة - الجمعيات العلمية - النشر الواسع للمعلوماتية - المواكبة الفعلية لتغيرات العصر - إلزامية وأولوية التعليم - التوسع في الثقافة العلمية - منح القطاع الثقافي رعاية خاصة ومتميزة - دعم العلم والعلماء.... وغير ذلك الكثير.

إنها فجوة كبيرة في الزمان والمكان تخلقت يوم العاشر من حزيران من العام ٢٠٠٠ عندما فارقنا سيادة الرئيس. إنه الحضور الكبير الذي نفتقده اليوم بحق في ظل ثلاثة عقود من الأمن والاستقرار في سورية، هو مثل يحتذى به وهو مأثرة للرئيس الراحل. إن الذكريات لوحدها تخبو إن لم تُفعّل وتجدد من خلال السير على نهج الرئيس الخالد، وفي استمرارية التجديد الذي نراه اليوم في نهج السيد الرئيس الدكتور بشار الأسد الذي أكد على نهج التحديث والتطوير، والشفافية والإصلاح الإداري والثقافة في عصر العلم والثقافة. وكما راهن القائد الخالد حافظ الأسد على الزمن بنجاعة. والمراهنة الكبرى على المستقبل؛ فإن المستقبل الآمن والمشرق والمستقر لسورية الحضارة بقيادة رئيس الجمهورية السيد الدكتور بشار الأسد هو الأمل والباعث للتفاؤل.

فلتخلد ذكراك يا سيادة الرئيس حافظ الأسد.

❖ ❖ ❖

القائد الخالد حافظ الأسد باني سورية الحديثة

د. نجدة زريقة(*)

إنه ذلك المولود العظيم الذي جاء بعد مخاض طويل وعسير، كابدته الجماهير ليقود مسيرتها المظفرة في مختلف المجالات الاجتماعية، والثقافية، والسياسية، والعسكرية. إنه هبة الله في زمن قاس مرير.

إنه كلمة بكر لم يقلها قائل:

هناك في بقعة من بقاع وطننا الغالي، تتجاور فيها العظمة والبساطة والجمال وُلد حافظ الأسد.

في بيت من طين وبين أشجار السنديان، وبيادر القمح وشاهقات الجبال، نشأ قائدنا صلبًا كالسنديان ومعطاء كالبيادر وشامخًا كالأجداد وكان سخيًا كالسماء، ثائرًا كالبحر متواضعًا كالأرض.

(*) نجدت زريقة: باحث من سورية. عضو اتحاد الكتاب العرب.

باني سورية الحديثة

إنه ذلك الرجل الذي جمع العلم والمعرفة والعاطفة، فكان الإنسان الذي يرى حياته في حياة الآخرين، وكرامته في كرامة الجميع وسعادته في سعادة كل البشر. إنه القائد المؤمن بالجماهير الذي يخوض النضال بها ويحقق الانتصارات من أجلها، راح منذ البداية يعلّمها البطولة والاستشهاد والحب والوفاء، وردت الجماهير بالولاء المطلق وأصبح فيها كالنور للعين والدم للقلب.

إنه القائد الذي وثق بالشعب فكسب ثقة الشعب، إنه تلك الشخصية الرائعة التي تكشف فيها أنبل وأجمل وأسمى القيم التي تاقت إليها، وقدستها الإنسانية على امتداد التاريخ، وأصبح اسم السيد الرئيس ما أن يذكر حتى تتداعى في المخيلة هذه القيم الإنسانية حتى يمكن اختزالها في كلمتين هما حافظ الأسد.

إنه الإنسان الذي لم تُنسه المهام العظيمة التي رهن نفسه لها، والمشاغل السياسية المرهقة التي لا تنتهي، لم تنسه الاهتمام بأرامل الشهداء وأيتامهم فيهيء لهم وسائل العيش الكريم والمستقبل اللائق، ولم تصرفه تلك المشاغل عن التخفيف عن العجزة بل لم يفته، وهو في لجَّة الأحداث الصاخبة في المنطقة والعالم، أن يواصل الليل بالنهار في سبيل الإفراج عن الرهائن في المنطقة، ينتمون إلى مختلف الجنسيات، ولم يهدأ له بال حتى عادوا إلى زوجاتهم وأولادهم وذويهم.

فأي قلب كبير هذا الذي يتسع لقضايا الإنسان في كل الأوطان؟ إنَّ هذا القلب هو الذي خفق في صدر قائدنا الخالد حافظ الأسد.

كان القائد الخالد بشخصيته المتفردة، منذ ريعان شبابه، وكأنَّ الأقدار تهيئه لقيادة العرب في أحرج مراحل التاريخ، وأكثرها تعقيداً وأشدها خطورة على حاضرهم ومستقبلهم، ومنذ كان في مرحلة الطلبة اقتحم معترك السياسة، وأخذ قلبه يخفق على إيقاع الهموم العربية وعلى رأسها الهم الأكبر فلسطين.

وكان رغم حداثة سنه آنئذ - رحمه الله - من مؤسسي حزب البعث العربي الاشتراكي. الذي عدَّ قضية فلسطين قضية العرب الأولى يتعامل معها تعاملاً مسؤولاً منظماً متواصلاً من خلال الحزب، ثم جعله موقعه في صفوف القوات المسلحة السورية، وجهاً لوجه، في كل يوم وفي كل ساعة أمام مغتصبي أرضنا، ومشردي شعبنا، والسهر على أمن البلاد، ويتطلع إلى الأرض المسلوبة. يرسم الخطوط ويتابع السير على طريق النضال الذي أدرك أنه طويل طويل حتى إذا ما رفعته الجماهير على أكتافها قائداً أبدياً لها. صعدت معه قضية فلسطين إلى مرتبة

المسؤولية الأولى والشاغل الأكبر. وصار كل شيء في سورية يدور حول هذه القضية. في سني الدراسة كان الطالب المتفوق يتقدم أقرانه مرشداً ملهماً. معمقاً فيهم الإيمان بالأمة العربية الواحدة وتاريخها العريق وحضارتها العظيمة وأهدافها القومية، وهكذا لا يلبث أن يجد نفسه في مقدمة رفاقه منخرطاً في خضم النضال العام للشعب السوري ضد الاستعمار والتحالف الإقطاعي البرجوازي ليرفع علم الوطن عالياً في سماء سورية المستقلة الحرة ويشارك، وهو المنظم البارع، في قيادة كثير من المؤتمرات الطلابية ذات الطابع الوطني والقومي:

- مؤتمر الطلبة في دمشق إثر نكبة فلسطين.
- مؤتمر طلاب سورية في حلب.
- مؤتمر الطلبة في حمص.
- مؤتمر طلاب سورية في اللاذقية.

ومؤتمرات من هذا القبيل يقودها الشاب المناضل حافظ الأسد لابد أن تخرج بمفردات على مستوى عالٍ من الأهمية كالدعوة للنضال ضد الاستعمار بأشكاله وألوانه كافة وتحرير فلسطين، وتحقيق الوحدة العربية الشاملة والتدريب العسكري للطلبة وتحقيق العدالة الإجتماعية وتكافؤ الفرص.

ولو جاز للمرء في ذلك التاريخ استشراف المستقبل على أساس الحاضر لرأى تلك المقررات شعارات تناضل من أجلها اليوم الجماهير العربية على امتداد الوطن العربي ولتصور الملامح الفكرية للقائد الخالد قائداً للعرب بعد مضي عشرات السنين من تلك الأيام.

لقد ترك الأسد الخالد بصمات فكرية ونضالية لا تمحى على فكر الحزب وسياسته منذ تأسيسه مروراً بثورة الثامن من آذار وحركة ٢٣ شباط وصولاً إلى الحركة التصحيحية الماجدة.

الحركة التصحيحية تجربة ديمقراطية رائدة:

بعدما قدمنا لمحة سريعة عن المناضل الإنسان حافظ الأسد قبل الحركة التصحيحية أصبح من الضروري أن نرى منجزات هذه الحركة الماجدة في كل زاوية من زوايا الوطن الغالي.

يقول الخالد حافظ الأسد (لقد قررت سورية منذ فجر التصحيح إن الإنسان هو منطلق الحياة وهو هدفها) وقد استجاب الإنسان في سورية لذلك القرار وأعطى نموذجاً فريداً من القدرة على البذل والعطاء.

باني سورية الحديثة

إن الديمقراطية لا تعني الفوضى السياسية، ولكنها تعني توفير أفضل الظروف التي يتمكن من خلالها المواطن من تحقيق الاختيار الحرّ بما في ذلك اختيار ممثليه، ومن القيام بكل ما يخدم الوطن والشعب.

«إن الديمقراطية تتطلب التنظيم الذي يوفر الحرية ويصونها والفوضى تحقق عكس ذلك... إن الديمقراطية التي نعمل على تطورها وتجديدها دائماً، ومعه ما يخدم مصالح شعبنا وبلادنا لا تعني ممارسة المواطن للعملية الانتخابية فقط، بل الإسهام الفعال في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية».

«وفي بعض الوقت نفسه فإن قيام المؤسسات المنتخبة في كل المستويات بواجباتها المحددة في الدستور والقانون أمر أساسي لصون الديمقراطية وشرط لا بد منه لضمان المسار الديمقراطي».

ونستخلص من ذلك إن الديمقراطية الحقة هي التي تنبع من روح الوطن وتتزيّا بزيه، وهي التي تلبي احتياجات المجتمع في مرحلة تاريخية معينة. وتطلعات الجماهير الوطنية والاجتماعية، وهي نقيض الفوضى السياسية.

إن الانســـــان هو الذي يعطي الديمقراطية وينتجها من روحه وتجاريه وعلى الإنسان ألا يرواح مكانه، فعليه أن يستفيد من الحياة التي يغذيها بأفكاره وتطوره؛ لإنتاج صيغ ديمقراطية متجددة مع تجدد فكره وعطائه. وخير خلاصة لكل هذا قول السيد الرئيس الخالد حافظ الأسد «إن الإنسان ينشد الكمال ولاينالُه ولكن عليه أن يناضل لكي يناله»

ولاسبيل إلى التشاؤم، فإن تعاظم هذا الزخم من الاهتمـــام والمطالبـــة بالديمقراطية، على الصعيد العربي يبشر بالخير ويدل على أن العرب مقبلون لا محالة على رحاب الديمقراطية، وكان للحركة التصحيحية المباركة التي قادها القائد حافظ الأسد فضل وشرف السبق في هذا المضمار.

إن العرب اليوم يمتلكون تجربة رائدة في الديمقراطية غير منقولة ولا مستنسخة، بل هي التجسد الملموس لنظرية مبدعة وهي في التطبيق الثوري مرنة مطواعة لاقساوة فيها ولاجمود، وهي جهد ثوري خلاق مدرك للهدف النهائي وهي تبصّر علمي يستند إلى حسابات دقيقة لإمكانات الوطن وطاقات المواطن وهي جداول تتدفق في كل جينات الحياة تروي المشروع التاريخي الذي رسمه القائد الخالد لبناء المجتمع العربي الديمقراطي الموحد.

وطالما تساءل المهتمون بقضايا المنطقة عن السر الذي يجعل من دولة

صغيرة كسورية، قادرة على الوقوف في مواجهة الإمبريالية والصهيونية وربيبتها إسرائيل، قلعة شامخة سقطت كل الرهانات على سقوطها بعد أن تهاوت كل القلاع.

وليس هناك في واقع الحال من سر ولاأسرار، إن المنزلة التي تحتلها سورية في المنطقة وفي العالم هي بكل بساطة نتاج واقع ديمقراطي إنساني خلقته الحركة التصحيحية المجيدة ، والناس في هذا **الواقع يتمتعون** بكامل الحقوق السياسية **والاجتماعية، يحكمون** أنفسهم بأنفسهم، من خلال تعددية سياسية، هي صيغة بكر في التاريخ العربي والإنساني، ويضعون الحياة سادة أحرارًا متساوين، ولا غرابة بعد ذلك أن يصبح الشعب الصغير في دولة صغيرة، جديرًا بصنع المعجزات. إن العرب بحاجة اليوم أكثر من أي وقت مضى، لكي يدرسوا مايجري في سوريا، وينهلوا من الفكر الديمقراطي المبدع لحافظ الأسد طريقًا إلى تحقيق الأماني القومية والكرامة الإنسانية التي يستحقها العرب، لأن النموذج السوري الديمقراطي السياسي الاجتماعي الذي أبدعه القائد الرمز حافظ الأسد، هو الأنسب للأمة، والأقرب إلى الواقع وبالتالي فهو الأحب إلى القلوب، لأنه لم يأتِ من الخارج في طرد بريدي مغلف، بل كان نبتة عربية اللون والطعم والرائحة.

لقد لخص السيد الرئيس الخالد كل ذلك بإيجاز عميق، حين قال: «إن صيغة الديمقراطية التي اختارها شعبنا ليست إطارًا جامدًا وليست سلعة تستورد من هذا البلد أو ذاك، وإنما هي الإطار الذي يمارس فيه المواطنون حقوقهم وواجباتهم وفقًا لظروفهم المرحلية».

الحركة التصحيحية تجسيد لروح البعث:

إن الحركة التصحيحية المجيدة، من حيث **الانتماء** السياسي **بعثية القلب والعقل واللسان**، فأغصانها **الباسقة وفروعها** الحانية المثقلة بالثمار، نمت وغطت على شجرة البعث الدائمة الخضرة وقائدنا الخالد، هو من مؤسسي هذا الحزب ومن أبرز مناضليه في الساحات الشعبية والوطنية والقومية، لذلك فالحديث عن الحركة التصحيحية هو في ذات الوقت حديث عن الحزب في مرحلة متميزة من مسيرته النضالية، فعندما أخذ الركود يتسرب إلى كيان الحزب كان لابد من بعث الحركة حين اتصاله من جديد، وفي لحظة تاريخية حاسمة شهدها يوم السادس عشر من تشرين الثاني عام ١٩٧٠ أخذ القائد العظيم حافظ الأسد، بيده زعامة المسؤولية وفجر التصحيح الشامل في الحزب والفكر والسياسة والاقتصاد، وفي كل ميدان فأنقذ الحزب ووحد الشعب وقاد

الوطن والأمة في أكثر الدروب أمنًا نحو أهداف العرب الكبرى في الوحدة والحرية والأشتراكية.

لابد من التصحيح:

إن ما تقدم من فقر واضح لحرية الرأي على مساحة وطننا العربي الكبير، كان لابد من إيديولوجيا التصحيح في هذه الصحراء القاحلة، على الرغم من أهمية التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي تحققت في مرحلة تسلم الحزب للسلطة، وجدية القرارات المحكومة بالمنطلقات النظرية الصادرة عن مؤتمرات الحزب، فإن ممارسة القيادة النافذة في المرحلة مابين ثورة الثامن من آذار وحتى مطلع عام ١٩٧٠. كانت تهدد كل تلك الإنجازات بالخطر. كانت القضية ملحة لرص صفوف القواعد الحزبية وتحقيق أعلى أشكال الوحدة الوطنية في الداخل، ليكون الحزب ومعه الجماهير الواسعة، كتلة واحدة متراصة، لإانه بدأ يتضح منذ المؤتمر القومي التاسع الاستثنائي في أول أيلول عام ١٩٦٧ والمؤتمر القطري الرابع (أيلول ١٩٦٨) والمؤتمر القومي العاشر (أيلول ١٩٦٨) أن لابد من توافر قيادة للحزب والدولة والمجتمع، تكون على مستوى إنجاز المهام التاريخية المطلوبة في هذه المرحلة الصعبة التي تواجه نضال الأمة العربية بأسرها، وكان لابد لهذه القيادة من أن تكون متمتعة بأعلى شرط ذاتي من الوعي والثقة بالحزب والقواعد الواسعة والثقة بالجماهير وقواها الوطنية والتقدمية، لكي تستطيع هذه القيادة أن تحول استعدادات القواعد الحزبية إلى ممارسة نضالية فعلية وأن تعبئ قوى الجماهير من ورائها وتحشد جميع طاقاتها لخوض معركة التحرير على الرغم من التأكيد الواضح على الديمقراطية في المنطلقات النظرية لحزب البعث، وفي مؤتمرات الحزب وعلى الرغم من مطالبة قواعد الحزب وجماهيره بممارسة الديمقراطية الشعبية في حياة الحزب والدولة والمجتمع، إلا أن كل هذا لم يجد طريقه إلى التطبيق حتى انبثاق فجر التصحيح في ١٦ تشرين الثاني ١٩٧٠ بعد أن تنكرت العقلية اليمينية المناورة لمفهوم الحزب القائد وحالت دون تشكيل جبهة وطنية تقدمية، كما ابتعدت عن الفهم الصحيح والمجدي لمنطلقات الحزب في النضال من أجل الوحدة العربية ومن أجل الحرية والاشتراكية وغدت التعددية السياسية والاقتصادية مسألة خيالية، يشوبها الغموض ويحجبها التسلط والجمود العقائدي، وكان لهذا انعكاس سلبي على الوحدة الوطنية، وهكذا تم الطلاق بين الشعارات والممارسات فغدت المفاهيم الثورية في اتجاه والحزب والقيادة في اتجاه آخر.

وبدأت جماهير الحزب تتلمس

الاتجاه الصحيح وتنشد التصحيح وتحرك الحزب في المؤتمر القطري الرابع وبعدها في المؤتمر القومي العاشر، ينتقد خطأ السياسة التي تنتهجها القيادة وآثارها الخطير على الحزب، إن لم تتبدل الأساليب لتصبح القيادة جادة في تنفيذ مقررات الحزب. ولكن هذين المؤتمرين لم يتمكنا من إقناع القيادة بخطأ ممارستها وبضرورة تغيير أساليب عملها فبرزت أزمة حادة بعد انتهاء المؤتمر العاشر أوضحت أن الأكثرية المطلقة من قواعد الحزب المدنية والعسكرية تندفع بتيار واحد يقاوم أساليب القيادة وممارساتها، وعندما اتضح أن القيادة مستمرة في أساليبها التي تعرض وحدة الحزب وبقاء الثورة للخطر تصدى لهذه القيادة مناضلو الحزب بقيادة القائد الخالد حافظ الأسد. يوم السادس عشر من تشرين الثاني ١٩٧٠ لإعادة الحزب إلى مساره الصحيح.

الحركة التصحيحية المباركة: انتصار للحزب والشعب والعرب جميعاً

أطل التصحيح على سورية والعرب في الوقت الملائم تماماً، فقد كانت كل مقتضيات التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي على الصعيد الداخلي والعربي ومايحيط بها من أوضاع دولية غاية في التعقيد وتتطلب بإلحاح مثل هذه الدفعة القادرة على بعث الحركة في كل شيء.

ولم يكن بمقدور أحد أن يتصدى لهذا الفعل التاريخي سوى الشخصية التاريخية الفذة التي ينفرد به المناضل حافظ الأسد.

كانت الحركة التصحيحية وثبة في المدى، يضيق بها قطر واحد ولا يتسع لها أقل من الوطن العربي في القارتين، وثبة ترى المصالح الكبرى للعرب جميعاً وتطل من خلالها على المصالح العليا للإنسانية جمعاء.

وأدركت الجماهير الشعبية بحسها الوطني السليم، وأدركت قيادة الحزب التي تحسن قراءة الظواهر التاريخية الدلالات والميزات الاستثنائية التي تنطوي عليها الشخصية الفذة لحافظ الأسد، واستنتجت أن هذا الزمن العربي الصعب قد أنجب القائد الذي يحتاجه العرب، ففي الملمات والمنعطفات يظهر الرجال العظماء وما لبثت أن وحدت إرادة الحزب والشعب ترجمة لها في شعار قائد المسيرة الذي صدر عن المؤتمر القطري الخامس المنعقد بين ٨ و١٤ - ٥ / ١٩٧١.

شعار قائد المسيرة

جاء في التقرير السياسي للمؤتمر القطري الخامس.

«إن طبيعة المراحل التاريخية التي مر بها مجتمعنا وطبيعة علاقة الحزب بالجماهير من خلال السنوات الماضية وطبيعة التطور بشكل عام أدت إلى بروز

ضرورة، هي أنه لا بد من وجود قائد للجماهير وأكد هذه المقولة تطور شعوب العالم الثالث بعد ثوراتها الاشتراكية وبروز قائد لكل شعب ولا يختلف شعبنا عن غيره من هذه الشعوب.

هكذا التفت الجماهير على امتداد ساحات الوطن العربي ومن مختلف الفعاليات حول حافظ الأسد، وتم الخلاص إلى الأبد من فرض الوصاية على الحزب والجماهير والانعزال عنهما، وجرى إرساء أسس قواعد الديمقراطية الشعبية، وتعزيز روح الوحدة الوطنية في دولة المؤسسات، لقد جعل القائد من مهمة البناء الجديد للدولة الديمقراطية الشعبية التي أكدتها المنطلقات النظرية لحزب الهدف الأسمى والأهم، فكان له فضل العمل على تحقيقها وتطويرها على أرض الواقع، آخذاً بعين الاهتمام الخصوصيات المادية والمعنوية للواقع الوطني والقومي والدولي من خلال القراءة الصحيحة والتحليل الدقيق للمتغيرات الدولية والعربية والمتطلبات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، إضافة نوعية إلى الخبرة التاريخية للشعوب المناضلة، من أجل (حكم نفسها بنفسها ولنفسها).

بيان ينضح بالديمقراطية

ومنذ البداية ربط قائد التصحيح بين الديمقراطية كممارسة سياسية، وبين التنمية المخططة في مختلف مجالات النشاط الاجتماعي والاقتصادي، وفي أول بيان أصدرته القيادة القطرية المؤقتة التي أعقبت التصحيح ترددت أصداء الديمقراطية في مختلف المواضيع ، ودللت على أن عهداً جديداً قد أطل على سورية وشعبها، عهداً ديمقراطيّاً، شعبًا إنسانيّاً، فمست كلمات البيان شغاف القلوب وألهبت الحماسة في النفوس المتعطشة إلى الحرية والديمقراطية، وبينت إنجازات التصحيح ما الذي يمكن أن تفعله الجماهير في رحاب الحرية والديمقراطية.

لقد تضمن البيان منهج الحركة التصحيحية في مختلف المجالات والميادين ونقتصرها هنا على ذكر الداخلية منها:

١ - حشد كل الطاقات التقدمية والشعبية ووضعها في خدمة المعركة.

٢ - تشكيل مجلس الشعب خلال مدة أقصاها ثلاثة أشهر.

٣ - متابعة وضع وتنفيذ خطط التنمية الاقتصادية على ضوء ضرورات المعركة وحاجات الشعب الأساسية.

٤ - تعميق وتطوير التحولات الأشتراكية والاستمرار في بناء القاعدة الاقتصادية.

٥ - إعطاء المنظمات الشعبية دوراً فعالاً في قيادة عملية التحويل الاشتراكي وممارسة الرقابة الشعبية على أجهزة الدولة.

٦ - متابعة تطوير وبناء القوات المسلحة.

باني سورية الحديثة

٧ - إصدار قانون الإدارة المحلية.

٨ - صيانة حرية المواطنين وكرامتهم فهو غاية كل حركة ثورية.

٩ - تعزيز الوحدة الوطنية وإقامة الجبهة الوطنية التقدمية.

١٠ - وضع دستور دائم للبلاد وتشكيل مؤسسات الحكم الديمقراطية.

١١ - بناء نظام الديمقراطية الشعبية وتوسيع دائرة المشاركة الجماهيرية في السلطة والقرار.

١٢ - السير في تحقيق تنمية شاملة في البلاد في جميع المجالات.

١٣ - التركيز على دور القطاع العام الرائد وقيام الدولة بدورها في التنمية الاقتصادية.

١٤ - إتاحة الفرص للمواطنين للإسهام في التنمية الاقتصادية وذلك باعتماد التعددية الاقتصادية.

١٥ - تغطية القطر بشبكات كهرباء والتوسع في توليد الطاقة.

١٦ - إقامة شبكة الطرقات الرئيسة والفرعية وشبكة اتصالات وتوفير مياه الشرب والرعاية الصحية لجميع المواطنين.

١٧ - نشر المدارس في جميع أنحاء القطر في الأرياف كما في المدن.

١٨ - التوسع التعليم والتدريب المهني.

١٩ - التوسع في إنشاء المعاهد المتوسطة.

٢٠ - توسيع جامعتي دمشق وحلب وإنشاء جامعة في حمص وأخرى في اللاذقية.

٢١ - تطوير البحث العلمي وعدّه مسألة أساسية.

٢٢ - العمل على تطوير أجهزة العمل الحكومي وتحسين أدائها وتحديثها.

٢٣ - تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص.

٢٤ - الرقابة الشعبية والحكومية المستمرة على عمل أجهزة الدولة.

وللإنصاف يجب القول إن كلّ كلمة وردت في البيان وجدت طريقها إلى التطبيق في الواقع، وذلك أن الحركة التصحيحية أوقدت شعلة في النفوس، لم يكن لها أن تنطفئ، فاستجاب الجميع إلى دعوة القائد للالتفاف أحرارًا موحدين حول مهمات البناء الشامل للديمقراطية الشعبية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية وتحرير الأرض.

هكذا كشفت القيادة القطرية المؤقتة في بيان واحد عن هوية الحركة التصحيحية ووعدت الجماهير المتعطشة إلى الديمقراطية الشعبية بالوحدة الوطنية والإدارة المحلية وحق الصحة والتعليم، وعاهدت هذه الجماهير على صون الحريات والكرامة في حرز حريز وتسليط رقابتها الفاعلة على كل ما يتعلق بحياتها وشؤون الوطن. لقد دلل البيان بكل بساطة ووضوح على أن الحركة التصحيحية ليست

أية حركة وأن قائدها ليس أي قائد، إنما هي حركة عظيمة تهدف إلى بناء سورية عصرية حديثة ديمقراطية شعبية، وهو قائد ديمقراطي شعبي مؤمن بإنسانية حرة كريمة.

مجلس الشعب:

هكذا بدأت الإنجازات الديمقراطية ولم تتوقف ولم تكد تمضي الشهور الثلاثة التي حددها البيان المؤقت للقيادة القطرية حتى انعقد مجلس الشعب. ولأول مرة تشهد سورية في تاريخها الطويل، مجلساً هو حقاً وفعلاً مجلس للشعب، حين أخذت تدوي في أرجائه أصوات المنظمات الشعبية والمهنية والقوى الوطنية والأحزاب السياسية وعلى رأسها الحزب القائد حزب البعث العربي الاشتراكي، ولأول مرة في تاريخ سورية يشغل العمال والفلاحون أكثرية المقاعد، إذ خصص لهم ٥١٪ من مقاعد المجلس وفي جلسته الأولى التي انعقدت ١٩٧١/٢/٢٢ وجه الخالد الرفيق حافظ الأسد كلمة جاء فيها:

(لقد توطدت في هذا العهد الجديد بشكل لم يسبق له مثيل الثقة المتبادلة بين الجماهير والشعب والقيادة، وتعززت حرية المواطن وكرامته وتأكدت سيادة القانون إلى جانب تعزيز دور المنظمات الشعبية). وفيه رأت جماهيرنا التجسيد العملي لشعار الديمقراطية الشعبية، وبعد أقل من ثلاثة عشر شهراً من الجلسة الأولى جرى الاستفتاء على الدستور الدائم للجمهورية العربية السورية، وأعلنت المبادئ الأساسية للدستور الحرية حقاً، أما الديمقراطية الشعبية والاشتراكية، فقد أصبحتا خاصتين ملازمتين لنظام الدولة الجمهوري. وورد في المادة التاسعة حول المنظمات الشعبية «المنظمات الشعبية والجمعيات التعاونية، منظمات تضم قوى الشعب العاملة من أجل تطوير المجتمع وتحقيق مصالح أفرادها» كما تحدث عن الحريات والحقوق العامة ألخ...

الجبهة الوطنية التقدمية:

كان الشغل الشاغل للسيد الرئيس الخالد هو تحقيق الوحدة الوطنية التي لا شرخ فيها، ووجد الحل لذلك في التعددية السياسية والديمقراطية الشعبية التي وجدت تجسيداً لها الجبهة الوطنية التقدمية، يقول السيد الرئيس الخالد: «فبالوحدة الوطنية ننشر روح التعاون بين المواطنين ونوفر مناخ المبادرة والإبداع، ونضع الأساس المتين للاعتماد على الذات، فنبني جميعاً الوطن القومي القادر على الدفاع عن نفسه وتحقيق الحرية والرفاه لجميع أبنائه».

«وليس عسيراً على شعبنا الذي تتحلى جماهيره بالنضج والوعي والشعور بالمسؤولية أن تتضافر جهود أبنائه الخيرين

كافة من أجل توفير المناخ الملائم لترسيخ الثقة بين جميع الفئات والعناصر التقدمية والوطنية.

ويقول سيادته أيضاً:

«ولا أظن أن بلداً تقوم فيه التنظيمات الشعبية القوية التي تمثل جماهير الشعب الواسعة كتلك التي تقوم في بلادنا. لا أظن أن بلداً يملك مثلما يملك بلدنا».

لقد قامت الجبهة الوطنية التقدمية في القطر العربي السوري بشكل فعلي في (٧) آذار عام ١٩٧٢م وهو اليوم الذي وقع فيه ممثلو الأحزاب الوطنية التقدمية في القطر ميثاق هذه الجبهة.

ولقد هيأت الحركة التصحيحية المباركة التي قادها الرفيق حافظ الأسد الأمين العام للحزب رئيس الجمهورية، مناخاً إيجابياً وجواً من الثقة داخل الحزب والمجتمع، وفي علاقة الحزب بالجماهير وبالقوى الوطنية التقدمية، مما أتاح الفرصة لهذه القوى أن تدخل في حوار للعمل من أجل إقامة الجبهة وإبرازها إلى حيز الوجود، كخطوة على طريق تمتين جبهتنا الداخلية وتعزيز الوحدة الوطنية لشعبنا من أجل تحقيق أهدافه القومية والاجتماعية.

مهام الجبهة:

أسندت للجبهة مهام تكتيكية واستراتيجية كبرى تعكس وحدة الأهداف النهائية لأطرافها سواء على مستوى القطر أو على المستوى العربي والدولي، ومن أبرز هذه المهام:

١ - إن تحرير الأراضي العربية المحتلة بعد الخامس من حزيران هو هدف هذه المرحلة من نضال أمتنا.

٢ - إقرار مسائل السلم والحرب.

٣ - إقرار الخطة الخمسية ومناقشة السياسة الاقتصادية لتحقيق بناء القاعدة الاقتصادية.

٤ - رسم خطط التثقيف القومي الاشتراكي.

٥ - العمل على استكمال بناء النظام الديمقراطي الشعبي ومؤسساته الدستورية ومجالسه المحلية على أساس تحقيق السيادة للشعب.

٦ - متابعة استكمال البناء الديمقراطي للمنظمات.

٧ - العمل الدائب من أجل الوصول بالحوار الإيجابي، والتفاعل الجماهيري الحي داخل إطار الجبهة إلى التنظيم السياسي الموحد.

بعد إعلان الميثاق والنظام الأساسي

للجبهة تشكلت القيادة المركزية للجبهة وقياداتها الفرعية في المحافظات ومكاتبها المختلفة.

الجبهة طريق لتوحيد أدوات الثورة:

عندما طرحت سورية التعددية السياسية وأقامت الجبهة الوطنية التقدمية **تجربة رائدة وفاعلة على الساحة السياسية ليس في المحيط العربي فحسب، ولكن في الساحة السياسية العالمية أيضاً كانت السباقة في هذا المجال. وقد أثبتت التجربة فاعليتها خلال حرب تشرين التحريرية عام ١٩٧٣ كما أكدت صحتها موجة التغييرات الشاملة التي اجتاحت المعسكر الاشتراكي حيث كان هذا المعسكر يعتمد نظام الحزب الواحد لحقبة طويلة.**

إن الأحداث التي تعاقبت على منطقتنا وهزت العالم في الكثير من أرجائه أثبتت بشكل قاطع أي فكر ثاقب كان يتمتع به قائد التصحيح العظيم، وأية دقة في الحسابات السياسية قائمة على استشراف المستقبل، انطوت عليها تلك التحولات العميقة التي جرت في سورية منذ أن تسلم الخالد حافظ الأسد مقاليد الأمور.

ويمكننا أن نتصور أية حال ستكون عليها بلدنا لولا الوحدة الوطنية التي تحققت في ظل التصحيح، بل أية حال من الضعف سيكون عليها العرب لولا سوريا الديمقراطية الشعبية، وهم يواجهون التحديات الخطيرة التي تستهدف قضاياهم العادلة ووجودهم القومي.

الحرية والتنظيم المجتمعي - والمنظمات الشعبية:

يشكل مفهوم المنظمات الشعبية نقطة ارتكاز أساسية في فكر الخالد، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الديمقراطية الشعبية ولا عجب أن تنطلق الحركة التصحيحية لتؤكد ومنذ قيامها على دور المنظمات الشعبية في **عملية بناء المجتمع** يقول سيادته: «إن العمال والفلاحين وسائر الكادحين هم أصحاب المصلحة الحقيقية في الثورة وهم عماد مسيرتها المظفرة، وإن المنظمات الشعبية لها دور هام وأساسي في بناء المجتمع الاشتراكي. **والتنظيم هو طريق النجاح بل هو سر النجاح، وما من تطور حسن وإيجابي إلا وكان التنظيم سبيله، فالتنظيم أساس كل عمل هادف والشعب المنظم هو الشعب المدرك لغاياته وأهدافه والقادر على السير نحوها بأسلوب التخطيط بثبات واطمئنان».**

إن الحرية السياسية هي ممارسة فعالة ضمن إطار الشعب كله ومن خلاله التنظيم الداعي للبناء والهادف، والحقيقة أن التجربة في القطر العربي السوري أعطت أكمل صور الممارسة السياسية

وأرفاها وبمراحل متطورة وبأوجه متعددة منها:

١ - مشاركة التنظيمات الشعبية للقوى السياسية في وضع الخطط الاقتصادية والاجتماعية.

٢ - المشاركة في الإشراف والرقابة على تنفيذ هذه المشاريع.

٣ - المشاركة في صنع القرار السياسي وممارسة عمليتي النقد والمراقبة على القرارات المتخذة في حدود الإطار الذي لا يمس جوهر العلاقات والتوجهات الوطنية وأمنها ومصلحتها. قال الرئيس الخالد: «يجب أن يكون لكل مواطن في هذا القطر منظمته ولأننا نريد أن نأخذ من كل مواطن أقصى طاقة ممكنة ولأننا نريد أن يمارس كل مواطن أقصى صيغة ديمقراطية ومفهوم ديمقراطي ممكن».

وهكذا انطلقت التنظيمات الشعبية وأصبحت ملامح ثابتة للنظام الديمقراطي الشعبي في سورية وأخذ نشاطها وتأثيرها يتعاظمان في حياة البلاد وعلى سبيل المثال فقد ضم اتحاد العمال عام ١٩٩٠ (٥٢٠٦٣١) عاملاً موزعين في (١٨٤٥) لجنة و ٢٠٠ نقابة وتطور عدد المنتسبين لنقابات العمال ليصل إلى (٦١٢٧٠٧) عضواً في عام ١٩٩٥، أما الاتحاد العام للفلاحين فقد احتوى (٤٧٠٠) جمعية فلاحية و (٦٣٤٥٤٠) فلاحاً وتطور هذا العدد ليصبح (٥١٣٢) جمعية فلاحية تضم (٨٠١٢٣٠) عضواً و (٦١) رابطة في العام ١٩٩٥.

وهناك الكثير من النقابات والمنظمات والاتحادات، وهذه النقابات لها ممثلوها في الجبهة الوطنية التقدمية وفي مجلس الشعب وفي المجالس العليا للتخطيط وفي المجالس المحلية وبنسب كبيرة مما يتيح لأعضائها المشاركة الكاملة في الشؤون السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية ويوفر لهم دفاعاً قوياً مثمراً عن حقوقهم ومصالحهم النقابية.

الإدارة المحلية:

في عام ١٩٧١ خلال انعقاد المؤتمر القطري الخامس صدر مرسوم تضمن قانون الإدارة المحلية وهو يهدف إلى: تركيز إدارة وتنفيذ المشاريع والشؤون العامة بأيدي الشعب، حيث تؤمن المجالس المحلية رقابة دائمة ومباشرة على حسن تنفيذ المشاريع العامة يقول الرئيس الخالد حافظ الأسد: «وبتطبيق نظام الإدارة المحلية، عمقنا الممارسة الديمقراطية ودور الجماهير في ممارسة مسؤولية توجيه شؤون الحكم وتأمين رقابة الشعب الدائمة على حسن التنفيذ».

وعُدّ مجلس الشعب والإدارة المحلية خطوتين على طريق الديمقراطية، قال:

«مجلس الشعب والإدارة المحلية خطوتان على طريق الديمقراطية تاريخيّا».

لقد أصبحت الوحدات الإدارية المحلية مسؤولة مسؤولية مباشرة عن كل المستويات الاقتصادية والثقافية والخدمات التي تهم المواطنين وتعمل على النهوض بالمجتمع في إطاره المحلي وعلى نطاق الإطار العام.

وتأكيدًا لأهمية الإدارة المحلية في تعزيز الديمقراطية، تمّ إحداث وزارة الإدارة المحلية بالمرسوم التشريعي رقم (٣٦) تاريخ ١٩٧١/٨/١٢، وبموجب المرسوم التشريعي رقم (٦٩) لعام ١٩٧٣ وأنيطت بها المهام التالية:

- الاشراف على تطبيق القانون ولائحته التنفيذية بسير العمل في الوحدات الإدارية وتطوير هذه الإدارة بما يحقق تنمية المجتمع اقتصاديًا واجتماعيًا.

- التنسيق بين المحافظات في مجال الإدارة المحلية وتنظيم تعاون هيئاتها وأجهزتها المحلية مع الأجهزة المركزية في حدود سياسة الدولة وخطتها العامة.

- اقتراح السياسة العامة للإدارة المحلية وفقًا لاحتياجات المجتمع ووضع الخطوط والبرامج اللازمة لتنفيذها.

- متابعة تنفيذ المشاريع المحلية وتقييمها.

- المساهمة في ربط التخطيط المحلي بالخطة العامة للدولة بما يحقق التكامل الاقتصادي والاجتماعي بينها.

- استصدار التشريعات والأنظمة اللازمة وإصدار القرارات والتعليمات التنظيمية التي تكفل حسن تطبيق قانون الإدارة المحلية.

- توفير المعونات الإدارية والمالية للوحدات الإدارية المحلية بما يمكنها من حسن أداء مهمتها.

- تنظيم المؤتمرات والندوات وحلقات الدراسة الخاصة بالإدارة المحلية والاشتراك فيها.

- الاشتراك بالمؤتمرات الدولية التي تعنى بدراسة نظم الإدارة المحلية وأساليبها.

- إتخاذ الاجراءات للانضمام إلى الاتفاقات الدولية.

- احداث الدورات التأهيلية لتأهيل رؤساء وأعضاء المجالس المحلية والأجهزة التابعة لها وتدريبهم وإصدارالأنظمة المتعلقة بذلك.

- ممارسة جميع الاختصاصات والصلاحيات الأخرى المنصوص عليها في القوانين النافذة.

بانو سورية الحديثة

المرأة في ظل الحركة التصحيحية:

إن قضية المرأة ببعديها الاقتصادي والاجتماعي تعدّ قضية عالمية جوهرية جديرة بأن تنال أكبر الاهتمام من سائر الشعوب والحكومات، هذه القضية حظيت باهتمام كبير من القائد الأب الخالد الذي لم يترك مناسبة إلاطالب فيها بإعلاء قيمة المرأة وتعزيز مكانتها الاجتماعية وإعطائها دورًا لائقًا مع الرجل بمساواة تامة واصفًا إياها: «المرأة هي الأم المرأة هي الزوج والمرأة هي الأخت والمرأة هي الابنة المرأة هي كل هؤلاء».

لقد كفل الدستور الدائم للجمهورية العربية السورية للمرأة كل حقوقها التي حرمت منها عقودًا طويلة من الزمن ونصت المادة «٤٥» من الدستور: «تكفل الدولة للمرأة جميع الفرص التي تتيح لها المساهمة الفعلية والكاملة في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية وتعمل على إزالة القيود التي تمنع تطورها ومشاركتها في بناء المجتمع العربي الاشتراكي».

وقبل قيام الحركة التصحيحية لم تكن المرأة لتدخل المدرسة بأعداد كبيرة، بل غالبًا ماكان يقتصر ذلك على بعض الفتيات. فالمرأة في سورية غدت مثالاً يحتذى به في مستوى التعليم، فدخلت الجامعات على مختلف اختصاصاتها وفروعها: من طب وهندسة وغيرهما وتكفي نظرة واحدة إلى ساحاتنا بعد الحركة التصحيحية المباركة لكي نرى أن أعداد الأديبات اللواتي ظهرن على الساحة قد تضاعف عشرات المرات.

المرأة والعمل:

ومن المعروف إن معظم دول العالم لاتعطي المرأة أجرًا مساويًا لأجر الرجل، لكن سورية التصحيح حققت ذلك وحققت للمرأة العاملة الكثير من المزايا والمكاسب فقد نظم قانون العاملين الأساسي في العام ١٩٨٥ إجازة أمومة لمدة شهرين ونصف كاملة الأجر إضافة إلى شهر آخر بحسم ٢٠٪ وشهر آخر بدون راتب كما تمنح للمرأة العاملة إجازة ساعة لإرضاع طفلها.

التعددية الاقتصادية تجسيد المضمون الوطني الديمقراطي للتنمية الشاملة:

كانت توجيهات القائد الخالد في التعددية الاقتصادية تتضمن الاعتماد على القطاعات الثلاثة العام والخاص والمشترك وتحديد مسؤولية الدولة في تحقيق التنمية وإبراز دور المواطن ومسؤوليته في عملية البناء وضرورة السعي للحفاظ على أمنه واستقراره وتأمين ظروف العيش الكريم له والعمل على تهيئة الظروف المناسبة للأجيال القادمة.

بانـي سورية الحديثة

ومنذ أن أشـرق التصـحـيـح على سـورية أقـر التـعـددية الاقـتـصـادية وفي خطابه الذي ألقـاه في ٢٢ شـبـاط ١٩٧١ أعلن الرئيس الخـالد أن هذا الإقـرار جـاء لاعـتـبـارات وطنيـة: «فـإقـرارنا للتـعـددية الاقـتـصـادية جـاء لاعـتـبـارات وطنيـة لأن البلاد يجب أن تكون ورشةعمل كبيرة كلنا يعـمل في هذه الورشـة وفـقـًا لإمكاناته وطاقاته».

لقد تم تقديم الدعم والتسهيلات لإنجاح نهج التعددية الاقتصادية فصدر قـانون الاسـتـثـمـار رقم /١٠/ الذي أتاح مناخًا اسـتـثـمـاريًا مـدعـمًا بالاسـتـقـرار السياسي والديمقراطي والأمني واحـتـرام حـقـوق الملكيـة وتوفـيـر الأيدي العـاملة والسـيـاسـة السـعـرية الملائمـة والمزايا الضريبية والإعفاءات الجمركية وتسهيل المعاملات وحرية الانتقال.

وجـاء بيـان الحكومـة الذي صـدر بتاريخ ١٩٩٢/١/١٨. «الوطن ملك للجميع ويحتاج إلى جهود أبنائه جميعًا وإن سورية بما تنعم به من وحـدة وطنيـة واسـتـقـرار سـيـاسـي ونظام ديمقـراطي قـائم على التـعـددية السـيـاسـيـة والاقـتـصـادية توفـر لشعبها المعطيات الاقتصادية التي تتيح المجال لكل إنسان منتج أن يشارك ويساهم ويبني هذا الوطن.

ولأن الديمقـراطية في سورية ليست على غـرار الديمقـراطيـات الغـربيـة نظامًا وشكلاً سـيـاسـيًا فحسب، بل هي ممارسة سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية تستهدف إقامة مجتمع الحرية والرفاه فإننا سنستعرض بشيء من العجالة تطور المجتمع السوري إبان عهد التصحيح تاركين الأرقام تتكلم لوحدها في بعض الأحيان.

النهوض الصناعي: شـهـد قطاع الصناعـة منذ قيام الحركة التصحيحية المباركة التي قادها الرئيس الخالد حافظ الأسـد ١٩٧٠ تطورًا كـمـيًا ونوعـيًا تمثل بانـتـشـار المعـامل والشـركـات في كل المحافظات لتغطي مساحة الوطن بأكملها وتزايد إنتاج هذا القطاع وارتفعت نسبة مـسـاهمـتـه في الدخل والناتج الوطني مما يعني تزايد إنتاجية عماله وتمكن من خلال عمل دؤوب ومجموعة من الإجراءات التي تم اتخـــاذهـا من التـــغـلب على بعض الصعوبات التي تعرّض لها هذا القطاع في بعض الفترات وإذا استعرضنا قيمة الإنتاج الصناعي لبـعـض الأعـوام بدءًا من عـام ١٩٧٠ وحتى الآن نلاحظ أن قيـمـة الإنتاج العـملي الإجمـالي لقطاع الصناعـة آخذة بتطور مستمر بل متزايد، مما يؤكد على أن المؤسسات الصناعية والشركات المنتجة قد حققت ومـا زالت تحقق نتائج إيجـابيـة في مجال تحسين الإنتاج.

النهوض الاقتصادي والاجتماعي في الريف السوري:

لقد شهدت البيئة الاقتصادية في الريف السوري تحولات كبيرة منذ ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣ وتصاعدت وتائرها في ظل الحركة التصحيحية بقيادة الرئيس الخالد حافظ الأسد فأدت إلى نهوض عارم في مستوى الحياة في الريف على أساس تطوير القاعدة المادية للإنتاج الزراعي ومعتمدة على تغيير أشكال ملكية الأراضي الزراعية وعلاقات الاستثمار الزراعي والبحوث العلمية وتوفير مشاريع الري وتوسيع استخدامات المكننة الزراعية وكهربة الريف وتقديم الخدمات الصحية ومحو أمية المرأة الريفية وتطبيق التعليم الإلزامي وزيادة عدد المدارس.

وقد كان لقيام اتحاد الفلاحين والمنظمات النقابية والتعاونية إضافة إلى مراكز التنمية الريفية والإرشاد الزراعي دور أساسي في توعية جماهير الفلاحين والحفاظ على مصالحهم وحقوقهم على مدى سنوات الحركة التصحيحة. كل ذلك أدى إلى نهوض الريف السوري خلال مدّة قياسية إذا قورنت بالإمكانات الموظفة وبالحالة التي كانت سائدة وبعلاقات الإنتاج الزراعي المتخلفة السابقة، وعلى صعيد التنمية الريفية قامت وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل بتحقيق تنمية متوازنة شملت كافة مناحي الخدمات الاجتماعية وساهمت في القضاء على البطالة في الريف نتيجة تشغيل عدد كبير من الأيدي العاملة واستغلال أوقات الفراغ لدى الريفيين في عمل منتج يحقق فوائد اجتماعية واقتصادية.

وعلى سبيل المثال فالوحدات الإرشادية للصناعات الريفية بلغ عددها مؤخراً نحو ٢٠٠ وحدة تعمل فيها حوالي ٤٠٠٠ فتاة ريفية وكان قد وصل إنتاج هذه الوحدات إلى نحو (٣٨٦٠٠) ألف م٢ من السجاد (١٥) ألف م٢ و (٣٨) الف كغ من صنف التريكو.

ويمكن القول دون مبالغة إن التعددية الاقتصادية قد نجحت بالفعل في تحقيق الكثير من أهدافها فقد حققت لسورية مجالات واسعة في بناء الاقتصاد الوطني وتحصين هذا الاقتصاد من الهزات والمفاجآت التي تتولد نتيجة تسارع الأحداث على الساحة العالمية. إن الصورة التي تتحرك في إطارها سورية تدعونا إلى التفاؤل في مستقبل تغيب فيه كل أشكال الأزمات والمعاناة.

خدمات جماعية واجتماعية في كل مكان:

حظي قطاع الخدمات بميزة نسبية من الخطط الخمسية والسنوية المتعاقبة بعد صدور قانون الإدارة المحلية رقم /١٥/

وتعديلاته ١٩٧١ والذي كان أحد أبرز منجزات الحركة التصحيحية التي قادها الخالد حافظ الأسد. إن اهتمام الدولة بهذا القطاع كان لا يزال يفرض تحسين مستوى الحياة في الريف والحضر على السواء وتقريب الفوارق الخدماتية فيما بينها والمساعدة في توطين سكان الريف في مناطق سكنهم والحد من هجرتهم إلى المدن الرئيسة. وتوجيههم نحو العمل في قطاع الزراعة والري، الذي منح التسهيلات والإجراءات بما يشجع جميع المواطنين للعمل في هذا القطاع وبالتالي زيادة الإنتاج الزراعي والحيواني، الذي ينعكس بفوائده الكثيرة على عموم السكان من حيث توفر الغذاء اللازم وتأمين الاستقرار الاقتصادي والسياسي بآن واحد.

ديمقراطية التعليم:

أولت الحركة التصحيحية المجيدة في إطار التنمية الشاملة اهتماماً كبيراً للعملية التربوية بعدّها الأداة الفاعلة في عملية بناء التقدم الاقتصادي والاجتماعي في قطرنا ولا سيما في عصرنا الراهن الذي يتسم باتساع نسبة المعرفة والثورة التكنولوجية المتسارعة مما يستدعي إيجاد الصيغ التربوية المتطورة القادرة على مواكبة المستجدات العلمية والتربوية والتفاعل معها وتوجيهها لخدمة أهداف التنمية الشاملة.

وكان أبرز ما يلفت الانتباه في المراحل المتعاقبة من عام ١٩٦٣ وحتى عام ١٩٩٥ ما تضمنته الخطط الخمسية بدءاً من الخطة الخمسية الرابعة وحتى الخطة الخمسية السابعة من مؤشرات أساسية انطلقت من استراتيجية عامة حتى عام ٢٠٠٠ متضمنة الأهداف التالية:

١- القضاء على الأمية ومكافحة الجهل.

٢- إلزامية التعليم في المرحلة الأولى منه.

٣- مجانية التعليم في كل مراحله.

٤- تطوير البيئة التعليمية لتلبي متطلبات التنمية.

وهكذا أصبح التعليم حقّاً بل واجباً توفره الدولة لجميع المواطنين.

لذلك تعمل وزارة التربية لتحقيق ديمقراطية التعليم وتكافؤ الفرص لأبناء القطر كافة وتطوير مضامين العملية التربوية باتجاه تحديثها وتوجيهها وتوظيفها للإسهام في عملية البناء الاقتصادي والاجتماعي لقطرنا مسترشدة في مسيرتها بقول السيد الرئيس الخالد حافظ الأسد.

« إن تطور التعليم ورفع مستواه يبقى قاصراً عن غايته إذا لم يقترن بجهد منظم لاستثمار نتائج العلم في الوقت

المناسب ووضعه في خدمة السياسة الاقتصادية والدفاع وسائر مجالات الحياة»..

بعدما مررنا بشكل سريع على بعض المنجزات الديمقراطية التي جاءت بها الحركة التصحيحية المباركة حيث كان هذا المحور من أهم القضايا التي تشغل بال القائد الإنسان حافظ الأسد، وكان يدرك بنفس الوقت ألا حرية ولا ديمقراطية مع الاستعمار والاحتلال، لذلك سار بمحور مساير لمحور الديمقراطية ألا وهو محور النضال في وجه الصهيونية والرجعية على الساحة العربية. سوف نلقي الضوء بشكل سريع كي لا نبخس هذا البحث حقه.

الحركة التصحيحية: كل شيء من أجل فلسطين:

لاحظ كل المراقبين أن حافظ الأسد لا يكاد يدلي بحديث أو يلقي بخطاب أو حتى كلمة ترحيب إلا ويكون للقضية الفلسطينية فيها نصيب.

وأكد قائد الحركة التصحيحية على الدوام: «إن قضية فلسطين هي قضيتنا المقدسة، ضحت من أجلها الأمة العربية بأغلى أبنائها فهي محور نضالنا، ولن نقبل بحال من الأحوال أن نساوم عليها، ولن نسمح لأحد أن يساوم عليها»..

وحددت الحركة التصحيحية أولويات النضال العربي وكان لفلسطين موقع الصدارة بين هذه الأولويات:

١- إن قضية فلسطين هي قضية الأمة العربية والهدف المرحلي هو تحرير الأرض واستعادة الحقوق الوطنية الثابتة للشعب العربي الفلسطيني.

٢- إن العدو الصهيوني هو العدو الرئيس للأمة العربية.

٣- الوحدة العربية هي الهدف الاستراتيجي الكبير لكل العرب.

٤- العمل على زج الطاقات العربية السياسية والعسكرية والاقتصادية في ساحة الصراع مع العدو.

٥- توثيق العلاقات مع مصر كونها شريكاً مباشراً في الحرب ضد العدو.

٦- السعي الدائم لجر العراق إلى ساحة المواجهة مع العدو الصهيوني.

٧- تكوين جبهة عربية تحيط بالعدو من سيناء إلى رأس الناقورة وحتى خليج العقبة.

٨- الاستفادة من التناقض بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي بما يخدم مصالح صراعنا مع العدو الصهيوني.

٩- النظر إلى نضالنا ضد العدو الصهيوني على أنه جزء من النضال العالمي

الذي تخوضه القوى الوطنية، والثورية ضد الاستعمار والإمبريالية.

وعبر السيد الرئيس الخالد عن عمق معرفته بطبيعة التحالف الاستراتيجي بين إسرائيل والإمبريالية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية عندما قال:

«إذا كانت أداة التنفيذ هي القاعدة الصهيونية إسرائيل التي زرعها الاستعمار في قلب وطننا العربي كي يستخدمها في ضرب حركة التقدم في الوطن العربي، فإن التدبير للعدوان كان في كبرى عواصم الإمبريالية العالمية».

«واليوم تستخدم الصهيونية أكبر دولة إمبريالية لتغطية ارتكازها، وتقوم إسرائيل بدور التبعية في التطبيق اليومي للصهيونية». وبناء على هذا الفهم فقد عمل الرئيس الخالد على تمتين التحالف بين حركة التحرر العربية ونظمها وقواها الوطنية والتقدمية مع حركات التحرر في العالم.

الأسد الخالد يحضر للمواجهة مع العدو:

وعلى ضـــوء هذه الأولويات، راح الأسد الخالد يعمل على توفير مقومات الانتصار لقضية العرب الكبرى، وهي القضية الفلسطينية على جميع الصعد:

١ - على الصعيد السوري:

- العمل على تطوير الاقتصاد والإنتاج كمًا ونوعًا وتسخيره لخدمة المعركة وتلبية متطلبات المقاومة والتحرير: «كل طريق آخر غير طريق البناء الشامل الذي يحقق القوة الشاملة هو هزيل الجدوى، غالبًا عديمها في صراعنا مع الغزو الصهيوني».

- تطوير القدرة العسكرية والجاهزية القتالية تحت شعار التوازن الاستراتيجي «إن قواتنا المسلحة الملتزمة بقضية الشعب والتي تقف دومًا على أتم الاستعداد قد قطعت عهدًا للشعب أن تقاتل دومًا بشرف ورجولة وأن تواصل التدريب الشاق واستيعاب السلاح الجديد لتزداد به منعه وقدرة على القيام بالمهمات الملقاة على عاتقها وقد أقسمت أن تكون الحارس الأمين الشجاع لأرض الوطن ومنجزات الشعب ومكاسب الجماهير».

- نشر الوعي الوطني والقومي. والعمل على تنمية روح التضحية والفداء والشهادة: «الشهداء أكرم من في الدنيا وأنبل بني البشر».

- بناء الجبهة الداخلية: كل الشعب منظم فلا يمكن كسب المعركة إلا بالتنظيم فظهرت المنظمات الشعبية لمختلف الفئات: النقابات - الاتحادات - الجمعيات - مجلس الشعب - الجبهة الوطنية التقدمية.

«إن مهمة تحرير الأرض العربية المحتلة واستعادة حقوق الشعب العربي الفلسطيني، هذه هي المهمة التي تملي علينا أعمالنا كافة إلى الأبد».

- على الصعيد الفلسطيني:

- مساعدة المقاومة بالأشكال كافة وعدّ منظمة التحرير الفلطينية ممثلاً شرعيًا وحيدًا لشعب فلسطين: «نحن إلى جانب الثورة الفلطسينية ندعمها مهما غلت التضحيات».

- توحيد الفصائل الفلسطينية كافة من خلال إلغاء الصراعات الثانوية بين هذه الفصائل وتنقية الأجواء بينها وبين الأقطار العربية.

- التركيز على قضية فلسطين وجعلها محورًا للنضال العربي.

- رفض المشاريع التصفوية.

- على الصعيد القومي:

تجاوز الصراعات الهامشية بين الأشقاء العرب وطرح شعار «التضامن العربي». على قاعدة الكفاح السياسي المسلح بهدف التحرير.

واتخاذ أية خطوات وحدوية ممكنة مع أقطار العرب خصوصًا مع النظم التقدمية والثورية

تبقى قضية فلسطين مركز نضال العرب الأمر الذي يتطلب حشد كل القوى والإمكانات في سبيل التحرير «سنعمل دائمًا لتضامن عربي مبنيّ على أساس النضال ضد الإمبريالية والصهيونية ولا نوافق على تضامن عربي يضعنا تحت المظلة الأمريكية ولخدمة عدونا إسرائيل.» وضع استراتيجية قريبة المدى بمشاركة سائر الأقطار العربية تتضمن تحرير الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ وعودة الفلسطينين إلى ديارهم واستعادة حقوقهم وفي مقدمتها إقامة دولة مستقلة على أرضهم «لن يهنأ العيش ولن يهدأ البال ولن نستكين حتى نزيل الظلم ونقضي على العدوان وتعود إلى أصحاب الأرض والحقوق أرضهم وحقوقهم واثقين من أن النصر سيتحقق ما دمنا مستعدين للتضحية والشهادة محاطين بمؤازرة أمتنا في الوطن العربي الكبير ومساندة ودعم قوى التقدم في سائر أنحاء العالم».

- على الصعيد الدولي: راح الأسد يعمل على إيجاد أوسع التفاف دولي ممكن حول موقف سورية وقبل كل شيء عمل على تطوير أواصر الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية الأخرى بغية تحقيق التوازن الاستراتيجي مع العدو الصهيوني وحليفته أمريكا مؤكدًا على شعار «ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة».

وسعى القائد الخالد إلى تعزيز الوحدة الكفاحية بين بلادنا وحركات

بانـي سورية الحديثة

التحرر العالمية. كافة نخوض وإياها معركة مشتركة ضد الإمبريالية والصهيونية والعنصرية.

- حرب تشرين التحريرية:

وعندما وفّر الأسد كل مستلزمات النجاح لحرب تحريرية كانت حرب تشرين التي دخلت التاريخ كأول حرب حقيقية تخوضها جيوش عربية نظاميّة بعد موقعة حطين. أفرزت حرب تشرين الكثير من النتائج الإيجابية لصالح الصراع العربي ضد الصهيونية وإسرائيل وفي مقدمتها: أثبتت أن العرب قادرون على استخدام أكثر أنواع السلاح تطوراً وأنهم قادرون إذا توفرت الظروف الملائمة على إلحاق الهزيمة بإسرائيل. وتمزقت شر ممزق وإلى الأبد أسطورة إسرائيل لا تقهر.

وعندما وصلت الصواريخ والقذائف إلى أطراف إسرائيل كافة وعندما دخلت الجثث إلى كل مدنها وأحيائها وقراها أثبتت هذه الحرب أن إسرائيل عاجزة عن حماية نفسها وخاصة عندما قضي قضاءً مبرماً على سلاح الطيران الذي كان العماد الأساسي لجيش العدو.

وعزلت اسرائيل عالميًا بينما كسبت قضية فلسطين بعدًا وتأييدًا عالميين كانا قبل حرب تشرين حلمًا من الأحلام، ودخلت منظمة التحرير الفلسطينية مختلف المؤسسات الدولية من أوسع الأبواب كممثل شرعي وحيد لشعب فلسطين.

سورية الأسد تطوق أحداث لبنان

وجاءت أحداث لبنان المأساوية وكان مطلوبًا منها أن تحقق بالإضافة إلى تمزيق وحدة لبنان وإشغاله عن قضايا العرب القومية ووقوفه في وجه الأطماع الصهيونية وتهيئته للاستسلام كخطوة على طريق استسلام كل العرب للمشاريع الصهيونية الإمبريالية، وبالإضافة لكل هذا فقد كان مطلوبًا من أحداث لبنان أن تمارس الدور السلبي نفسه الذي لعبته الحرب العراقية الإيرانية على القضية الفلسطينية وتحويل الاهتمام العالمي عن قضية فلسطين وشق المقاومة وتفتت وحدة القوى الفلسطينية وتهميش قضية فلسطين وزج سورية في أتونها واستهلاك قواها في هذه الأحداث، والإيقاع بينها وبين فصائل المقاومة الفلسطينية والقوى الوطنية اللبنانية بغية تصفية هذه القوى الثلاث.

فماذا كان موقف سورية الأسد؟ لقد تحركت سورية سريعًا لمواجهة الموقف المعقد وفضحت أبعاد المؤامرة على أنها بفعل مخططات إمبريالية صهيونية تسير في فلكها الرجعية العربية واللبنانية، وبذلت سورية جهودًا كبيرة من أجل تنبيه العرب إلى مخاطر ما يجري على الساحة اللبنانية، وإلى ضرورة إحباط المخططات المعادية.

إن شعبنا ذا التاريخ العريق والماضي الكفاحي المشهود لايمنح عواطفه لأيٍّ كان وكيفما كان، إن شعبنا لايهب عواطفه إلا عن وعي ومعرفة فلا ينالها إلا من هو جدير بها.

إن شعبنا الوطني إلى أبعد الحدود، والقومي الذي يحمل على عاتقه كل هموم العرب وتطلعاتهم. إن شعبنا الذي يكره الظلم والاستغلال ويعشق الاستقلال والحرية والسلام المشرف، إن شعبنا أحب حافظ الأسد لأنه أفنى أجمل سني عمره في خدمة وطنه وأمته. رحمة الله على روحه المقدسة. و أمضى عمره مناضلاً في سبيل أماني وتطلعات شعبنا الاجتماعية والوطنية والقومية التي لايتنازل هذا الشعب عنها قيد أنملة.

إنه باني سورية الحديثة

إن بناء سورية الحديثة في عهد السيد الرئيس الخالد لم يكن مجرد كلام بل كان وثبة نوعية في مناطق القطر كافة، كان يلزمنا قرون لبنائه في ظروف أخرى. ولمست الجماهير هذا العطاء المتميز في كل مكان على شكل مستشفيات ومعامل ومصانع وسدود وإصلاح زراعي ومواصلات ومدارس ومعاهد وجامعات... إلخ، وكل هذا آخذ بالازدياد ويومًا بعد يوم في عهد المفدى: الدكتور بشار الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية.

لقد بات شعب سورية في عهد الرئيس الخالد حافظ الأسد سيدًا حقيقيًا للبلاد بأرضها وبحرها وسمائها، وبات ينعم بديمقراطية واسعة ناضل من أجلها طويلاً. لاعلم دون ديمقراطية، ولاسياسة دون ديمقراطية ولاشيء يمكن أن يكون صالحًا للحياة دون الديمقراطية، والديمقراطية هنا تعني المشاركة في اتخاذ القرار.

لقد جعل الديمقراطية واسعة بمساحة الوطن: «إن بناء الوطن هو مسؤولية الجميع وإن حماية الوطن مسؤولية الجميع وإن خير الوطن للجميع. وأصبح الحزب ملكًا للشعب وتحقق الاستقرار السياسي في البلاد وظهر مجلس الشعب وتوحدت لأول مرة في سورية الأحزاب الوطنية والتقدمية في جبهة واحدة وتهيأ الشعب لإقامة تنظيماته الشعبية التي تحقق مشاركتها العملية في حياة البلاد.

نلاحظ كيف يفعل السلوك المثالي التاريخي في مواطنيه فعل السحر إنه ليشيع فيهم الثقة بالنفس والاطمئنان إلى بلوغ الهدف فيشد من عزائمهم ويزيد من تلاحمهم خلفه، هم يحتاجون إلى قيادته للوصول إلى أهدافهم الكبرى وهو يحتاج إلى طاقتهم الخلاقة لنفس الغرض، والتاريخ غني بالأمثلة.

فالناس لم تسر وراء محمد (ص) لمجرد أنه دعاهم لعبادة الإله الأوحد. لقد سار الناس وراء محمد (ص) المبدئي الذي رفض التنازل عن عقيدته حتى ولو وضعوا «الشمس في يمينه والقمر في يساره» لقد منح الناس ثقتهم للرسول (ص) لأنه ضرب أروع الأمثلة في الانسجام مابين تعاليمه وسلوكه، وتحول حب المسلمين لرسولهم إلى طاقة جبارة نجم عنها أعظم امبراطورية في العصر الوسيط، ومثلما لايمكن تصور السيرة الكبرى لملايين الصينيين واحتضان مئات الملايين من فلاحي الصين لهذه المسيرة، بدون قيادة ماوتسي تونغ وتعاليمه، ومثلما لايمكن تصور الثورة الكوبية العجيبة على حدود زعيمة الامبريالية العالمية، بدون قيادة وفكر غيفارا وكاسترو. ولاثورة فييتنام وانتصار شعبها البطل على أقوى الدول الامبريالية ثم توحيد بلاده بدون قيادة هوشي منه وفكره.

ولولا فكر الإمام الخميني وقيادته ماكانت الجماهير أسقطت الشاه ورسخت نظام الجمهورية الإسلامية في إيران.

مثلما لايمكن تصور تلك اللقاءات العظيمة بين حركة الجماهير والقادة الاستثنائيين في العالم. كذلك لايمكن تصور تحركٍ عربيٍّ ناجحٍ لاستعادة الحقوق بدون قيادة وفكر حافظ الأسد.

إن الجماهير العربية إذ تنظر إلى البنيان الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والفكري الذي يرتفع في سورية يومًا بعد يوم بفضل قيادة الأسد فتتصور ماذا سيفعل (الأسد) لو وضعت بين يديه إمكانات العرب ومقاديرهم، الأمر الذي يجعلنا نؤكد بملء الثقة بأن القائد الأسد لم يحُز على ثقة جماهير سورية العربية فحسب، وإنما كان سينال نفس الاجماع على شخصه فيما لو رشح للقيادة في أي من أقطار العروبة، ولا غرابة في ذلك لأن القائد الأسد هو في المحصلة تجسيد للأهداف والأماني القومية.

لقد أجمعت عليه الجماهير لأنه بمواصفاته الفذة يجسد التطلع التاريخي للجماهير العربية إلى قائد يسير بها نحو أهدافها الكبرى وبأعمق ما يمكن من الثقة والصدق والأمانة، ولذلك توحدت في شخصيته مشاعر العرب ومشاعر الجماهير، ولايمكن، مهما كثر الكلام، عن هذه الشخصية الفريدة التي استطاعت بحق أن تكون شخصية كل القرون، المدركة للواقع وتعرف كيف تتصرف في أحلك الظروف ولاينسى التاريخ بطوله وعرضه الخالد العظيم حافظ الأسد. في مرحلة تاريخية مصيرية، استطاع أن يؤالف بين الجميع لمصلحة الهدف الأكبر، ولأن هذا ما كان يشغله ويقلقه منذ شبابه هناك شيئان شغلا بال هذا المعلم الشجاع هما الاستعمار والصهيونية وربيبتها إسرائيل

باني سورية الحديثة

بكل أبعادها وثانيًا الديمقراطية بكل جوانبها، لكونهما يهمان المواطن العربي ولاحظنا من خلال ماتقدم جزءًا بسيطًا من فكره الذي لا يمكن الإحاطة به، ومن هنا جاء شعارنا الدائم (قائدنا إلى الأبد) بفكره وخطاه على طريق النصر، وإن ماقدمه (قائدنا الخالد في هذا الزمن الصعب، نجله العربي بأصالته وفروسيته المتميزة لما يملكه من صفات قلَّ مثيلها فكرًا وسلوكًا، فشخصيته مشبعة بالوطنية والقومية مع إرادة صادقة وحازمة لاتساوم كأبيه، لذلك نرى الجماهير العربية عامة والسورية خاصة بايعت هذا القائد على أن يبقى الأقدر على الحفاظ على تراث الوطن وأرث قائده الأمين الخالد، وما سار عليه قائدنا المفدى عبر مسيرة التطور والتحديث في المجالات كافة، إننا مازلنا نعيش عصر حافظ الأسد القائد الذي لايموت لأن أفكاره باقية في عقولنا وأعمالنا فسلام الله عليه يوم ولد، ويوم يخلد.

المراجع

- الحق العربي والاثافي الثلاث. د. نجدة زريقة.
- الديمقراطية قصة لم تكتمل فصولها بعد. د. نجدة زريقة.
- حافظ الأسد قيم فكرية وإنسانية: د. إسكندر لوقا.
- الديمقراطية عند العرب: إبراهيم حداد.
- الديمقراطية في فكر حافظ الأسد: د. فايز عز الدين.
- حافظ الأسد القيادة والتاريخ: د. جورج عبد الملك.
- حافظ الأسد الدولة والديمقراطية الشعبية د. هاني خليل.
- الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي. مركز دراسات الوحدة العربية.
- حافظ الأسد وعالمه الرحب. صفوان قدسي.

ما قاله قادة وزعماء العالم في القائد الخالد

* الرئيس الأسد زعيم كبير يناضل من أجل الأمة العربية.

محمود رياض، أمين عام الجامعة العربية ١٩٧٤/٥/١٠

* أعبِّر عن إعجابي الشديد بجهود الرئيس حافظ الأسد في سبيل تحقيق السلام.

ريتشارد نيكسون. رئيس الولايات المتحدة ١٩٧٤/٦/١٦

* الأسد شخصية قوية دوليّاً، وله سمعة عظيمة.

الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان ١٩٧٦/٣/١٣

* إنني لا أملك إلا أن أشيد بجهود الرئيس حافظ الأسد لحل الأزمة اللبنانية.

د. كورت فالدهايم. أمين عام الأمم المتحدة ١٩٧٦/٣/٢٦

قادة وزعماء العالم قالوا في الراحل العظيم حافظ الأسد

❖ الأسد هو من أوائل القادة في العالم، وسورية لعبت دورًا في بناء الشرق الأوسط.

سايروس فانس، وزير خارجية الولايات المتحدة ١٩٧٧/٢/١٤

❖ الأسد شخصية قوية ويعمل من أجل خلق الظروف نحو السلام.

أرنالد فورلاني، وزير خارجية إيطاليا ١٩٧٧/٣/١٥

❖ دروس العروبة التي تلقيتها في سورية جندتني لخدمة القضية الفلسطينية، سورية دور ورسالة في واقع الوجود العربي.

المطران كبوشي ١٩٧٩/١/٢٠

❖ مواقف سورية نضالية وفذة، والرئيس الأسد يقود هذه المواقف بشجاعة ودراية دقيقة بالسياسة الدولية.

فوتيا شيك، وزير خارجية بولونيا ١٩٧٩/١٠/٢٧

❖ سورية بقيادة الرئيس الأسد تحمل العبء الثقيل من الكفاح والصمود، جئنا نتعلم الصمود والنضال من سورية.

الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد ١٩٨٠/٢/٢٣

❖ شعبنا يكن للرئيس الأسد مشاعر الاحترام الخالص، ويعتبره مناضلاً عربيًا بارزًا، إننا نقدر عاليًا دور الرئيس الأسد.

الرئيس البلغاري تيودور جيفكوف

❖ حافظ الأسد بطل وحدوي صامد جاء من شعب يعشق الوحدة ويضحي من أجلها.

العقيد معمر القذافي ١٩٨٠/٩/٨

❖ نتمنى لو يسلك كل العرب والمسلمين طريق الحق والصواب الذي سلكه ويسلكه الرئيس حافظ الأسد.

حجة الإسلام هاشمي رفسنجاني،

رئيس مجلس الشورى الإسلامي بإيران ١٩٨٠/١١/٩

❖ الرئيس الأسد يتحلى بصفات الزعيم الذي يستطيع أن يكون صاحب قرار مستقل.

كريستوف فان دير كلاو، وزير خارجية هولندة ١٩٨١/٢/٢٢

❖ إننا نقف مع نضال سورية العادل، ونؤيد كل التأييد سياسة الرئيس الأسد في تصديه للإمبريالية العالمية.

فيدل كاسترو، رئيس كوبا ١٩٨١/٤/٢٢

❖ إننا نقف مع سورية، ونثق بقدرتها على مواجهة العدوان ودحره بقيادة الرئيس حافظ الأسد وشجاعته.

د. علي أكبر ولايتي، وزير خارجية إيران ١٩٨٢/٢/١٧

❖ سورية تؤلف جبهة مواجهة صلبة، ضد الاستفزازات الصهيونية بقيادة الرئيس الأسد.

علي ناصر محمد ١٩٨٣/٥/٤

قادة وزعماء العالم قالوا في الراحل العظيم حافظ الأسد

❖ الوفاق لا يتحقق بلبنان إلا بتقدير وزن الرئيس الأسد والتعاون مع سورية.

مارغريت تاتشر. رئيسة وزراء بريطانيا ١٩٨٣/١٢/٨

❖ الرئيس حافظ الأسد قائد وطني فذ جدير بكل الاحترام والتقدير.

القس جيسي جاكسون.

رئيس مجلس الدفاع عن الحقوق المدنية في أمريكا ١٩٨٤/١/٢

❖ أشعر بتقدير كبير للشعب السوري وللرئيس حافظ الأسد.

الرئيس المصري حسني مبارك ١٩٨٤/٢/١٦

❖ وجدت دائمًا لدى الرئيس حافظ الأسد إرادة قوية للتصدي للعدوان الصهيوني.

الأمير عبد الله بن عبد العزيز

ولي عهد السعودية ١٩٨٤/٢/٢٥

❖ لا حل في الشرق الأوسط من دون الاعتراف بوزن الرئيس الأسد ودور بلاده الجوهري.

جيمي كارتر. رئيس أمريكا الأسبق ١٩٨٤/٢/٢٦

❖ الرئيس حافظ الأسد ذكي ونشيط وحريص على استقلال بلاده.

جيمي كارتر. الرئيس الأمريكي الأسبق ١٩٨٤/٣/١٤

❖ الرئيس الأسد رجل متأن، يحسب الأمور بدقة، وإني أكنّ له احترامًا كبيرًا.

د. هنري كيسنجر. وزير خارجية امريكا الأسبق ١٩٨٤/٣/١٨

❖ دور سورية أساسي وهام في المنطقة، بقيادة رئيسها الشجاع البارز الرئيس حافظ الأسد.

كلود شيسون. وزير خارجية فرنسا ١٩٨٤/٧/١٢

❖ القائد العظيم حافظ الأسد يحتل مكانة دولية بارزة.

ستيفان أولشوفسكي. وزير خارجية بولونيا ١٩٨٤/٨/٢٠

❖ شعبنا ينظر بإكبار إلى دور سورية وقائدها الرئيس حافظ الأسد، أحد عظماء القادة في العالم.

أندريس باباندريو. رئيس وزراء اليونان ١٩٨٤/١١/٩

❖ نقدّر عاليا حكمة الرئيس الأسد وتجربته الرائدة ودوره البطولي بتصديه للعدو الإسرائيلي.

رئيس الجمهورية العربية اليمنية

علي عبد الله صالح ١٩٨٤/١٢/٢٢.

❖ الرئيس الأسد رجل وطني

قادة وزعماء العالم قالوا في الراحل العظيم حافظ الأسد

وصانع قرار، ويشعر بالعزة في الوطن العربي.

جوزيف سيسكو.

مساعد وزير الخارجية الأمريكية السابق ١٩٨٥/١/١٣

❖ لقد جعل الرئيس حافظ الأسد من سورية حصنًا تتكسر أمامه سهام المعتدي والغاصب والمغتصب.

البطريرك اغناطيوس هزيم

❖ إننا دائمًا قدّرنا وسنقدر دور سورية الراسخ وواقعية الرئيس حافظ الأسد.

ليونيد بريجينيف الرئيس السوفييتي الراحل

❖ الرئيس الأسد رجل واضح وصريح.

بروتوكرايسكي مستشار النمسا السابق

❖ بقيادة الرئيس الأسد، حققت سورية الاستقلال السياسي وتقدمًا رائعًا في كل المجالات.

راجيف غاندي.

❖ شخصية الرئيس الأسد تلعب دورًا كبيرًا في العالم لا يمكن التوصل إلى حل دائم وإحلال السلام من دون سورية.

الرئيس الفرنسي السابق فرنسوا ميتران.

حافظ الأسد
قائداً ومفكّراً استراتيجيّاً

جابر إبراهيم سلمان(*)

المقدّمة:

عندما يحمل القائدُ همومَ الأمة، ويناضل عن حقوقها، ويعيش حالات تعثُّرها ولحظات توثُّبها، ويؤسِّس رؤاه في ضوء التجربة الذاتية، وعلى خلفية ما عايشه ...عندها يصبح مشروعاً استراتيجيّاً يشار إليه بالبنان، ويتحوّل إلى نموذج قياديٍّ يمارسُ التجربة النضالية فعلاً يوميّاً، يُعمّق الانتماء إلى الجذور، ويُضفي على الواقع مسْحَةً جديدةً هي خلاصة تجارب مكثّفة، نسيجها الجِدُّ والمثابرة، ومجاهدة النفس (الأنا) في سبيل النهوض بالجماعة الـ (نحن) التي ينتمي إليها القائد الأنموذج...

(*) باحث من سورية دكتوراه في الاعلام والصحافة، عضو اتحاد الكتّاب العرب، من أعماله المنشورة: شذى الرياض، مواويل البركان، في موسم الحصاد.

واستنادًا إلى ذلك فإن «القيادة قضيةٌ ونضالٌ وجماهيرُ ومواقف»[١]، وعبقرية القيادة وحدَه القائد التاريخيُّ الأنموذج يمتلكها، لأنّه الأقدر على فكِّ رموزها وتحليلها أو على تمثّلها وترجمتها، فهو «الظاهرة الاستثناء» التي ماتزال تَشْغَلُ المفكرين والعلماء، ولعل السبب في ذلك يَرْجِع إلى أنّ الظاهرة «لاتخضع للقوانين التقليدية في (الفهم)»[٢].

والقائد الخالد حافظ الأسد بما امتلكه من تجربة نضالية غنية رَفَدت الفكر النضاليَّ العربيَّ، وأمدّته بنسغ الحياة، وأحيتْ فيه روح التوثُّب والانطلاق ...هذا القائد اجتمعت له من صفات القيادة النادرة ماجَعَل منه قائدًا تاريخيًا استثنائيًا، عـرفَ كيف يقود الأزمات، ويحقّق الانتصارات، يدْفعه إلى ذلك حُبٌّ صادقٌ لرسالة الأمّة الخالدة التي آمن بها، وناضَلَ منْ أجلها، وخاضَ غمارَ مواجهة قوى الشرِّ والبغي والعدوان في سبيلها ...إنها رسالة مناضل تجسّدت فيه عبقرية قائد استراتيجيٍّ مُلْهَم، ماالانت له عريكةٌ في ساحٍ، ولا نُكّست له رايةٌ في كفاحٍ...عَرَفَته المواقفُ الصَّعبة شجاعًا مقدامًا، لا تُرْهبُه شدّتها، ولا تثْنيه عن مواصلة تقدُّمه حتى بلوغ هدفه المنشود، «الحياة - عنده - ثورةٌ دائمةٌ، والإنسان هو أداة الثورة، كما هو منطلقها وغايتها»[٣].

وأمّا القيادةُ فمسؤوليةٌ يتحمَّلها كلُّ مواطنٍ من أبناء الوطن، «فالوطن بحاجة إلى جميع أبنائه، فيه فُرَصٌ للجميع، وعملٌ مسؤولٌ للجميع»[٤].

بهذه النظرة للقيادة وضع القائد الخالد حافظ الأسد لبنةً على طريق بناء مقدّمةٍ لفكرٍ قياديٍّ خلاّق، أسّس لنظرية قياديّة استطاعت بالتطبيق والممارسة إرساء ثوابت نضالية راسخة، كان لها إسهاماتها الملموسة في تكوين الذات العربية، وخَلْقِ حالة من الحضور الفاعل والمؤثّر لتلك الذات على الساحة الدّوليّة....

---

(١) انظر كتاب «حافظ الأسد قائدٌ ورسالة» - فؤاد العشا - دمشق ١٩٩٢، ص٩ (التقديم).

(٢) المصدر السابق، ص ١٥.

(٣) من كلمة القائد حافظ الأسد في المؤتمر العام الثاني لاتحاد شبيبة الثورة عام /١٩٧٦/. وانظر كذلك قال الأسد، ط(١١) عام /١٩٩٨/. العماد أول مصطفى طلاس، ص٢٤٦.

(٤) من خطابه في ختام المؤتمر القطري السابع للحزب عام /١٩٧٩/. وانظر كذلك قال الأسد - مصدر (٦) انظر كتاب «الأسدية: طريق الحاضر...رهان المستقبل»، كريم الشيباني، سورية (١٩٩٧)، ص١٣٢.

وأنْ يَشْعرَ المرءُ بذاته يعني أنّه بدأ يعيش حياته حُرّاً مستقلاً، فـ «رسالةُ الحياة هي تحقيقُ الذات، والطريقُ إلى ذلك هو طريقُ الحرية، ومن حقّق حريته حقّق ذاته...»(٥).

أولاً - الأسد ومقدّمات الفكر القيادي:

لقد امتلك الرئيس حافظ الأسد قدرةً استثنائيةً على الإحاطة بالأمور وتحليلها، وعلى تحديد أبعادها المختلفة وفهْمها واستيعابها، كما كانت لديه القدرة النادرة على إعادة صياغة الأشياء صياغةً تمتزج فيها الدقّة والوضوح بالرؤية الثاقبة في فَهْم العلاقة بين أجزاء هذه الأشياء، وإدراك ماهو قابلٌ منها للتحوّل أو للتبدّل، بالشكل الذي يجعله قادراً على رسم صورة الحلّ المناسب المنسجم ومعطيات الواقع ....، فكانت القيادةُ لديه قدوةً حَسَنةً، ونموذجاً أمثلَ لريادة الفعْل ووعي الفكر، وسموّ الأخلاق والقيم، وهو ما عبّر عنه بقالب مماثل أو لنقل بصيغة أخرى فؤاد العَشّا في كتابه «حافظ الأسد قائدٌ ورسالة»، انظر ص ٢١.

وعلى تلك الصورة من الرؤية أمْسَكَ الرئيس الأسد بزمام المبادرة، متخذاً مما رسّخه من ثوابت نقاط ارتكاز للانطلاق نحو أهدافه وغاياته المرسومة التي هي أهداف أمة وغايات شعب...، وسعى بما تمتّع به من سعة أفُق إلى لَمّ الشمل العربي وتوحيده، ونَبْذ كلّ مايحولُ دون تحقيق ذلك، وتكريس الأفكار التي تُسْــهِمُ في خدمة المصالح العليا للأمة العربيّة، والتعامل مع ماهو قابلٌ للديمومة والاستمرار، والابتعاد عمّا هو عارضٌ ومؤقتٌ...،وكانت «أولى إضافات (حافظ الأسد) إلى الفكر القومي رفض أيّ صراع عربيٍّ عربيّ، تحت أيّ حجة أو ذريعة...»(٦)، ولم يُسجّل في عهد القائد الخالد حافظ الأسد أنه اتخذت سوريةُ أية خطوة أو قامت بأيّ عمل قوميّ إلا بعد التنسيق والتشاور مع الأطراف العربيّة الفاعلة، «وهذا ما جعل الرئيس الأسد يُشكّل ثقلاً قوميّاً مُشْبعًا بالنّضج والعقلانية، إضافةً إلى ثقله الشخصي، والعلاقات الوطيدة التي تربطه شخصيّاً بالزعماء العالميين والقادة العرب»(٦) .وكان القائد الأسد دائمًا يُبدي حسن ظنّه بالقوى الفاعلة على الساحة، ولاسيّما تلك التي كان يتعامل معها، بعيداً عن الشك في قدرتها على تحقيق غاياتها...

ولاينسى الأسد أنْ يتسلّح في تعامله مع الأمور برؤية تاريخية، يستلهم من

(٥) من كلمة الرئيس الخالد حافظ الأسد في افتتاح المؤتمر الدوليّ لمجلس السِّلم العالمي في ١٩٨١/٦/٢٢م.
(٦) انظر كتاب «الأسديّة: طريق الحاضر...رهان المستقبل»، كريم الشيباني، سورية (١٩٩٧)، ص١٣٢.

خلالها عبرَ الماضي ودروسه، ويستشرق آفاق المستقبل بعين المحلّل الواعي المستوعب للواقع والمدقّق له، مفيداً مما خَبِرَهُ من تجارب الماضين، وممّا خلّفوه وراءهم من بصمات..... فها هو يعبّر عن تلك الرؤية التاريخية عندما تحدّث عن غزو العراق للكويت عام ١٩٩٠/م، قائلاً: «غزو الكويت ...وضمّه وإلغاء الدولة كارثةٌ كبرى وخطيئةٌ لاتغتفر»[٧]...إنها رؤيةٌ «تتعامل مع التاريخ في كليّته وشموليّته»، رؤيةٌ «تتجاوز التفاصيل الصغيرة دون أن تتجاهلها، وتتخطى الجزئيات دون أن تحذفها...» وهي من جهة أخرى «رؤيةٌ قوميّةٌ.... واقعية وعملية» لديها القدرة على التعامل مع الواقع «تعاملاً يكون من شأنه إعادة تشكيل هذا الواقع، وإعادة صياغته بالشكل المناسب والملائم»، والرئيس الخالد حافظ الأسد كان «قادراً (بهذه الرؤية) على الإمساك بالحقيقة التاريخية بحيث تبدو اللّحظة الراهنة مجرّدَ لحظة هاربة من التاريخ، أي ..خارجة عن السياق التاريخي»[٨].

وإلى جانب الرؤية التاريخية كان الأسد يتمتّع برؤية سياسية قادرة على ربط ماهو تاريخي بما هو سياسيٌّ، ومكيّفة لجمل المعطيات وفق منظور سياسيٍّ متكامل...

والأرضيةُ التي كان ينطلق منها الأسد في فهم الأمور، تستند إلى قاعدة فكرية، قوامها ثقافةٌ عميقةٌ وشاملةٌ، يتّسع طيفُها لتفاعل خلّاق، وحركة مستمرة، ولقُدرة هائلة على توظيف لغة التعبير عن الأهداف والغايات المُناطة بها ..تلك اللّغة التي يقتضي التعاملُ معها حساسيةًمرهفةً، وفهمًا دقيقًا لألفاظها ومفرداتها، ودرايةً واعيةً بطبيعتها، وبمكامن الضعف والقوّة فيها، يقول القائد الخالد **حافظ الأسد** في هذا السياق: «إنّ اللّغة أحيانًا تُدْخلنا في متاهات، ما لم نطالب أنفسنا بالتحديد، إنّ اللّغة بدون تحديد، وإنّ الألفاظ بدون تحديد، تُضيّعنا»[٩].

هكذا كان الأسد قائدًا بامتياز، يتعامل مع الواقع بروح العصر، لايستسلم للعاصفة مهما بلغت شدّتها، أمينًا على تاريخ الأمة، وعلى حاضرها ومستقبلها، حازمًا حيث يقتضي الحزم، سهلاً مرنًا عندمايقتضي الموقف ذلك مع التزام مطلق بالثوابت وعدم تفريط بها، ينظر «...إلى التاريخ على أنه علمُ المستقبل، وإلى

(٧) الشجاعة العاقلة والحكمة الجسورة- صفوان قدسي - دمشق (١٩٩٣)، ص٧٥، وانظر كلمة الرئيس الأسد في حفل تخريج دورة المظليين الشبيبيّة الخامسة في ١٢/٩/١٩٩٠م، و(كذلك قال الأسد - العماد أول (٨) الشجاعة العاقلة (مصدر سابق)، ص١٥٩-١٦٠.

(٨) الشجاعة العاقلة (مصدر سابق)، ص١٥٩-١٦٠.

(٩) حافظ الأسد: استحضار التاريخ واستشفاف المستقبل - صفوان قدسي - دمشق (١٩٩٥)، ص٧١.

الجغرافية على أنها علمُ الوقع والموضع، وإلى الحرب على أنها امتداد للسياسة، وإلى السياسة على أنها فنُّ الممكن، وإلى الثورة على أنها علمُ تغيير المجتمع»[10].

وكان القائد الأسد يُجيد قراءة الأحداث، ويُحسنُ ببراعة الرُّبّان الماهر تطويع الظروف العابرة والعوامل الآنيّة لخدمة الأهداف الاستراتيجيّة، يقول بهذا الصّدد: «يجبُ ألاّ نُخْضع استراتيجيَّتنا وأهدافنا لظروف عابرة أو عوامل آنية، بل علينا أن نطوّر هذه الظروف العابرة والعوامل الآنيَّة، وأنْ نُطوّعها ونعملَ على صياغتها بما يلائم استراتيجيَّتنا وأهدافنا»[11].

والمتتبع لمسيرة القائد حافظ الأسد النضالية يلاحظ أنَّها مسيرةٌ تمتدُّ بجذورها إلى الزمن الذي كان فيه طالبًا في المدرسة، حيث سَجّل لنا (قاموسُه) النضاليُّ أنّه خاضَ المعارك مع الطلبة الذين ينتمون إلى تيارات معارضة آنذاك، وبلغت ذروةُ نشاطه النضاليّ يوم انطلقت ثورة الثامن من آذار عام /١٩٦٣/م، إذ إنّه منذ ذلك التاريخ أخذت الملامحُ النضالية لشخصيته تتنامى في مؤسستين عظيمتين، هما: حزب البعث العربي الاشتراكي والجيش العربي السوري، ففي هاتين المؤسستين نمت شخصية الأسد التاريخية، وتبلور الطريقُ الثوري الذي اختطَّه لنفسه[12].

ثانيًا - الأسد والنظريّة القياديّة:

لقد آمن القائد الأسد بأنّ القيادة الناجحة هي التي تستند في انطلاقتها إلى بناء المؤسسات الشعبية وتنظيمها، فـ «في التنظيم تكمن مصادرُ القوّة...»[13]، و« ...التنظيم هو طريقُ النجاح بل هو سرُّ النجاح، وما مِنْ تطوُّر حَسَنٍ وإيجابيٍّ إلاّ وكان التنظيم سبيله. فالتنظيم أساس كُلّ

(١٠) المصدر السابق، ص٧٢.
طلاس)، ط (١١)، ص٤٩٢.
سابق، ص٣٤٧.
(١١) المصدر السابق، ص٧٤.
(١٢) حافظ الأسد: قائد ورسالة (مصدر سابق)، ص ٣٦١.
(١٣) الحرية والرموز الحضارية الكبرى في فلسفة وفكر القائد الرمز حافظ الأسد - د. محمد صفوح الأخرس، دمشق (١٩٩٥)، ص٢٠٥.

عمل هادف، والشعب المنظّم هو الشعب المدرك لغاياته وأهدافه، والقادر على السير نحوها بأسلوب التخطيط بثبات واطمئنان»[١٤].

واستنادًا إلى ذلك كانت التعددية الحزبية والسياسيّة، والمنظمات الشعبية والمؤسسات النقابية والمجالس المنتخبة، من مثل، مجلس الشعب ومجالس الإدارة المحليّة والتنظيمات السياسية المختلفة، التي تشكّل بمجملها الأساس المتين لبناء الدولة العصريّة[١٥].

وهكذا استطاع الأسد ببناء المؤسسات الديمقراطية وتنظيم عملها أن يحدث تحولات جذرية في تاريخ سورية، انتقلت بالبلاد من موقع الانفعال إلى موقع الفعل، كما استطاع أنْ يحوّل سورية إلى قوّة إقليمية ذات ثقل في النضال القومي العربي، ومركز جذب واستقطاب لجميع المناضلين والأحرار في العالم.

ورأى القائد الأسد أنّ الوحدة هي الهدف الأسمى للأمة، وأنّ التجزئة هي العدو الأوّل لها، وأننا بالوحدة ننتصر ونحقّق ما نريد ..فـ «في ظلّ الإحساس العميق بالمسؤولية القومية ومتطلباتها، وفي إطار المبادئ التي آمن بها في صدر شبابه، وفي طليعتها الوحدة العربيّة، تتابعت مبادرات الرئيس حافظ الأسد من أجل تحقيق الوحدة، فالوحدة العربية هدفٌ سقط دفاعًا عنه مئات الشهداء الذين خضّبوا بدمائهم الأرض العربية...»[١٦].

لقد «آمن حافظ الأسد بأنّ العرب أمة واحدةٌ، وبأنّ قوميتهم واحدة، وهذه القومية في معناها البسيط الذي أدركه وقتئذٍ هي الشعور الذي يجمع شمل (الشعوب) التي تسكن الوطن العربي الكبير، والتي تتكلّم اللّغة العربية ...»[١٦].

وامتلك الأسد قدرةً هائلةً على التمييز بين الثابت والمتحوّل، وكان ذلك أساس نظريته القياديّة، فلم يَعْبأ بالجزئيات والعوارض، وقد نجح في تكييف المتغيّرات مع الثوابت، عندما دعا إلى تطويع الظروف العابرة والعوامل الآنية وصياغتها بما ينسجم مع استراتيجيّتنا وأهدافنا[١٧].

ولأنّه ابن الشعب وخرج من صفوف الشعب، فقد تبنّى قضية الشعب، ولم يتخلَّ يومًا عن ذاته، فواصل ربْطَ الجماهير

---

(١٤) من كلمة القائد الخالد حافظ الأسد في افتتاح المؤتمر العشرين لاتحاد نقابات العمال في ١٩٨٢/١١/٣٠ م.

(١٥) الحرية والرموز الحضارية ...(مصدر سابق)، ص٢٠٣

(١٦) التاريخ لا تحرّكه الصدفة - قراءة في فكر الأسد - عادل رضا، القاهرة (١٩٩٣)، ص ٢٤٠.

(١٧) الشجاعة العقلة ...(مصدر سابق)، ص ٦٣.

بالثورة والثورة بالجماهير، ومارس القيادة من خلال كونه واحداً من الشعب بآمله وآلامه...، وثمة من يقول: «...إنّ القادة العظماء في التاريخ هم أولئك الذين كانوا دومًا مع الطبقات الواسعة، ولهذا فقد لعبوا دورًا إيجابيًا في عملية التطوّر الاجتماعي للبشريّة كلّها»[18].

وكانت النظرة القومية للأسد إعلاءَ هدف الوحدة، ومحاربة التجزئة، وهو ما جعله يملك رؤيةً قوميةً استراتيجيةً، يؤكّد صحتها ومصداقيتها ما يشهده عالم اليوم من تحوّلات كبرى تُقدّم الدليل القاطع على أنّ القوميةَ ليست مرحلةً عابرةً في تاريخ البشرية وإنّما هي الحقيقة الدائمة والثابتة والمستمرة. وقد ثبّت بالفعل أنّ فكر الأسد هو فكر الأمة، ومدرسته مدرسةُ الجماهير، وطموحاته طموحات الشعب، وآماله آمال المناضلين، والدولة التي أقامها هي القدوة والنموذج[19]. وكان الحزبُ الذي انضوى تحت لوائه الأسد حركةً قوميةً، وكانت أهدافه الكبرى هي الوحدة والحرية والاشتراكيّة، وما كان للأسد أنْ يتخلّى عن هذه الأهداف، ولا عن الجماهير التي هي الغاية أولاً وأخيرًا، وهو من يقول: «لانجاح إلاّ للشعب، ولاانتصار إلاّ للشعب؛ لأنّ إرادة الشعب هي إرادة الخير، وإرادة الخير هي إرادة الله، وإرادة الله فوق كلّ إرادة»[20].

ولذلك فإنّه عندما رأى ابتعاد القيادة الحزبيّة عن الجماهير، انطلق لتصحيح المسار، فكانت الحركة التصحيحية المباركة عام ١٩٧٠/م التي جاءت لتؤكّد بفعل ثوريٍّ متجدِّد حيوية ثورة آذار، ولتُبشِّر بعودة الحياة إلى الحركة الجماهيرية من خلال دعوة الجماهير إلى المشاركة في الحياة السياسيّة، وإبداء الرأي في القرارات الصادرة عن المؤسسات ....، وقد أكّد القائد الأسد ضرورة أن يأخذ الحزبُ دوره على الصعيدين: الوطني والقومي، عندما قال: «إنّ حزبَنا حزبَ البعث العربي الاشتراكي ..هو إحدى الفصائل الأهم من فصائل الثورة العربية الذي جَسّد منذ أكثر من ربع قرن نزوع الإنسان العربي المعاصر نحو تحقيق رسالة أمّته في الوحدة والحرية والاشتراكية»[21].

ومنذ الأيام الأولى لانطلاق الحركة التصحيحية وجّه الأسد الدعوة إلى القوى

(١٨) حافظ الأسد الأيديولوجيا الثوريّة والفكر السياسي - هاني خليل، دمشق، ط(٢)، /١٩٨٧/ م، ص٣٠.(١٤) من كلمة القائد الخالد حافظ الأسد في افتتاح المؤتمر العشرين لاتحاد نقابات العمال في ١٩٨٢/١١/٢٠ م.

(١٩) الشجاعة العاقلة ...(مصدر سابق)، ص٦٩.

(٢٠) من كلمة القائد الخالد في المؤتمر الطارئ لاتحاد الشبيبة بتاريخ ١٩٨٠/٣/١٢. وانظر كذلك قال الأسد (مصدر سابق)، ص١٣٠. وانظر حافظ الأسد قائد ورسالة ...(مصدر سابق)، ص١٩١.

(٢١) حافظ الأسد قائد ورسالة (مصدر سابق)، ص١٩٧.

الوطنية والتقدميّة من أجل اللّقاء في إطار صيغة للعمل السياسي، تُجسّد في مؤسسة سياسية فاعلة ومؤثرة...، فكانت الجبهة الوطنية التقدميّة التي تُعدُّ صيغةً عمليةً لتحقيق الوحدة الوطنية، وهي خط القتال الثاني في المعركة مع العدو بعد الجبهة العسكريّة في معركتها، كما أنها المدخل إلى الوحدة القوميّة.

وقد ارتقى القائد الأسد بالنصّ السياسي العربي إلى مستويات لم يَبْلُغْها من قبل، حين حَلّل طبيعةَ الحريّة والصِّيغ الملائمة لِمُمارستها ممارسةً سليمةً، مؤكّداً أنّه «لا معنى للحرية بدون الإنسان الكائن العاقل... ولا معنى للحديث عن الإنسان الفرد بدون الجماعة... فالحريةُ هي حريةُ الجماعة بكل أفرادها..»[٢٢] وإنّ تقييد الحرية هو اعتداءٌ على الحرية، وتنظيم ممارسة الحرية حمايةٌ وتحصينٌ للحرية..، والحرية مبعثُ الإلهام والفكر، «وتعدُّ من أهم عوامل الإبداع والعطاء الذي تميّزت بها حركة الفكر والثقافة»[٢٣].

ورأى القائد الأسد أن التوازن الاقتصادي – الاجتماعي هو القاعدة التي يمكن أن يقوم عليها التوازن السياسي في داخل أيّ مجتمع، والتوازن السياسيُّ يُعبّرُ عنه بمؤسسات دستورية هي وعاء الحوار ومصدرُ القرار.

وللحفاظ على مكتسبات الثورة، ولحمايتها من أعدائها، فقد سعى الأسد إلى تحقيق نقلة نوعية على طريق إعداد الجيش العقائدي...

لقد كان يعي جيداً طبيعة التحديات التي تتعرّض لها الأمّة، وكان يدرك مسبقاً أن الدوائر الاستعمارية تتحيّن الفرص للانقضاض على المنطقة، وتمرير مخططاتها، وقد صوّر الأسد صراعنا مع هذه الدوائر بقوله: «بحكم التقاء مطامع الاستعمار مع أحلام الصهيونية، فإن شكل الصراع الذي انتقلت إليه أمتُنا العربية اتخذ طابعاً فريداً، تميّز ببروز دولة عنصريةٍ عدوانية في قلب وطننا، وعلى حساب تشريد شعبنا العربي، مما أعطى طابعاً مصيرياً»[٢٤].

ويقول: «إنّ خطر الصهيونية وأطماعها تشملُ سائرَ الوطن العربي، وقادةُ الصهيونية أنفسهم يكشفون كلَّ يوم عن هذا الخطر وهذه الأطماع...»[٢٥].

ولمواجهة ذلك الخطر، وتلك الأطماع

---

(٢٢) – من كلمة القائد الخالد افتتاح المؤتمر العام الخامس للشبيبة ١٩٩٠/٣/٨م، وانظر (كذلك قال الأسد) – (مصدر سابق)، ص٧٢.
(٢٣) – حافظ الأسد والحرية – د. قاسم الريداوي، ط (١)، دمشق (١٩٩٨)، ص ١٢٣.
(٢٤) – حافظ الأسد والصراع العربي الصهيوني – د. ماجد شدود، دمشق (١٩٩٨)م، ص ٩٤.
(٢٥) – المصدر السابق، ص ٩٧.

فقد كان الأسد يدعو باستمرار إلى حشد الطاقات العربية، وإزالة حالة التفكك في الصف العربي، وتجاوز الخلافات القائمة، وحدّد الأهداف الاستراتيجيّة للنضال القومي بالنقاط التالية:

١ - إقامة الوحدة العربيّة...

٢ - تحرير الأراضي المحتلّة واسترجاع كامل الحقوق المغتصبة.

٣ - عدم المساومة على القضايا المصيريّة، والحفاظ على الأمن القومي العربي...

٤ - ترسيخ مظاهر التطور الاجتماعي العام.

٥ - مواجهة المخططات الصهيونية والاستعمارية في الوطن العربي[٢٦].

ثالثاً - الأسد في موقع القيادة:

وُلِدَتْ مع حافظ الأسد سورية جديدة، سورية التي تتصل بجذورها مع تاريخها، تراثها السياسي، النضالي، وفي الوقت نفسه ترقب المستقبل، وتتشكّل على يد إنسان له فعلُها الخلاّق وهو القائد العظيم حافظ الأسد.

لقد قاد الأسد سورية فكانت كيانَه الذي يُحسّ وعالَمه الذي يعيش، وكانت قيادتُه نوعاً من تحقيق الذات الوطنية، وتحديد المنهج والسعي إلى تحقيق الغايات التي توافقُ جوهر تلك الذات.

وهكذا بدأ الأسد مع تسلُّمه القيادة بتحقيق تغييرات شاملة، تهدف إلى إيجاد قاعدة متينة يتم الاعتماد عليها. وتجسَّدَ هذا التغيير في ترسيخ الديمقراطية الشعبية، وتحويل الدولة إلى دولة مؤسسات وقواعد تنظيمية، وفي تجميع القوى الوطنية المختلفة، وإيجاد صيغة الجبهة الوطنية التقدمية، والحزب القائد، وفي تشييد قاعدة اقتصادية متماسكة ومتعدّدة الأنماط، وفي بناء الجيش العقائدي القومي، وفي خلق تناغم وانسجام واضح في القيادة، يعتمد على المؤسسات والبنى الدستورية المتكاملة، مما أسهم في نقل سورية إلى دولة فاعلة في الإطارين القومي والدولي.. إلى دولة تمتلك حرية القرار والفعل، وتعمل على توظيفها لصالح القضايا القومية العليا للأمة...

وهكذا انتهى عصر التقوقع والانغلاق، وبدأت مرحلةُ إبداع نظرية «الجسور المفتوحة» مع العالم، كوسيلة لتحرير الذات القومية، وكجسر للعبور إلى أوسع مَدًى في العلاقات المبنيّة على أسس الاحترام المتبادل بين أمم الأرض وشعوبها...

(٢٦) - المصدر السابق، ص ١٠٣ - ١٠٤.

وهكذا أيضاً بدأ الرئيس الأسد العمل على تحديد الوسائل القادرة على إحداث تغييرات نوعية في الواقع العربي للانتقال به من مظهر التجزئة إلى مظهر التعاون والتنسيق وصولاً إلى ترميم الخلل القائم في ميزان القوى مع إسرائيل، وقد أكد الأسد أنّه ليس بين أهداف النضال العربي ما هو أخطر على الأعداء من الوحدة العربية التي هي - كما يقول - «الهدف الذي إذا ما تحقّق، فسوف يكونُ الدواءَ الشافي لكل ما نعاني منه، وسوف يكون الداءَ القاتل لكلّ أعداء الأمة العربية...»[٢٧].

رابعاً - العبقرية القيادية في تكوين الذات:

عندما وجد الأسد أن الوحدة كهدف استراتيجيّ بعيد المنال، بحث عن هدف تكتيكي لا يتعارض مع الهدف الاستراتيجيّ هو التضامن العربي، وانطلاقاً من ذلك كان التزام سورية بقضايا الأمة، وحَمْلُ هموم الأمّة، فنهضت بالأعباء، وجعلت من دمشق قلب العروبة النابض الذي وسع لبنان وفلسطين وجميع العرب[٢٨].

ومنذ بداية السبعينات أخذت تظهر تجارب وحدوية ثنائية وثلاثية ورباعية، وكانت دائماً سورية الأسد مركزها ومحرّكها، وإن كانت مثل تلك التجارب قد تعثّرت إلاّ أنها شكلت عاملاً يزكي الوعي القومي الوحدوي، يقول الأسد: «إن تعثّر بعض التجارب الوحدوية يجب ألاّ يدعونا للقلق والقنوط بل إلى مـزيد من النضال»[٢٩].

ومن إرادة الوحدة والوعي التاريخي والالتزام القومي توصل الرئيس الأسد إلى الإعلان عن «التضامن العربي» وسيلةً وأداةً قادرة على تحقيق التغيير، والتقارب والتنسيق بين الدول العربية، وعرّفه بقوله: «إن التضامن العربي هو صيغة من صيغ العمل»[٣٠].

إن التضامن العربي الذي طرحه الأسد صورة عن التضامن الوطني الذي صنعه بين جماهير الشعب السوري بإرساء دعائم الوحدة الوطنية والتعددية الحزبيّة.

وقد عمل الأسد على نقل التضامن العربي من شعار نظري إلى فعلٍ قوميٍّ من خلال استخدامه أداةً لحشد طاقات الأمة

(٢٧) - من خطاب الأسد أمام الجماهير المحتشدة في طرابلس (ليبيا) بتاريخ ١٩٨٠/٩/٨م، وانظر «كذلك قال الأسد» (مصدر سابق)، ص ٥٠.
(٢٨) - حافظ الأسد: استحضار التاريخ... (مصدر سابق)، ص ٦٠، وانظر (حافظ الأسد والصراع العربي - الصهيوني) (مصدر سابق)، ص ١٠٤ - ١٠٦.
(٢٩) - من كلمة له في افتتاح المؤتمر الثاني لشبيبة الثورة ١٩٧٦/٤/١٢م.
(٣٠) - من كلمة له في الجلسة الختامية للمؤتمر القومي الثاني عشر للحزب ١٩٧٥/٧/٢٤م.

العربية وتوظيفها في مواجهة المخططات الصهيونية، ونقلها من مظهر القدرة الكامنة إلى مظهر القوة الفاعلة، وتجسّد ذلك بشكل عمليٍّ في حرب تشرين التحريرية عام (١٩٧٣)م التي قامت على أرضية التضامن العربي[٣١]، والتي وجّهت ضربةً قويةً لإسرائيل تأكّد من خلالها أن التفوق النوعي للعدو حالةٌ طارئةٌ وليس ظاهرة مطلقة، وأن قيام هذه الحالة الطارئة كان بسبب غياب تفعيل القوة العربية المُتاحة.

وما بعد حرب تشرين وعى الأسد إلى مسألة غاية في الأهمية والخطورة، وهي تحرّك الدوائر المعادية لفك عُرى التضامن العربي، وخلق نزاعات عربية - عربية، وهو ما أشار إليه بقوله: «ركزت الولايات المتحدة وإسرائيل جهودهما منذ حرب تشرين على هدفين رئيسين: أولهما ضرب التضامن العربي، وتحويل الصراع في المنطقة من صراع عربي - إسرائيلي إلى صراع بين العرب أنفسهم، وثانيهما تيئيس العرب من إمكانية النصر»[٣٢].

وعلى خلفية التحرك الاستعماري بدأت مرحلة ضعف واستسلام في الواقع العربي، فأعلن الأسد مقاومة المحاولات الهادفة إلى فرض الاستسلام واليأس ومظاهرهما، فبدأ حرب الاستنزاف في الجولان وجبل الشيخ، و أقدم على تقديم المساعدات العسكرية والسياسية والاقتصادية للقطر اللبناني الشقيق، بهدف تطويق المؤامرة التي تحاك ضدّه، وإيقاف الحرب الأهلية التي أوقد نارها أعداء لبنان والأمة العربية، والحفاظ على عروبة لبنان ووحدته وترسيخ انتمائه القومي. كما عمل على تحصين الواقع العربي رسميّاً وشعبيّاً ضد محاولات التسويات الجزئية وتعميم الاتفاقيات الاستسلامية، وسعى إلى ترميم الخلل الناجم عن اتفاقيات كامب ديفيد من خلال إقامة مظاهر من التعاون والتنسيق مع القطر العراقي عبر «ميثاق العمل المشترك»، ومع بعض الدول العربية الأخرى من خلال «جبهة الصمود والتصدي»، كما عمل على المحافظة على حيوية القضية الفلسطينية التي عدّها قضية العرب الأولى...

خامساً - الثابت والمتحوّل في الفكر القيادي للأسد:

عندما تمكّن العدو من إخراج دول عربية كبرى من ساحة المواجهة معه، ومن تطويق العراق وإشغاله بحرب الخليج، واغتيال ميثاق العمل القومي، بدا التشتت والاضطراب في الواقع العربي واضحاً،

(٣١) - حافظ الأسد والصراع العربي - الصهيوني (مصدر سابق)، ص ١١١.
(٣٢) - المصدر السابق، ص ١١٤.

وكان لابد من معالجة فعالة وسريعة لهذا الوضع، فأطلق الأسد شعار «التوازن الاستراتيجي» كوسيلة فاعلة لمواجهة ما هو قائم، يقول في هذا الصدد: «إنّ التوازن الاستراتيجي الذي نعنيه هو أنه يقوم توازنٌ استراتيجيٌ بين سورية من جهة، وإسرائيل من جهة أخرى، وهذا يقتضي منّا أن نتقدّم سريعاً في المجال الثقافي وفي المجال الاقتصادي وفي المجال الاجتماعي عموماً، وترتيباً على ذلك في المجالين: السياسي والعسكري»(٣٣).

وعمل الأسد منذ البداية على نقل التوازن من المستوى القطري إلى المستوى القومي، متخذاً من التضامن العربي وسيلةً لتحقيق ذلك، وهذا ما عكسه في قوله: «إن خيارنا ونحن نواجه الأخطار هو التصميم على استمرار دعم قدراتنا الدفاعية، وتحقيق التوازن الاستراتيجي مع العدو، والسعي لتحقيق أوسع تضامن عربي ممكن على أساس مقاومة الإمبريالية والصهيونية»(٣٤).

وكان من مظاهر الاضطراب العربي إشعال فتيل الحرب الأهلية في لبنان ١٩٧٥م، وإشغال سورية والدول العربية بها، وكذلك إشغال المقاومة الفلسطينية واستنزاف قوتها، في صراعات جانبيّة، وقد تعامل الأسد بوعيه وبرؤيته القومية الثاقبة مع المشكلة بحكمة، فعمل على إيقاف الحرب وإعادة الأمن والاستقرار إلى لبنان، والحفاظ على عروبته، وتحقيق وفاق وطني يضمن الأمن، ويعيد للشرعية سيادتها... كما حافظ على المقاومة الوطنية، ومنع أية محاولات للإيقاع فيما بينها وبين الشعب...

وأثمرت جهود الأسد بإقرار ما عُرف بـ «الوثيقة الدستورية»، ولكن القوى المعادية استطاعت تطويق هذه الوثيقة، عندما أشعلت فتيل القتال ثانيةً، وبدا أمر تقسيم لبنان قاب قوسين أو أدنى، فتدخّل الأسد عسكرياً لإيقاف المؤامرة وكان عام (١٩٧٦)م، فأوقفت القوات السورية بتوجيه من الأسد القتال بين الإخوة، وحالت دون تقسيم لبنان، وحافظت على المقاومة الفلسطينية، وساعدتها الشرعية اللبنانية في إعادة بناء مؤسساتها الوطنية، وهكذا عادت اللّحمة إلى أبناء الوطن الواحد.

ولكن ذلك لم يَرُق لإسرائيل التي رأت أن الأمور تسير في المصلحة القومية العليا للعرب، فقامت بغزو لبنان عام (١٩٨٢)م، وتصدّت سورية للعدوان، ومنعته من تحقيق أغراضه العدوانية الشريرة، فطوّقت المحاولات الاستعمارية التي كانت

(٣٣) - جريدة تشرين ١٦/٢/١٩٨٦م.
(٣٤) - حافظ الأسد والصراع العربي - الصهيوني (مصدر سابق)، ص ١١٩.

ترمي إلى إخضاع لبنان، وذلك عبر إسقاط اتفاق (١٧) أيار عام (١٩٨٣)م، الذي كان صكّ إذعانٍ واستسلامٍ للبنان.

وعندما تصاعدت حدّة الهجمة الاستعمارية طرح الرئيس الخالد حافظ الأسد شعار: «الشهادة أو النصر»، وحوّله إلى وسيلة نوعية جديدة في إطار المواجهة، فقال: «إنّ الشعب الذي يملك أبناؤه إرادة الشهادة هو الشعب الذي يملك حتمية النصر»[٣٥]، وبهذا الطرح خلق الأسد حالةً من الوعي القومي والتحفيز الجماهيري، وأضحت الشهادة عاملاً فاعلاً فرض نفسه، مضمونه المقاومة الجماهيرية الواسعة، وأدواته التضحية اللاّ محدودة والتشبّث بالأرض، وأدى ذلك إلى إسقاط مظاهر الخوف، وإجبار القوات الأطلسية والصهيونية على الانسحاب من لبنان.

ووجد هذا الشعار «الشهادة أو النصر» بُعدَه القومي من خلال انتقاله من الجنوب اللبناني إلى الأرض المحتلة في فلسطين عبر الانتفاضة الباسلة التي تحوّلت بفعل ذلك الشعار إلى قوة كبرى في مواجهة العدو والتصدي لغطرسته،وشكّلت مع المقاومة الوطنية اللبنانية تجسيداً عملياً لحالة النهوض الجماهيري على المستوى القومي، يقول الأسد: «إن ما يحدث في الأراضي المحتلة لا يمكن النظر إليه بمعزل عما جرى ويجري في لبنان، والموقف في لبنان لا يمكن النظر إليه بمعزل عن الموقف في سورية، فلكلٍّ عمقه العربيُّ، هذا منطق التاريخ لايتجاهلُه إلاّ جاهل التاريخ وفاقد المنطق»[٣٦].

إن الفعل العظيم للاستشهاد أرعب العدو، وفي محاولة لتطويق العمليات الاستشهادية والتقليل من أهميتها أطلقت إسرائيل على العمليات الاستشهادية اسم العمليات الإرهابيّة، ورفعت شعار «مكافحة الإرهاب»، واستطاعت أن تحرّض الإدارة الأمريكية بهذا الاتجاه، وقد عرف الأسد حقيقة اللّعبة الصهيونية - الأمريكية الجديدة، وعبّر عنها بقوله: «نعتقد أن العملية بكاملها مركبة ومرتّبة في إطار حملة عامة على سورية، وعلى دول أخرى في المنطقة، وفي المحصلة على الأمة العربية، القصدُ منها جعل العرب يستسلمون للمخططات الصهيونية، ولما ترغب فيه إسرائيل بأن نتحوّل عن نهجنا، ولا نتمسّك بقوة حقوقنا ولا نستمر في دفاعنا ... عن قضايانا العادلة»[٣٧].

وبوعيٍ وبُعد نظر أدرك الأسد أن الخلط بين المفاهيم أمرٌ خطيرٌ كالحرب، فطالب بعقد مؤتمر دولي ترعاه الأمم

---

(٣٥) - حافظ الأسد والصراع العربي - الصهيوني (مصدر سابق)، ص ١٢٥.
(٣٦) - حافظ الأسد - استراتيجية المواجهة، د. ماجد شدّود، دمشق (١٩٨٩)، ص ١١٣.
(٣٧) - جريدة تشرين ١٩٨٧/٧/١٨م، (من حديث للقائد الخالد).

المتحدة لتحديد مفهوم الإرهاب والتمييز بينه وبين نضال الشعوب المشروع، وقد حظيت هذه المطالبة بتأييد دولي واسع، ووافق مجلس الأمن على عقد المؤتمر في نهاية شهر كانون الثاني (١٩٨٧)م، وبذلك استطاع الأسد أن يطوق المحاولات الاستعمارية الصهيونية التي استهدفت تطويق الظاهرة الاستشهادية، كما استطاع أن يجعل المخططات الصهيونية في مواجهة مباشرة مع المجتمع الدولي ومؤسساته الشرعية، مستخدماً الشرعية الدولية والقانون الدولي كوسائل مساعدة لإحقاق حق الشعوب في النضال والكفاح من أجل حريتها واستقلالها[٣٨].

❖ هكذا كان القائد الخالد حافظ الأسد مدرسةً قياديةً نضاليةً، وفكراً استراتيجياً متألقاً على مدى ثلاثة عقود من الزمن، وما قدّمناه هو غيضٌ من فيض مناقبيته القياديّة والفكريّة التي استطاعت أن تجعل من سورية نبضَ الأمّة ووعيها، بل النسغ الذي يضخُّ الحياة في عروقها.

(٣٨) - حافظ الأسد والصراع العربي - الصهيوني (مصدر سابق)، ص ١٣٠ - ١٣٢.

أينَ ذاكَ الشُّعاعُ؟!

شعر: فيصل علي صقر (*)

كُنْتَ فيمَا مَضى..
وَمْضَةً..
مِنْ شعاعٍ
يرفُّ..
على شُرْفةٍ..
مِنْ بحارِ
الضِّياءْ

(*) فيصل علي صقر: شاعر من سورية، ينشر في الدوريات العربية والمحلية.

أينَ ذاكَ الشُّعاعُ؟!

..نغمةٌ..
منْ كمانٍ
حَزينٍ
يَبُثُّ الدُّنا
شَوْقَهُ..
والزَّمَانَ
لحونَ حَيَاةٍ..
أناشيدَ نَهْرٍ
يَسيلُ..
على ضِفَّةٍ..
منْ جَنَاحٍ
المَسَاءِ..
كُنْتَ..
أغرودَةَ الحُبِّ
والياسَمِينَ
كنْتَ..
حُلْمَ الهوى..
وَعِطْرَ الوعُودِ..
وَلَفْحَ الحَنينِ..
وَرُؤيا..
تَراءَتْ نضالاً
يَرِفُّ
على أَيْكَةِ الشهداءِ
والآن أبحرتُ إلى لجَّةِ الحُلْمِ

نْ جُنُونٍ
رِياحْ
نْقِذُ مَا قَدْ تَبَقَّى..
أوْرِدَتي..
نْ دَمي
سْتَبَاحْ
مْتَشِقَ الجُرْحْ
الكِبْرِيَاءْ.
❖
نْتَ
يما مَضَى..
سْرِحَةٌ..
نْ صَهيلِ
جِراحْ
فْرُشُ الضَوْءَ
على فُسْحَةٍ
لعُمْرِ
لَبي..
حُثُّ الخُطَا..
بْتَغاهُ..
رِدَةٌ..
نْ دمَاءِ
الأصيلْ!
أينَ حُلْمي

الجَميلُ؟!
أينَ أنشودتي..
وكأسي..
وحُبّي الذي
ضاعَ منّي؟!
أينَ حُلمُ الهوى
والتّمنّي؟!
أينَ ذاكَ
الهديلُ؟!
كيفَ موجُ الرَّحيقِ
استحالَ
رَماداً..
ضَباباً..
هَباءْ.
يالَعصرِ الرَّحيقْ!!
خالَطتْهُ

الظّنونْ
مَوسِمٌ..
في الطَّريقْ
كحلَّتْهُ الجفونْ
مَوكبٌ..
لا يَفيقْ
في سرابِ اللحونْ
يَنتشي..
في الحَريقْ
كلُّ ذاكَ
الرحيقْ
أينَ ذاكَ الشُّعاعْ؟!
كانَ فيما مَضى..
يَزرعُ
المُستحيلْ!!

❖ ❖ ❖

حافظ الأسد والطفولة
شهادة حية على عصر إنجازات مستمرة

د. إنصاف حمد (*)

عندما تهم بالكتابة عن رجل بحجم وطن سوف تعترضك صعوبات عدة قد لا يكون أولها صعوبة الاستشهاد بالأقوال والبناء عليها عندما تكون الأفعال والأعمال إنجازات ووقائع تاريخية مثبتة. فكيف إذا ما كان الواقع كله ليس إلا شهادة حية تمتد لتؤرخ لسورية الحديثة - سورية الحاضرة الآن بثقل وبدور لم يكن لها أبداً قبله.

(*) د. إنصاف حمد: عضو الهيئة التدريسية في قسم الفلسفة بجامعة دمشق. مديرة ثقافة الطفل في وزارة الثقافة.

وقد لا يكون أخرها أن تجد صعوبة في إلباس الكتابة إهاب الموضوعية والحياد العلمي المفترضين في كل بحث أو دراسة.. لأن مشاعرك الجياشة تجاه الرجل تطفو على السطح وتمد برأسها بين السطور وتستوطن الحروف والفواصل وتعلن بكل وضوح انحيازك الذي لا يمكن إخفاؤه لمن كان عنده الفعل ليقدم على القول - ولمن كرس حياته للبناء بالأفعال وليس بالنظريات والشعارات.

لكن هاتين الصعوبتين سرعان ما تتحولان إلى عوامل مساعدة للكتابة بدلاً من أن تكونا عقبتين في وجهها. فالتدليل بالأفعال أقوى وأمتن وأبلغ من الاستشهاد بالأقوال فقط، فكيف الحال إذا ما استطعت أن تضفر الاثنين معًا بحيث يقترن الفعل بالقول. ويتجاوزه في الحجم في أحيان كثيرة، وما عليك إذن سوى أن تغرف من معين لا ينضب من الإنجازات المزروعة في كل بقاع الوطن والتي انعكست على كل فرد فيه.

أما الصعوبة الثانية فستتحول إلى داعم قوي لما تريد التدليل عليه- بحيث تصبح الأفعال والأعمال - والأقوال - مقدمة منطقية وضرورية للنتيجة التي جعلتك في حالة الإعجاب والانبهار بشخصية ملأت العقول فالقلوب - وحازت إعجاب واحترام العدو قبل الصديق. فكيف إذا ما كنت شاهدًا حيًّا على الفعل - وهذا وصفي. وإذا ما كنت ابنًا حقيقيًّا للإنجاز - وهذه حالتي - أنا المواطنة التي عاصرت الحركة التصحيحية طفلة وعاشت، خطوة بخطوة ورشة البناء والإعمار في سورية - شابة ثم سيدة ناضجة - واتيحت لها الفرصة وهي - الأنثى ابنه العائلة الفقيرة أن تصبح استاذة جامعية ما كان لها أن تكون على ماهي عليه الآن لو لم يوجد في لحظة تاريخية قل نظيرها رجل تاريخي كحافظ الأسد عز مثيله.

ضمن هذا الإطار - وانطلاقًا من هذه المقدمات سيكون حديثي التالي شهادة على عصر، بل على ملحمة إنجازات أطلقها ورعاها الحاضر فينا أبدًا: حافظ الأسد.

وإذا ما اخترت أن اتحدث عن جانب فقط مما تحقق فلأن الحديث عن كل ما تحقق مهمة تكاد تكون مستحيله،، فضلاً عن إدراكي بأن الاهتمام بالطفل ورعاية الطفوله هما حجر الأساس في كل مهمة تنموية وطنية،، كما أنهما لا ينفصلان عن الحديث عن جوانب المعمار الأسدي الأخرى بكل اشراقاتها. فنهج البناء السليم لوطن قوي صحيح ومعافى لا بد أن تكون نقطة انطلاقه من الطفل. إنه الممكن الذي سنحوله إلى واقع مراد ومتبقى بتوفير الشروط المثلى.

وإذا ما حاولنا أن نتبين المنهج لذلك

نظريًّا وعمليًّا، سيرشدنا قول القائد الخالد إلى الهدف الذي وضعه نصب عينيه، وتحديد الهدف - كما تعلمنا الدراسات الميتودولوجيّة هو نقطة الانطلاق لكل نشاط إنساني يريد أن يكون نافعًا ومجديًا، يقول الأسد:

«نريد لأطفالنا أن يعيشوا طفولة سعيدة، ونريد لشبابنا أن يحيوا حياة هنيئة».

إن الهدف واضح ومحدد: ضمان طفولة سعيدة وحياة هنيئة.. لكن مصطلح **الطفولة السعيدة مصطلح فضفاض** وواسع، له مقومات ومكونات كثيرة تختلف باختلاف الظروف وثقافة الأمم وأولوياتها.. فما هي مقومات ومكونات هذا المفهوم..

إذا ما تتبعنا تتمة الحديث فسنجد تحديدًا واضحًا للمقصود بالطفولة السعيدة، والحياة الهنيئة، تحديدًا يذكر مقوماتها ويعدد أضدادها ومكدراتها. يقول القائد الخالد:

«نريد لجميع الأجيال أن تنعم بحياة لا تكدرها حاجة ولا مرض ولا تخلف، بل تهنأ كفاية وعافية وعلمًا ومعرفة» (٢).

تتضح من هذا القول الرؤية المستبصرة لماهية الحياة السعيدة المنشودة للأطفال، والتي سيتم ربطها بالأفعال التي تعد ماصدقات المفهوم بالتعبير المنطقي لهذه الكلمة. فإذا قرنا المفهوم بماصدقاته ستتجمع لدينا المعطيات التالية والتي سنبدأها بالجانب السلبي أو ما يتعلق بمكدرات الحياة السعيدة والتي بوجودها - أي المكدرات تنتفي الحياة السعيدة - وبغيابها تتحقق هذه الحياة.

- المكدر الأول: هو الحاجة - ولذلك كان أبعاد شبح الحاجة عن حياة الأطفال همًّا أساسيًّا عمل على تحقيقه عبر توفير الكفاية المادية للأسرة والتي هي الحاضن الطبيعي للطفل. وقد تجلى ذلك - على صعيد الفعل - بتأمين فرص العمل لأرباب الأسر عبر الكم الهائل من المشروعات التي تم العمل عليها منذ فجر الحركة التصحيحية وبذلك تم ضمان دخل ثابت للأسرة سوف يبعد بالضرورة شبح الحاجة ومرارة العوز وألم الحرمان - كما تجلى أيضًا بالزيادات المتتابعة للرواتب والأجور والتي حاولت أن ترمم أي فجوة يمكن أن تحصل بينها وبين الأسعار. وتجلى أيضًا بتخصيص بيت للطفل تُعرض فيه كل احتياجات الطفل من غذاء وألعاب ولباس ومستلزمات بأرخص الأسعار.

---

(١) - خطاب القائد الأسد في الدورة العاشرة لألعاب المتوسط، اللاذقية، ١٢/٩/١٩٨٧.

(٢) - الخطاب ذاته، والمناسبة ذاتها.

عبر هذه الإجراءات توفر للطفل السوري الغذاء الضروري والمسكن الصحي والأسرة المستقرة ماديًّا، وهي شروط ضرورية لبناء طفل يتمتع بجسم سليم ونفسية مستقرة متوازنة. ويجب أن لا ننسى هنا ضمان حياة الأسرة في حالة مرض معيلها بالضمان الاجتماعي والراتب التقاعدي والعلاج المجاني. كما لا ننسى ضمان حضانة طويلة للطفل الوليد عبر إعطاء الأم العاملة إجازة مأجورة تعطى فيها الفرصة المطلوبة للاعتناء بأولادها في مرحلة طفولتهم المبكرة والتي يكونون فيها بأمس الحاجة إلى رعايتها وحنانها واهتمامها بمعزل عن انشغالها بأمور عملها.

وأيضًا لا يمكن أن ننسى دور الرعاية للأطفال الذين لاأسر لهم أو فقدوا أسرهم، والمنتشرة على مساحة الوطن، والتي تكفل لهؤلاء الأطفال رعاية واهتمامًا يعوضانهم عن فقدانهم لأبويهم، أو حرمانهم منهما. وهذه الدور لقيت باستمرار عناية خاصة وميزانيات ثابتة، ومقرات ومستلزمات أمنت لها القيام بواجبها في المراحل العمرية كافة.

- المكدر الثاني هو المرض، وإبعاد شبح المرض إنجاز تم العمل عليه بكفاءة عالية شهدت بها المحافل والمنظمات الدولية. فقد كان الحرص واضحًا على أن ينال الطفل رعاية صحية متميزة ومجانية لم توفرها الكثير من الدول لأبنائها.. من حيث بناء المستشفيات العلاجية المجانية المتطورة بمستلزماتها التقنية وكوادرها البشرية العالية التأهيل. وتقديم أفضل وسائل العناية بالأطفال عبر شبكة من المستوصفات الثابتة والمتنقلة المبثوثة في كل أنحاء الوطن.

ولعل الجانب الأهم في هذا المجال هو الجانب الوقائي الذي تجلى في حملات التلقيح الوطنية المتتابعة والشاملة والتي استطاعت أن تستأصل كثيرًا من الأمراض التي كانت حتى وقت قريب تحصد فلذات أكبادنا وتسبب لهم إعاقات دائمة.

- كما تجلى في تأمين الغذاء الضروري والدواء الوطني بأسعار رخيصة وبمتناول الجميع..

- المكدر الثالث كما يحدده القائد الخالد هو التخلف وهل هناك سبب أهم منه في تعاسة الأطفال وشقائهم. إنه الداء الوبيل الذي يخطف هناءة الأطفال ويسرق منهم براءة طفولتهم.. وإبعاد شبح التخلف لا يكون إلا بتحقيق تنمية اجتماعية ونهضة اقتصادية حقيقية.. وهو ما كان هاجسًا للأسد في أفعاله وأقواله وكان تحقيقه هو مطلبه ومبتغاه، وهو ما عمل له وسهر على تنفيذه طيلة عقود ثلاثة، ولن أعدد هنا ما تم تحقيقه لكن يكفي فقط أن أشير إلى أن

سورية انتقلت بفضل توجيهاته وعمل أبنائها المتواصل من مرحلة الحاجة والعوز في مجال الغذاء إلى مرحلة الكفاية ثم الوفرة الغذائية - وإلى أن تنميتها الصناعية بقيت تسير بخطى ثابتة - رغم تعرضها لبعض الصعوبات التي كان أحد أسبابها الأساسية الحصار الذي فرض عليها كثمن لموقف سياسي مبدئي صلب لم يلن أبدًا.

وهكذا، وبإبعاد شبح هذه المكدرات ستوجد مقومات الحياة السعيدة والتي هي ماصدقات الكفاية التي وجدت بعد إبعاد شبح الحاجة والعافية التي تحققت بإبعاد شبح المرض وقائيًا وعلاجيًا. ومن ثم لا تكتمل مقومات الحياة السعيدة إلا بتوفر العلم والمعرفة وهذه بحاجة إلى وقفة مطولة لأن ماصدقات مفهومها أكثر من أن تحصى.

فالعلم والمعرفة حتى يخرجا من حيز الممكن المطلوب إلى حيز الواقع المأمول، بحاجة إلى شروط - إلى أدوات ووسائل تحول الإمكان إلى فعل محقق.. وهذه الأدوات والوسائل والشروط.. تنقسم إلى شقين: شق مادي يتمثل في توفير أماكن تلقي العلم والمعرفة وهي في هذه الحالة المدارس وروضات الأطفال والمعاهد والجامعات.. التي انتشرت في بقاع الوطن كافة، حيث وصلت المدارس إلى أصغر تجمع فيه وأمنت مستلزماتها المادية لضمان القيام بعملية تعليمية جيدة المستوى ومضمونة النتائج. بالإضافة إلى تأمين مستلزمات ثقافة الطفل من كتب ومجلات وقصص بأرخص الأسعار وتزويد المكتبات المدرسية بها.

أما الشق المعنوي الإنساني فهو المعلم الذي تم تأهيله ليقوم بهذه المهمة الوطنية والإنسانية، عبر معاهد وجامعات ودورات تدريبية.. وهل نحن بحاجة هنا إلى تقديم إحصائيات تدلل على العمل الجبار الذي تم إنجازه في هذا المجال.. أم أن الإنجازات تتكلم عن نفسها وتري الأعمى حجم العمل الذي انعكست آثاره الإيجابية على كل منزل وكل أسرة..

وهناك أيضًا شق قانوني في هذا الموضوع والذي تمثل بقانون التعليم الإلزامي -الذي ألزم الأهل بتعليم أولادهم حتى نهاية المرحلة الابتدائية[٢] لأن هذا الأمر لم يعد مسألة اختيارية بل هو واجب وطني يتحتم على الأهل القيام به خاصة بعد توفير المدارس ومجانية التعليم في هذه المرحلة.

ولا ينبغي علينا أن ننسى منظمة الطلائع التي أنشئت للاهتمام بالطفل وتوفير الجو الأمثل له لتنمية شخصيته وممارسة أنشطته وهواياته والتي عبرها يتم اكتشاف المبدعين والمتفوقين الذين تتم

٢- وقد تم مؤخرًا مد مرحلة التعليم الإلزامي حتى نهاية المرحلة الإعدادية (سابقًا) في إطار مسيرة التحديث والتطوير، التي أقلع بها الرئيس بشار الأسد منذ تسلمه مقاليد الحكم.

متابعة رعايتهم عبر مدارس متخصصة لهذا الغرض تكون مصنعًا لجيل التطوير.

من كل ما سبق ذكره تتجلى الرؤية الاستراتيجية البعيدة المدى، ويتضح التفكير المنطقي السليم: إذا كنا نريد وطنًا حرًا مستقلاً متطورًا بالاعتماد على قدراته الذاتية إذن يجب أن نبني له الإنسان القادر على تحقيق ذلك وعلى حمايته وصيانته في الوقت نفسه. وهذا لا يكون إلا بمواطن سليم معافى متعلم ومتنور، وللوصول إلى هذه الغاية ينبغي البدء من حيث يجب أن نبدأ: من الطفل. بهذا الربط السببي الصحيح والسليم - يتم العمل. وقد اتخذت الإجراءات ووفرت الوسائل والسبل للعناية بالطفل ليس منذ ولادته فقط بل منذ أن يكون جنينًا في بطن أمه التي تلقى الرعاية الصحية التامة والتوعية الكافية وفي هذا الصدد يقول القائد الخالد:

«كان هناك نشاط كبير في مضمار الرعاية الصحية ورعاية الطفولة ومن ضمنها حملات التلقيح الوطني التي وفرت المناعة لأطفالنا رجال المستقبل من الخطير من الأمراض والأوبئة[٤].

ولعل أبلغ دليل على أن الأفعال هنا كانت هي القول الفصل في ما تم تقديمه للأطفال هو قول القائد الخالد في حديث صحفي لجريدة البعث بمناسبة السنة الدولية للطفل:

«ليس هناك من كلمة يمكن أن نوجهها إلى شعبنا بشكل عام ولأطفالنا بشكل خاص أبلغ من جميع الإجراءات التي نقوم بها. وقمنا بها خلال السنوات الماضية بعد الحركة التصحيحية»[٥].

وهذا يعني أن كل ما تحقق كان من أجل الطفل. لأن كل الأفعال والأعمال والإنجازات والمشاريع التي كان هدفها بناء المواطن الصالح السليم والقادر على القيام بالتزاماته وأداء واجباته تجاه وطنه، يقول القائد الخالد مؤكدًا ذلك:

«نحاول أن نوفر لأطفالنا كل ما يمكن أن يجعل منهم شبابًا في الغد، صالحي الجسم والعقل، مؤهلين التأهيل الكامل لمواجهة التحديات التي تواجهنا الآن. والتي يمكن أن تواجههم في المستقبل[٦].

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: هل بناء الإنسان -المواطن يقتصر على توفير الكفاية المادية وتأمين الرعاية الصحية والناحية التعليمية؟ أم أن هناك جانبًا قيميًا تربويًا في الموضوع؟

لم تغب عن رؤية القائد الخالد معالجة هذا الجانب، لأنه أراد بناء مواطن متشبع بمجموعة من القيم الوطنية

٤- من خطاب القائد الخالد بمناسبة ذكرى ٨آذار في ١٩٨٨/٣/٩.

٥- جريدة البعث، ١٩٧٩/١/٢٦.

٦- جريدة البعث، حديث صحفي للقائد الخالد بمناسبة السنة الدولية للطفل ١٩٧٩/١/٢٦

حافظ الأسد والطفولة

والقومية والإنسانية والتي بدونها لن يستطيع إنجاز ما يعوّل عليه إنجازه.

ولعل أول هذه القيم هي قيمة الشهادة، ومعروف مكانة هذه القيمة عند القائد الخالد. فقد كانت دائمًا بالنسبة له قيمة القيم وذمة الذمم. لنسمع ما يقوله في هذا المجال:

«لنبني الإنسان الذي يبحث عن خلوده في خلود شعبه، لنبن الشهيد الحي، إنه كنز الحياة وتراث الخلود»[٧].

فالمواطن الحقيقي هو الذي يتماهى مع شعبه ويتفانى في خدمة قضايا أمته ووطنه، وهو الذي يعلم أن لا حياة له بمعزل عن حرية شعبه واستقلال وطنه. وعبر غرس قيمة الشهادة في النفوس نبني الشهيد الحي الذي هو كنزنا الحقيقي، لأن دمه هو نسغ حياة شعبه واستعداده الدائم للتضحية بحياته هو الضمانة الأكيدة لمنعة وطنه وحصانته، وأمام هذا الشهيد الحي وإزاء إرادته وتصميمه تنهزم أعتى الجيوش وتعجز أحدث أصناف الأسلحة. ولعل ما جرى ويجري الآن في أرضنا المحتلة يقدّم دليلاً ناصعًا على صحة هذا الاستنتاج وصدق مقولته. إذ لا سبيل إلى تحقيق الوطن المنيع المستقل إلا بالمقاومة وبذل الأرواح. إنها جماع القول إزاء محاولات التيئيس وغرس روح الهزيمة وعدم جدوى النضال.

إن المرتبة التي وضع بها الشهادة لم يرفعها إليها قائد قبله لأنه ببصيرته النافذة علم أنها الحصن القوي الذي يحمي الوطن ويشكل سياجًا منيعًا ضد كل من يحاول النيل منه ومن استقلاله وحريته ولهذا نجده يقول:

«لنعلم أولادنا حب الشهادة، فالشهادة خلق الأخلاق وفضيلة الفضائل، إنها شجاعة الشجاعة وفروسية الفروسية»[٨].

وكي نستطيع غرس حب الشهادة في النفوس، وكي نتمكن من بناء الشهيد الحي، لا بد لنا من تعليم أطفالنا الإيثار والغيرية وإبعادهم عن الأثرة والأنانية وحب الذات.. وفي هذه الحالة يصبح الوطن ذاتًا لا الذات وطنًا، ويتحول هذا الوطن إلى نسغ يجري في العروق، تبذل من أجله الأرواح.. يقول القائد الخالد:

«لنعلم أولادنا الإيثار لا الأثرة، لنعلم أولادنا الغيرية لا الأنانية»[٩].

وبتعليم هذه القيم ننطلق من خصوصيتنا الثقافية، وتتجلى أصالة حضارتنا التي قامت عليها، ونتمايز فيها عن حضارات أخرى عنيت وتعنى بتنمية روح الفردية والأنانية التي تقف حجر عثرة في طريق التضحية بكل غالٍ ورخيص في سبيل الوطن وحريته وكرامته.

٧- من خطاب للقائد الخالد بمناسبة ثورة ٨آذار ومؤتمر الفلاحين، دمشق٩/٣/١٩٨٦.

٨- من خطاب للقائد الخالد بمناسبة ثورة ٨آذار ومؤتمر الفلاحين، دمشق ٩/٣/١٩٨٦

٩- الخطاب نفسه في المناسبة ذاتها.

وكالعادة لم يكن يكتفي بالقول بل كان الفعل يتجاوزه -ويتخطاه- فمن يمض لتقديم روحه رخيصة على مذبح الكرامة والعزة يجب أن يمضي وهو مطمئن إلى بيته وأهله، وهذا ما فعله القائد الخالد. ولعل رعايته لأبناء الشهداء وأسرهم معنويًا وماديًا تصل إلى ذروة لم يبلغها أحد قبله، وقمة لم يدانيها أحد سواه.. فعوضًا عن الأب الشهيد وجد أبناؤه وطنًا كاملاً ورعاية أبوية من قائد الوطن واهتمامًا متتابعًا متواصلاً واستفسارًا عن كل صغيرة وكبيرة تخصهم.. وفي هذا كله أبلغ دليل على قرن القول بالفعل واستزادة في الفعل وفيه يقدم درسًا بليغًا على التصميم على مواصلة هذا الطريق في التضحية والفداء.

ولأن القائد الخالد كان مدركًا بأن دور المدرسة والمربين هو دور مكمل لدور الأسرة، فلم ينس أن يتوجه بخطابه إليهم، يزودهم بتوجيهاته وحكمه، وهو الذي قدرهم أرفع تقدير لأنهم يبنون الإنسان الذي هو غاية الحياة ومنطلق الحياة، لنسمعه يخاطبهم محددًا لهم مهمات أساسية بالقول:

«أنتم الأساس الأهم في ربط الإنسان بأرضه ووطنه، أنتم الأساس في تخليص الإنسان من رواسب التخلف أنتم الأساس في تلقين أطفالنا وشبابنا بديهية حب الوطن والدفاع عنه ضد أعدائه، أنتم الأساس في بناء العقل والعقل محور الحياة»(١٠).

بهذا القول يحدد مهماتهم الأساسية في بناء العقل الذي هو الأساس لبناء الوطن، هذا الوطن الذي يجب أن تُربى الأجيال على حبه والاستعداد للدفاع عنه، وأن تربى الأجيال على الغيرة عليه وعلى مستقبله، وتعزيز الارتباط بالأرض وإزالة كل رواسب التأخر والتخلف من النفوس والعقول.. وهذا إنما يتم بالنضال من أجل إزالة عوامل الاستغلال وظواهره ونشر العدالة الاجتماعية بحيث يأخذ كل إنسان حسب جهده وقدر حاجته، وعندها فقط وفي وطن حر موحد تسوده العدالة سيتكون مجتمع الإبداع المكون من مواطنين يبذلون الجهود المخلصة للبناء ويعطون بلا حدود. يقول القائد الخالد مخاطبًا المعلمين:

«في أعناقكم أمانة وطنية وقومية كبيرة، ومسؤوليتكم كبيرة إلى أقصى حد، نحن أمة مجزأة ولا بد أن نناضل من أجل توحيد هذه الأمة، ونحن أمة ما زال الاستغلال يلعب دوره في ربوعها وعلينا أن نناضل من أجل إزالة كل عوامل الاستغلال وظواهر الاستغلال وأية حقيقة تتصل

(١٠) من خطاب القائد الخالد بمناسبة ثورة الثامن من آذار، والمؤتمر الطارئ للمعلمين. دمشق/ ١٦/٣/١٩٨٠.

بحقائق الاستغلال.. علينا أن نناضل دون هوادة ونحن نعرف أن القضاء على الاستغلال ليس أمرًا سهلاً ولا يتم خلال مدة زمنية قصيرة، وإنما يجب أن نناضل من أجل ازالته في إطار برنامج زمني لكي نصل إلى مجتمع لا مستغل فيه إطلاقًا، لكل إنسان حسب جهده وحسب حاجته. وعندما نستطيع أن نحقق مثل هذا المجتمع سيكون مجتمع المبدعين، مجتمع المواطنين القادرين على العطاء بدون حدود»(١١).

في مثل هذا الوطن ستتفتح الطاقات والمواهب، التي ستنهض بالوطن وتلحقه بمصاف الأمم المتطورة على الأصعدة جميعًا. وهذا بالتأكيد لا يحصل دفعة واحدة بل عبر برامج وخطط وآليات زمنية متدرجة ومتكاملة تتوزع فيها المهمات والأدوار ولا يقل فيها دور عن آخر، لأن جميع الأدوار هي مهمات متتالية على جبهة من الجبهات. يقول القائد الخالد:

«أمانة كبيرة في أعناقكم هؤلاء الأبناء والبنات وواجب مقدس هذا الذي تقومون به لا يعلو عليه واجب على الإطلاق، أنتم هنا جنود محاربون ومقاتلون بكل ما تعنيه هذه الكلمات من معنى»(١٢).

ولا يغيب عنه أن يخاطب الأطفال أنفسهم فيتوجه إليهم مباشرة قائلاً:

«كذلك أنتم أيها الأبناء والبنات، يجب أن تستفيدوا من جهود مشرفيكم ومشرفاتكم أقصى ما تكون الاستفادة.. أنتم الذين نعلق عليكم الأمل»(١٣).

بهذا الأسلوب الجدي الذي يشعر به الأطفال بأنه يحترم عقولهم، ويثق بقدراتهم، لا بل يعلق عليها الآمال الكبيرة لأنهم هم الذين «سيكملوا مسيرة التحرير التي نعبرها اليوم، أو بدأناها وبدأ بها أجيال من قبلنا، وأن يواجهوا هذه المرحلة بكفاءة أتمنى أن تكون أفضل من الكفاءة التي نواجهه بها نحن اليوم»(١٤).

هكذا تبرز ثقته بجيل المستقبل، النابعة من اعتزازه بأمة ولاّدة ما انفكت تنجب العظماء وتتواصل عبر التاريخ رغم النكبات والمؤامرات.. أمة تعلن تجددها عبر كل جيل.. وتعلن رفضها للاندثار وتصميمها على مواصلة رسالتها الإنسانية في الحضارة البشرية، وهذا يتطلب جهودًا كبيرة مبرمجة وأهدافًا محددة قد تكون بعيدة المدى لكنها تتطلب أن نعد أجيالنا

(١١) - من كلمة للقائد الأسد في زيارة لمعسكر طلائع البعث، ١٩٨٠/٧/٣٠.
(١٢) - الخطاب ذاته، المناسبة ذاتها والمكان والزمان.
(١٣) - المعطيات ذاتها.
(١٤) - المعطيات ذاتها.

لمتابعة المسيرة وبقدرة أكبر. يقول مخاطبًا المشرفين:

«يجب أن نعد هؤلاء الأبناء والبنات بحيث يستطيعون أن يكونوا أكثر قدرة على العطاء من جيلنا نحن آخذين في الحسبان أن قوى التخلف والاستعمار في الداخل والخارج أيضًا مستميتة في منع مسيرة التقدم والبناء»(١٥).

وفي لقاءاته مع الأطفال في مدارسهم ومعسكراتهم كانت تفيض عاطفته الأبوية الجياشة وينبثق حنوه ورأفته من بين الحروف قائلاً:

«تحيتي لكم لكل منكم، محبتي لكم لكل منكم، قبلتي لكم، لكل منكم»(١٦).

وكان حرصه شديداً على مخاطبة الأطفال بلغة يفهمونها وبعبارات مبسطة واضحة صادقة يشرح فيها مراحل من تاريخنا، آخذًا دور المعلم والأب والصديق، يضع النقاط على الحروف ويحدد المشاكل ويطرح الحلول، واثقًا من أن المعلمين يقومون بدورهم على أكمل وجه(١٧)، معززين ارتباط أبنائنا بتاريخهم وأمتهم، وموجهينهم نحو الطريق الأمثل لمواصلة الرسالة الحضارية للأمة العربية. وانطلاقًا من الاعتزاز بالماضي المجيد للعرب ومساهمتهم في بناء الحضارة الإنسانية يقول مخاطبًا أجيال المستقبل:

«أطفالنا-شباب المستقبل يجب أن يساهموا مع شباب الأمم الأخرى في هذه المرحلة والذين سيكونون شبابًا في المستقبل يجب أن يساهموا في رفع مستوى الإنسانية في بناء كل ما هو مفيد للإنسان أينما كان موطن هذا الإنسان، إن أمتنا، إن صح التعبير، أمة الإنسانية، بمعنى أن نحب لغيرنا من الأمم بقدر ما نحب لأنفسنا وهكذا سنعلّم أطفالنا الذين نرعاهم في هذه المرحلة التاريخية»(١٨).

بهذه الروح الإنسانية السامية يريد لأجيالنا أن تتعلم وتعمل في رد على مقولة صراع الحضارات، لأن الحضارات والثقافات تتعاون لما فيه خير الإنسانية أو هكذا يجب أن تكون، ولذلك كان السلام خيارًا استراتيجيًا للقائد الخالد لأنه أراد للأطفال «حياة خالية من أسباب وعوامل الخوف والرعب والإرهاب»(١٩).

وهل يكتمل الحديث -إذا كان ممكنًا

(١٥) المعطيات ذاتها.
(١٦) المعطيات ذاتها.
(١٧) انظر مثلاً حديث القائد الخالد للطلائعيين أثناء زيارته لمعسكرهم في ١٩٨٠/٧/٣٠.
(١٨) من حديث القائد الخالد الصحفي بمناسبة السنة الدولية للطفل، ١٩٧٩/١/٢٦.
(١٩) من خطابه في الدورة العاشرة لألعاب البحر المتوسط، ١٩٨٧/٩/١٢.

أن يكتمل بمعنى الإحاطة والشمول بالموضوع كله- هل يكتمل دون استذكار مقولته الخالدة أبداً

«غنوا مع الأطفال والعبوا معهم، تعلموا منهم وعلموهم» والتي تختزل نظرته إلى كيفية التعامل مع الطفل وهي كيفية متسقة مع أعمق النظريات العلمية في هذا المجال.. وكي نستطيع أن نصل إلى قلوب الأطفال ونعلمهم يجب أن نعيش معهم طفولتهم، باللعب والغناء، وممارسة الأنشطة والتعلم منهم، فهم مدرسة حقيقية تزرع الفرح في أيامنا وتعد بالخير في مستقبلها.. يقول القائد الخالد:

«أشعر بكل سعادة وأنا أراكم تصفقون وتبتسمون وتمارسون تدريباتكم وهواياتكم»(٢٠).

وبعد ذلك كله لا يمكن، بل لا يصح، أن يكون هذا الحديث في ذكرى الغياب الثانية، بل هو في ذكرى الحضور الدائم الذي لن يكف عن التجدد طالما أن النهج مستمر والنسغ الأسدي يجري في عروق وأفكار الرئيس بشار الأسد الواعد بمسيرة تحديث وتطوير لن تتوقف أبداً.

(٢٠) من كلمة القائد الخالد في زيارته لمعسكر طلائع البعث، ١٩٨٠/٧/٣٠.

ذهنيّة حضاريّة رعت الفن والفنانين

د. محمود شاهين(*)

لا يختلف اثنان، على أن سوريّة العربيّة، عاشت في عهد القائد الخالد «حافظ الأسد» حالة عالية ورفيعة من التطور المتعدد الجوانب، منها الجانب الثقافي التي تأتي الفنون التشكيليّة في مقدمته، وهذه المفصلة الهامة من الثقافة البصريّة، تعيش اليوم عصرها الذهبي، وهذا الأمر ما كان ليتحقق لولا الذهنيّة الحضاريّة التي قادت سوريّة خلال الثلاثة عقود الماضية ولولا الرعاية الكريمة التي خص بها قائد الأمة، المؤسسات المعنية بهذه الفنون، والدعم المتواصل للعاملين في حقولها المختلفة.

(*) د. محمود شاهين: أستاذ بكلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق وناقد تشكيلي ينشر أبحاثه في الدوريات المحلية والعربيّة وله عدة مؤلفات.

والحقيقة، ويومًا بعد يوم، تتكشف عبقريّة القائد الخالد حافظ الأسد عن جوانب مهمة ورائدة، نهضت واقعًا ملموسًا في حياة الوطن. واقعًا كنا نعيشه وننعم به، وها هي الأيام في تسارعها المذهل، تلقي المزيد من الضوء على المفاصل الرئيسة للتحولات والانعطافات الكبرى التي أحدثتها هذه العبقريّة في حياة وطننا وأمتنا، وهي تحولات من التنوع والغنى والأهمية بحيث غطت جوانب الحياة وفعالياتها كافة: السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة، وشكلت في الوقت نفسه، أساسًا راسخًا للمستقبل القادم، الذي يتابعه بنفس الذهنية المتطورة الرئيس بشار الأسد.

إن قدرات تستطيع أن تتفاعل مع مرافق الحياة وأوجهها الكثيرة، بهذا العمق والشموليّة والتنوّع والذكاء واستشراف الآتي، لا يمكن أن تتوفر سوى لقائد فذ ملهم، أدرك بوعي كبير، ونظرة ثاقبة، ورؤية عميقة وسليمة وشاملة، احتياجات شعبه وأمته ومتطلباتهما الملحة، فوضع نصب عينيه، هدف تحقيقها وترجمتها، إلى واقع ملموس، رغم التحديات الكبيرة، والظروف البالغة الصعوبة التي أحاطت به محليًا وعربيًا ودوليًا.

لقد أدار القائد الخالد التحولات، وفي كافة المرافق، بكثير من الحنكة والذكاء، وبذهنية حضاريّة هضمت التاريخ القريب والبعيد، لهذا الوطن، وهذه الأمة.

لقد تمثل القائد الخالد حافظ الأسد هذا التاريخ بعمق وإعجاب ومحبة وفهم نادر، ثم حاول تلوين النهضة السوريّة الحديثة به، لمنحها عمقها الحضاري الأصيل، ولإسنادها وحمايتها من خطر التذويب الذي يتربص ثقافة الشعوب وموروثها وخصوصيتها ومستقبلها، تحت يافطة الاصطلاح الملتبس «العولمة»!!.

كان القائد الخالد حافظ الأسد يريد لهذه الأمة الأصيلة والعريقة أن تبقى في المحور الرئيس لجذر الحضارة الإنسانية الرفيعة، كما كانت دومًا، لذلك عمل جاهدًا على استنهاض همم سدنة الجمال وصناعه في سوريّة، ودفعهم لتمثل تاريخهم وحضارتهم وإرثهم، والتوجه به ومن خلاله، إلى المستقبل والعصر، لالتقاط روحه ونبضه ولفتته وتلاوينه، إنما دون تطرف أو ذوبان كامل في تياراته، والتماهي المطلق مع إفرازاته، وإنما من خلال شخصياتهم الناهضة على إرث بلادهم، وبهدي من تاريخ أمتهم ومقوماتها المرتبطة بزمان ومكان محددين.

وهكذا كانت سوريّة الحضاريّة العريقة والأصيلة، وصورة سوريّة الحديثة، القوية،الجميلة، تتعانق في فكر القائد الخالد وذهنه. كان ينظر بلهفة وإعجاب

وافتخار إلى التاريخ، وينظر بثقة وأمل إلى المستقبل، هدفه أن يعانق الماضي الحاضر، وأن يعاود هذا الوطن العظيم، والأمة الخالدة، الدور القديم- الجديد في المساهمة بصنع حضارة الإنسان الجديدة، وتأسيس مجده الرفيع، فوق هذه الأرض المباركة. ولأن الأمن والاستقرار والحريّة، كانت المقومات والأسس الرئيسة ولا تزال الشروط الأهم، لنهوض الأوطان، وتطور الأمم والشعوب وتقدمها، ولإيمانه الراسخ والعميق بدور الثقافة المحوري، في عملية تحقيق هذا التطور، واحتضانه والتعبير عنه وعكسه، فقد أولاها الاهتمام والرعاية، ووفر لها مقومات نهوضها وتطورها وانتشارها، وفي مقدمة هذه الثقافة، جاء الفن التشكيلي الذي يُشكّل مدماكًا رئيسًا من مداميكها.

لقد سعى القائد الخالد، ومنذ بدايات الحركة التصحيحية المجيدة، إلى توفير الأمن والاستقرار لسورية، وفي ظل هذه الحالة التي تُشَكّل مقدمة لا بد منها، ورافعة حقيقية للثقافة، نهض الفن التشكيلي السوري، وبرعاية مباشرة منه، للعاملين في حقوله المختلفة، وللمؤسسات المعنية به، وفي مقدمتها كلية الفنون الجميلة في جامعة دمشق الذي وجه عام ١٩٧٣ بتشييد مبنى جديد لها، يعنى بحاجات التعليم فيها، ويوفر المقومات اللازمة لمساهمتها في تحقيق النهضة الثقافيّة السوريّة الحديثة. ثم طالت رعايته الكادر التدريسي فيها الذي أصبح اليوم بكامله وطنيًا، بعد أن اعتمدت الكلية، ولسنوات طويلة، على الخبرة الفنيّة التدريسيّة العربيّة والأجنبيّة، بل لقد أصبحت كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق (وهي الوحيدة في سوريّة) تغذي حاليًا، الكثير من الجامعات العربيّة بالخبرات التدريسية التشكيليّة السوريّة الأكاديميّة، وفي مختلف الاختصاصات. فلدينا الآن أساتذة معارون إلى الأردن والسعوديّة والإمارات العربية المتحدة واليمن والجزائر وليبيا، كما تم توسيع أقسام الكلية، وزيادة عدد طلابها.

كما طالت رعاية القائد الخالد الأسد، مديريّة الفنون الجميلة في وزارة الثقافة المعنيّة بإقامة المعارض الدوريّة، والمشرفة على صالات العرض الخاصة، والمنوط بها استقدام المعارض الخارجيّة، والمشاركة في البيناليات العربية والدولية، ونقل النتاج الفني التشكيلي السوري إلى العالم، والإشراف على إصدار مجلة «الحياة التشكيلية» التخصصيّة، وإعداد وتنظيم وإقامة المعارض الخاصة بالفن التشكيلي والتصوير الضوئي والخط العربي، ضمن المهرجانات والتظاهرات الفنيّة والثقافيّة العديدة، كمهرجان المحبة

ذهنية حضارية

والبينالي العربي الذي يقام كل عامين في إطاره، وغير ذلك من الفعاليات والمهام المحوريّة والرئيسة المنوطة بها.

كما رعى ودعم نقابة الفنون الجميلة التي دأب على استقبال أعضاء مجالس إدارتها، رغم مشاغله الكثيرة، والسماع منهم مباشرة، إلى همومهم وأحلامهم، وإليه يعود فضل بقاء مقر النقابة المركزيّة في دمشق، وصالة عرضها الاستراتيجيّة الموقع «صالة الشعب» ووجه إلى ضرورة تشجيع الفنان التشكيلي السوري ورعايته وتوفير الظروف المناسبة التي تساعده على الإنتاج والتوسع فيه، ونقل إبداعه إلى المحافل العربيّة والدولية وصالات العرض المحلية، وتاليًا تطوير إبداعاته باستمرار وتعميقها ووضعها في خدمة الحياة الجديدة المتنامية في الوطن، كما وجه لاقتناء المتميز من إبداعات فنانينا، لذلك كـــانت الدولة ولا زالت، ممثلة بوزارة الثقافة،المقتني الرئيسي لأعمال فنانينا التشكيليين السوريين .

إن مراجعة متأنية للعقود الثلاثة الماضية التي كان خلالها الرئيس الخالد حافظ الأسد قائدًا لسورية العربيّة، نجد أنه حوّلها إلى ورشة عمل وإبداع وابتكار على الصعد كافة. ومنها الفنون التشكيلية التي تقف اليوم، في طليعة ألوان وأجناس الثقافة البصريّة السوريّة: انتشارًا وتطورًا وتألقًا وازدهارًا. وهذا الأمر طال وسائل تعبيرها وتقاناتها ومضامينها التي ظلت لصيقة بواقع الوطن وآماله وهمومه وأحلامه، وحال الأمة وطموحاتها. كما ظلت لصيقة ببيئتها وتراثها وبعصرها وكشوفاته المتلاحقة في آنٍ معًا.

لقد تلقت الحركة الفنيّة التشكيلية السوريّة من الحركة التصحيحيّة وقائدها الخالد حافظ الأسد، كل دعم ورعاية وتشجيع، وبأكثر من شكل ووسيلة، وهذا ما جعلها تحقق الانطلاقة الواثقة، والانتشار الواسع، الذي تعيشه هذه الأيام. غير أن السؤال الذي يفرض وجوده اليوم، وبكثير من الإلحاح: هل تستمر هذه الانطلاقة؟ وهل يتوسع انتشارها ويتعزز، وفق الأصول الراسخة، والتوجهات النبيلة التي تربت عليها، في ظل التصحيح وقائد التصحيح؟

من الناحية العمليّة، وتأسيسًا على المعطيات والمؤشرات الواقعيّة، فإن حركة التصحيح بأبعادها الاقتصادية والسياسيّة والثقافيّة وتوجهاتها الحضاريّة، ما زالت مسيرتها مستمرة، وهذا يعني أن على الفنون التشكيلية السوريّة المعاصرة، متابعة صعودها، بالزخم نفسه، والتوجهات ذاتها، وصولاً إلى تحقيق جملة من المعادلات الحضاريّة التي أصبحت لصيقة بمقولات: «الدولة الحضاريّة» و«الدولة المتطورة» و«الدولة الراقية» وذلك لأن الفنون عامة،

ذهنية حضارية

والفنون التشكيلية خاصة، باتت من أبرز عناوين ومؤشرات الدول هذه، ولعل هذا ما دفع بالمهندسين المعماريين المنوطة بهم مهمة تنظيم المدن، ربط عملية التنظيم هذه، بالفنون التشكيلية. فقد أكد التاريخ، أنه من الأهمية بمكان، تعانق فن العمارة وتنظيم المدن مع الفنون التشكيلية، وذلك حتى تعود للعمارة روحانيتها، ويقف المهندس على قيمتها. من أجل هذا تقوم الندوات والمؤتمرات العالمية كافة، بالتأكيد على ضرورة الاهتمام بالفنون التشكيلية ضمن التصميمات المعمارية، وقد قامت في العصر الحديث، تجربة رائدة في هذا المجال، قادها المعمار الفرنسي «لوكوربوزيه» ظهرت نتائجها بشكل واضح في المكسيك والبرازيل، وقد أكدت لنا هذه التجربة الرائدة، ضرورة ضم عائلة الفنون الجميلة إلى بعضها، لخلق فن جديد كبير متكامل. هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن انتشار الفنون التشكيلية، وازدياد المنافذ الرسمية والخاصة التي تقدمها للناس، إضافة إلى وسائل الإعلام المختلفة، من شأنه الارتقاء بالذائقة الجمالية البصرية لدى الناس، وهذا بدوره يؤدي إلى تحسين حياتهم، وتطور أدائهم في البيت والعمل، ويشدهم أكثر إلى بيئتهم وأوطانهم، فالمكان الجميل المريح، المنظم يفتح شهية المرء على العمل والإنتاج، ويوفر مستلزمات الإبداع والابتكار والتفكير السليم، أمام الإنسان، والعكس صحيح أيضًا، فالمكان المحكوم بالفوضى والبشاعة وعدم الترتيب، يقلل من جاهزية المرء على الانتاج والابتكار والخلق والتطور.

وبنظرة متفحصة على واقع الفنون التشكيلية السوريّة المعاصرة، نجد أنها قطعت شوطًا بعيدًا في التطور والانتشار، ولا سيما على صعيد الأثر الفني الصالوني الصغير الذي يستأثر به فرد أو أسرة أو مؤسسة، بينما لا يزال الأثر الفني الجماهيري «النُصبي» متواضع الحضور في حدائق وساحات وشوارع ومداخل وعمارة مدننا وبلداتنا، كذلك على واجهات أبنيتنا، مما يستدعي الالتفات إلى ذلك، وإحياء تظاهرة ملتقيات النحت التي غابت أو تكاد، عن حياتنا، بعد فورة لافتة من النشاط والحيويّة، أفرزت عددًا كبيرًا من التماثيل الحجريّة والرخاميّة، بدأت تظهر في عدد من حدائق وشوارع دمشق، مانحة إياها جمالاً وذوقًا وحضارة.

وكان السيد الرئيس بشار الأسد قد شجع ورعى وتبنى ظاهرة ملتقيات النحت، وزار معظمها، تدليلاً على مباركته لها، واهتمامه بها، بعدّها من أهم وأفضل مصادر رفد حدائقنا وشوارعنا وساحاتنا بالأعمال الفنية الفراغية التزيينية، وبالتالي تعويض فقر فنوننا التشكيلية إلى مثل هذه الأعمال.

من هنا يجب على المعنيين بتنظيم

ذهنية حضارية

وإقامة هذه الملتقيات، إعادة إحيائها والانطلاق بها من جديد، إنما بعد توفير مستلزمات نجاحها، واقتصارها على أعمال النحت المباشر الذي ارتبط بالأساس، بملتقيات الهواء الطلق، وكان وما زال محورها، ليس في بلادنا فحسب، بل في كافة أنحاء العالم. كما يجب إحياء فكرة قديمة كانت قد طرحتها نقابة الفنون الجميلة على نقابة المهندسين، وهي تخصيص نسبة بسيطة من كلفة البناء، للأعمال الفنيّة التزيينيّة الملحقة بالبناء بشكل عضوي، أو الناهضة إلى جانبه كجزء منه، ضمن مساحة خضراء، وبالتالي استصدار قوانين ناظمة تفرض على المعنيين الالتزام بهذا التوجه الحضاري الهام الذي يُعيد الفنون التشكيلية إلى أمها «العمارة» التي تاهت عنها طويلاً في بلادنا، وهذا ما تحتاجه بالحاح، نهضتنا الحديثة التي يقودها السيد الرئيس بشار الأسد حاليًا، بذهن حضاري متقدم.

نحن بأمس الحاجة اليوم، إلى ربط محكم بين الفنين المتحدرين من صلب أسرة واحدة هي «الفنون الجميلة». فالبناء سكنيًا كان أم خدميًا، بحاجة ماسة إلى مسحة من الذوق والجمال، يُضفيها عليه الفن التشكيلي بأجناسه المختلفة.

لقد وفرت الحركة التصحيحية المجيدة التي قادها باقتدار القائد الخالد حافظ الأسد خلال ثلاثة عقود، مستلزمات نهوض حركة فنيّة تشكيليّة سوريّة متكاملة شكلاً ومضمونًا، تستلهم ماضي أمتها المجيد، وحضارة وطنها الأصيلة والعريقة، وتستفيد في الوقت نفسه، من التقانة الحديثة، إنما دون شطط أو مبالغة، لكي لا تنحرف عن أهدافها الأساسيّة، من الارتقاء بالذائقة الجمالية لدى مواطنينا، وتجميل عماراتنا وساحاتنا وشوارعنا وحدائقنا ومكاتبنا ومؤسساتنا المختلفة ومنتجاتنا الصناعية... الخ.

فالفن التشكيلي لم يعد لوحة أو محفورة مطبوعة أو منحوتة فقط، بل هو لمسة جماليّة حضاريّة يجب أن تطول كل شيء في حياتنا المعاصرة.. لمسة تكتنز على قيم وخصائص ومقومات حضاريّة مستمدة ومستلهمة من شخصيتنا وخصائصنا وحضارة بلادنا العريقة، وفي الوقت نفسه، تُعيد صياغة التقانة الحديثة وفق هذه الخصائص والمقومات والقيم، لتأخذ نكهتها المميزة وتفردها الخاص.

من هنا على فنانينا التشكيليين التشبث بأصولهم وموروثهم، وعدم التضحية في الوقت نفسه، بالتقانة الحديثة الضرورية والهامة.

لقد رعى القائد الخالد حافظ الأسد المبدعين من فنانين وكتّاب وأدباء،كما رعى إبداعاتهم بتوفير الشروط المناسبة

لنموها وتطورها ونقلها إلى الناس. كما عني بمؤسساتهم من نقابات وجمعيات واتحادات، إيمانًا منه بدور الثقافة التي عدّها من الحاجات العليا للإنسان، وتكاملها مع حاجاته المادية، فالثقافة تلبي حاجة الإنسان الروحيّة إلى الجمال والذوق والرقي والنظام والترتيب والسمو والانطلاق والمحبة والفرح والخير، لذلك عدّ القائد الخالد حافظ الأسد الثقافة حاجة عليا للإنسان، ووجه من أجل توفيرها بكل ألوانها وأجناسها، والنهوض بها باستمرار.

وهكذا تألقت سورية في عقود التصحيح الثلاثة: تألقت في الميادين كافة، ومنها ميدان التشكيل الذي أصبحت له مؤسساته الراسخة، وتقاليده العريقة، وتطلعاته الواسعة، وله رواده المتمكنون من أدوات تعبيرهم، مما جعلهم يحققون تجارب هامة، تجاوزت في حضورها الساحة المحلية إلى الساحة العربية والدولية، والأمل في أن تتابع حركتها التشكيلية السورية انطلاقتها الواثقة، بالمعطيات والأهداف نفسها، وبالخصائص التي تقربها من الناس وأحاسيسهم ومداركهم. فالفن الذي لا يضع في حسابه الوصول إلى الناس... كل الناس، بهذا الشكل أو ذاك، هو فن مغرق في الذاتية، معزول عن الضوء، ومقطوع عن نبع الحياة.

لقد أسس القائد الخالد حافظ الأسد لنهوض سوريّة القوية الجميلة والحضاريّة، بالشكل الصحيح والسليم، وها هو السيد الرئيس بشار الأسد، وبالذهنيّة الحضاريّة المماثلة، ينظر إلى هذا اللون من الثقافة وأهميتها ودورها في التعبير عن تطور سورية الحديثة، وتاليًا عكس الإرث الحضاري الكبير الذي تنهض عليه، مما يُشكّل سندًا كبيرًا لهذه الفنون والعاملين في حقولها. وقد لمست شخصيًّا، في حوار مطول مع الرئيس بشار الأسد أثناء زيارته الملتقى النحت الدولي الأول في الهواء الطلق الذي شهدته مدينة الأسد الرياضية في اللاذقية صيف عام ١٩٩٨ ضمن فعاليات مهرجان المحبة...

لمست النظرة العميقة والمحبة التي ينظر من خلالها، إلى الفن التشكيلي بعامة، وفن النحت منه بخاصة، مما يجعلنا نؤكد أن الرعاية المتميزة لهذا اللون من الثقافة التي أبداها القائد الخالد حافظ الأسد، مستمرة مع الرئيس بشار الأسد، وأن المسيرة الفنية التشكيلية التي تعيش هذه الأيام، حالة لافتة من الازدهار والانتشار والتألق، ماضية في طريقها، في ظل القيادة الشابة المدركة تمامًا، لما تعنيه الفنون التشكيلية في حياة الشعوب والأمم والبلدان، ولما تمثله من رموز عميقة الدلالة والتعبير عن عراقتها وأصالتها وتطورها وتقدمها وانتمائها إلى عصرها في وقت واحد.

الثقافة والأدب فكرًا وممارسة في ظل قيادة حافظ الأسد

د. عبد الله أبو هيف(*)

١ - في الفكر:

١ - ١ - تغير مفهوم الثقافة:

حدد القائد حافظ الأسد مفهومه المختلف للثقافة بوصفها «الحاجة العليا للبشرية» في افتتاحه لمكتبة الأسد عام ١٩٨٤، وأنها حاجة مطلقة لا تحدها حدود، وليست ترفًا أو مظهرًا، لأنها غذاء روحي ومصرفي يبني الإنسان ذاته، ويعطيها معنى الوجود، وتحقق تقدم النوع البشري، وتنفحه المقدرة على مواجهة التحديات الكثيرة.

ودعم القائد حافظ الأسد فهمه الجديد للثقافة بتحديده للاتجاهات التالية:

(*) د. عبد الله أبو هيف: باحث من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب، ينشر في الدوريات المحلية والعربية له عدد من المؤلفات النقدية.

- العناية بمكانة الثقافة في تحقيق الأهداف القومية الكبرى وتعضيد العمل العربي المشترك، حتى غدا «الأمن الثقافي العربي» في مقدمة الأهداف والتطلعات.

- العناية بمكانة الثقافة في التنمية المستقلة والشاملة من منطلق البعد الحضاري والاستراتيجي للتنمية الذي يعول على الإنسان وتمكينه من المساهمة المبدعة والمنتجة في عمليات التنمية.

- العناية بالثقافة الجماهيرية لتعزيز الاتصال بقنوات الثقافة وانتشارها في المدن والأرياف.

وقد استوعبت قضية الثقافة الجماهيرية تحقق الأصالة والينابيع الشعبية للثقافة، وقدر أكبر من المشاركة في إنتاجها من عشرات ألوف المواطنين المنتفعين بها. مثلما جرى تحديث وسائل نشر الثقافة الجماهيرية من خلال تقانة المعلومات ونظم الاتصالات، ولا سيما الاستعمالات المتعددة للوسيلة الواحدة «مالتيميديا»... إلخ.

- العناية بالقاعدة المادية لإنتاج الثقافة من خلال إنشاء المؤسسات الثقافية المتخصصة وإصدار التشريعات النافذة لحمايتها وتوفير الكيفية الإدارية الناجعة لتنظيمها وسيرورة انتشارها.

١ - ٢ - تغير التنمية الثقافية والخدمة الثقافية:

ارتبط العمل الثقافي في سورية منذ بداءته بالوحدة العربية، فسميت الوزارة بوزارة الثقافة والإرشاد القومي، فالوحدة العربية هي «الهدف الأسمى بين كل الأهداف، وهي محور الجهد الفكري والسياسي والقومي الذي يجمع ويعزز كفاح الأمة، ويتصدر ثقافتها، في أصالتها وجديتها، وارتباطها الوثيق بالتراث، عن وعي بالمهمة الكبرى، وهي تربية المواطنين بروح القومية العربية، وتطوير البناء الاجتماعي على أساس إنجاح التنمية وتمجيد العمل، وبث روح المسؤولية ومحاربة التهاون والتواكل والنفعية والتحلل الأخلاقي، والاهتمام بقضايا الشعب».

وفي ضوء هذا الفهم للقيمة الثقافية، كان الشعار الذي أصبح قيد التنفيذ الكامل، هذا الشعار هو «الثقافة للجميع، وفي خدمة الجميع»، إننا قبل أن نعمل لتطبيق الشعار كان علينا أن ندرك أهمية الثقافة، وأن نحدد معناها، ونقدر قيمتها كثروة وطنية وقومية باقية، وكأساس في كل بناء فوقي، يتناول الفكر والعقل والنفس معًا، وفي هذا المجال يمكن القول إن الثقافة هي محطة النشاط البشري، تفكيراً وسلوكًا، وهي بنية فوقية، ناشئة في الأصل عن بنية تحتية، اقتصادية واجتماعية، ففي

المجتمع الرأسمالي تنتج الدولة، أو تتطلب، الدولة، ثقافة هي تعبير معرفي عن الوضع الاقتصادي والاجتماعي الرأسمالي السائد، وفي المجتمع الاشتراكي أو الصائر في طريق الاشتراكية، تنتج الدولة، أو تتطلب، ثقافة هي تعبير معرفي عن الحياة الاشتراكية بكل تطبيقاتها الاقتصادية والاجتماعية، ونحن، في جهدنا الثقافي، ننشر ثقافة من النوع الثاني، تقدم خدمات معرفية للجماهير ترمي إلى توظيفها، وككل علاقة جدلية، يؤثر البناء الاقتصادي بالبناء الثقافي، ويعود هذا ليؤثر في البناء الأول ويرسخه.

من هنا يصبح نشر الثقافة الجماهيرية، مهمة رئيسة من مهمات البناء الوطني والقومي، ويصبح العمل لبلوغ الجماهير ذرى الثقافة الوطنية، القومية، الإنسانية، واجبًا في رأس الواجبات التي تنهض بها الدولة، فالفكر الاشتراكي يرى أن «الفن للشعب» ويضيف «لكي يستطيع الفن أن يقترب من الشعب، ويستطيع الشعب أن يقترب من الفن، يجب علينا، قبل كل شيء، أن نرفع مستوى الثقافة والتعليم ونحن نعمل، في سورية، على رفع سوية الثقافة، وتعميمها، وتقديم خدماتها إلى أوسع الفئات كما نعمل على زيادة التعليم ورفع مستواه، وفي وزارة الثقافة بالذات، ومنذ أن قامت الحركة التصحيحية نسعى بكل أنشطة الوزارة لوضع شعار الثقافة للجميع موضع التطبيق، برغم ما يعترض ذلك من عقبات، أهمها قلة الاعتمادات المالية، وعدم قدرة القطر، لكونه دولة مواجهة، أن يزيد فيها ولأن هناك تفاوتًا في القدرة على توصيل الخدمات الثقافية بين محافظة وأخرى، وتفاوتًا في القدرة على تلقيها، وبسبب الظروف الاجتماعية السائدة.

١ - ٣ - الحرية والالتزام:

حمل خطاب القائد حافظ الأسد في افتتاح المؤتمر الثامن للأدباء والكتّاب العرب المنعقد في دمشق في كانون الأول ١٩٧١ إجاباته المبكرة عن الرؤية المتبصرة لقضية الثقافة والكتابة وأبعادها ومسؤولياتها التنامية المندغمة مع قضايا الأمة العربية والبناء الوطني والاجتماعي والإنساني، ورائدها الالتزام بمعركة الوجود القومي، وقد أعلن إرادته على تمكين الكتّاب والأدباء من أداء مسؤولياتهم الكاملة في الحياة العربية، ومعركة المصير القومي:

«لقد عملنا وسنعمل على إزالة كل ما يمكن أن يضعف من دور الكاتب والأديب ودور أي مواطن، في المجتمع عامة، وفي معركة المصير خاصة».

ثم حدد القائد حافظ الأسد هذه المعركة الدالة على الوجود القومي المهدد بالمخاطر الإمبريالية الخارجية والصهيونية

العدوانية في أرضنا المحتلة، ونبّه إلى أبعاد المعركة القومية التي تواجه بلادنا راهنًا ومستقبلاً مما يتطلب مساهمة الكتّاب والأدباء الإيجابية البناءة:

«لئن كان انعقاد هذا المؤتمر بحد ذاته مناسبة هامة، فالأهم من ذلك انعقاده في مرحلة دقيقة وحرجة من مراحل النضال العربي، هذه المرحلة التي نعيشها الآن، والتي لا مثيل لها في تاريخنا، لأنها مرحلة المواجهة المصيرية، ومرحلة المعركة التي يتوقف على نتيجتها وجودنا أو عدم وجودنا كأمة عربية. فلم يسبق في التاريخ العربي أن كان وجود الأمة العربية مهددًا بمثل هذا التهديد الذي يتعرض له الآن من عدو تسنده قوى الإمبريالية العالمية ويهدف إلى احتلال الأرض وتشريد السكان بغية الاستيطان والتوسع».

وحلل القائد حافظ الأسد أهمية الاستعداد لهذه المعركة القومية الشاملة بجوانبها المختلفة التي لا تقف عند الحدود العسكرية وحدها، لأن هدف التحرير ومواجهة العدوان استراتيجي وحضاري منطلقه الإنسان، وسبيله الوعي بالتاريخ، وتطلعه صيانة الوجود القومي المتمثل بالمهام المرحلية والضاغطة، لتحرير واسترداد الحقوق المغتصبة:

«ولأن هذه المعركة التي يتحتم علينا أن نخوض غمارها هي بمثل هذه الخطورة ومثل هذا الخطر، فهي بالتأكيد معركة الأمة العربية بكل قواها وطاقاتها وإمكاناتها».

«وينبغي لنا أن نستعد لها على مختلف الأصعدة وأن نخوض غمارها في مختلف المجالات، لأنها معركة اقتصادية وسياسية وثقافية وعلمية بقدر ما هي معركة عسكرية. ولكي ننتصر فيها ونسترد أرضنا وكرامتنا يتحتم علينا أن نعمل ونناضل لتحقيق محصلة التفوق على عدونا في هذه المجالات».

«ويتحتم علينا أيضًا بكل إمكانياتنا وطاقاتنا في صميم المعركة، وأن نضعها في خدمة هدف التحرير الوطني المتمثل الآن في تحرير الأرض العربية المحتلة واسترداد حقوق الشعب العربي الفلسطيني».

ورأى القائد حافظ الأسد في التزام الكاتب العربي بهذه المهام محط أدواره المتعددة ومسوغ استهدافاته في تحقق المسؤولية الاجتماعية والقومية مما يجعل من الكتّاب والأدباء طليعة ثوريّة فعالة انتظامًا في معنى المثقف العضوي الملتزم بحياة أمته ومجتمعه المدرك لأسباب الراهن والمستشرف لآفاق المستقبل، مجاوزة للتحديات الكبرى التي تداهم هذا الوجود القومي محنًا وخطوبًا وملمات، وقد كانت بشائر حرب تشرين التحريرية واضحة في خطابه الذي يعضد أداء

الكتّاب والأدباء العرب لمسؤولياتهم الكثيرة طليعة ثقافية فاعلة:

«وفي هذه الظروف ولهذه الأسباب نؤمن بأن الكتاب يشكلون طليعة من طلائع الشعب، وبأن دور الأديب العربي الملتزم بقضايا جماهير شعبه وقضايا الإنسان الكبرى في عصره، دور عظيم عظمة المبادئ التي يلتزم بها ويدافع عنها، وعظمة القضية التي نذر نفسه لها، وعظمة الجهد الذي يبذله في سبيل هذه القضية وتلك المبادئ».

وأمعن القائد حافظ الأسد في تشريح مفهوم الالتزام الذي يجاوز التبشير العقائدي بخطاب محدد بعقيدة أو إيديولوجية أو جماعة ما إلى تفعيل مهام المثقف العضوي الذي لا يقف عند حدود الاستجابة للتاريخ، بل وعيه واستثماره في خدمة مصالح الأمة، على أن رسالة الكاتب والأديب العربي لا تنفصم عن عرى المصلحة القوميةوأن أدوار الكاتب والأديب العربي يحييها على الدوام هذا الالتزام الداخلي والخارجي بالمهام المتنامية للطليعة الثقافية التي تكبر على حدود المثقف التقني وأوهام المثقف الذاتية:

«ونعتقد بأن التزام الكاتب الطليعي إنما ينبثق من إيمانه بأن مصلحته الحقيقية وحريته الحقيقية مرتبطتان بتأدية رسالته الفكرية وإيمانه بأنهما جزء من مصلحة الوطن وحريته».

وعاين القائد حافظ الأسد بصراحة مطلقة حدود الالتزام بمعنى الطليعة الثقافية الذي يتماهى مع الالتزام الأكبر بالقومية العربية ووعي المخاطر المحدقة من تحديات العصر إلى الوعي الذاتي:

«لقد هدف العدوان الغادر في حزيران عام ١٩٦٧م إلى زعزعة صلة الأمة بماضيها المجيد ومسخ تاريخها عبر إثارة الريبة في جدارة الإنسان العربي وقدرته على مواجهة متطلبات العصر وتحدياته. ولا بد أن يكون ردنا على ذلك مزيداً من تعميق الصلة بتراثنا القومي وإحيائه وتأكيد قدرتنا على المواجهة والنجاح وتبوّ المكانة اللائقة بأمتنا بحيث تسهم بكامل قدرتها في إغناء حضارة الإنسان. وقد يكون من المفيد أن نذكر في هذا الصدد أن الصهيونية عمدت إلى نبش ميت التاريخ واللغة لتتخذ منها مصدراً من مصادر الإلهام في الإعداد لقضية الباطل وتنفيذ مخططاتها واستخدمت سلاح الأدب والفكر إلى أقصى الحدود وعلى أوسع نطاق ضد أمتنا العربية. ذلكم أمر تعرفونه ولا ريب في أنكم تخططون لوسائل مجابهته والرد عليه».

ووضع القائد حافظ الأسد الالتزام بالهوية القومية في مقدمة مهام الطليعة الثقافية العربية استحضاراً مستمراً للمقومات التراثية إزاء هيمنة المؤثرات

الأجنبية إلى حدّ المحو التام للهوية والإلغاء المتعمد للخصائص الذاتية، وهذا هو جوهر الوعي بالتاريخ الذي يعضد الذات ويعينها على المحن والنوائب والملمات، لأن روح الكاتب والأديب المتمرد من روح أمته المتمردة:

«وليس في تاريخ أمتنا العربية إلا ما يؤكد رفضها الرضوخ للمصاعب وتمردها على النكسات. ولقد تميز الشعب العربي بروح التمرد على كل واقع يتنافى وعزته وكرامته ويتعارض مع مطامح أبنائه المشروعة».

ووجه القائد حافظ الأسد إلى عناصر الثبات في الوجود العربي عبر التاريخ وعناصر المقاومة لما يثبط العزيمة ويشيع التخاذل والهوان في مواجهة:

«ولذلك نقول وبكل تصميم إن شعبنا يرفض الواقع الذي يريد الأعداء فرضه علينا، نرفضه لأنه يتناقض وكرامة شعبنا وعزته. يتناقض والعدالة التي يؤمن بها شعبنا ويتمسك. يتناقض والحق الذي يقدسه شعبنا ويتناقض مع الحرية التي يناضل شعبنا في سبيلها ويريد أن يمارسها».

وطالب القائد حافظ الأسد الكتّاب والأدباء العرب بالتحلي بما هو أبعد من نوايا الكتابة الملتزمة بهذه الأهداف والتطلعات المشروعة لأمتهم ومجتمعهم، ولن يكون ذلك إلا بالإنتاج الجيد الذي يفعّل مكانة الابداع الثقافي والأدبي في مهام الطليعة الثقافية المنشودة:

«كما نعتقد بأن الكاتب والأديب يفرض نفسه ودوره في المجتمع بالإنتاج الجيد والالتزام بقضايا الشعب وإقامة أوسع اتصال مع الجماهير».

ووجه القائد حافظ الأسد إلى مجانبة أوهام الكاتب أو الأديب الذاتية الخاصة التي تعزله عن شروط الواقع واستحقاقات التاريخ، وتحميه من زلل الانعزالية أو العدمية أو وهاد الانتماء لغير مصالح أمته ومجتمعه، وقدم العون والدعم في إجراءات ملموسة في إطار التصدي لمثل هذه النزوعات الضارة بمسؤولية الكاتب والأديب العربي:

«إذا كانت قد مرت أوقات أحس خلالها كتاب قطرنا بالضياع ونزع بعضهم إلى السلبية بسبب ضياع الحقيقة وبسبب الحواجز التي كانت تفصل بين القطاعات والمؤسسات المختلفة في هذا القطر، فقد عملنا الآن وسنعمل على هدم كل هذه الحواجز. وإزالة كل ما يمكن أن يضعف دور الكاتب والأديب، ودور أي مواطن في المجتمع عامة وفي معركة المصير خاصة. واستكمالاً لذلك فقد اتخذنا وسنتخذ كل الإجراءات الممكنة التي تيسر لرجال الفكر في هذا البلد أن يضعوا طاقاتهم كلها فيما يخدم مصلحة الأمة العربية».

ومن يتأمل أشكال رعاية القائد حافظ الأسد للثقافة والمثقفين كما تتبدى في فاعلية «اتحاد الكتاب العرب» تنظيمًا اضطلع بدوره في تمكين الكتاب والأدباء من مسؤولياتهم التاريخية في سورية بخاصة وفي الحياة العربية بعامة.

ولعلنا نمعن أكثر في رؤية القائد حافظ الأسد لالتزام الكاتب والأديب العربي عندما نتأمل إيمانه المطلق بحرية التعبير لدى الكتّاب والأدباء، وهي التزام الكاتب والأديب بمبادئ أمته وقضاياها الكبرى:

«سنعمل على أن نوفر للكتاب المناخ الحر الملائم كي يمارسوا الكتابة والتأليف مطمئنين إلى حاضرهم ومستقبلهم، ولا رقابة عليهم سوى رقابة الضمير وما يفرضه الالتزام بمبادئ أمتنا وقضاياها الكبرى...».

إن حرية الكاتب والأديب في فكر القائد حافظ الأسد مرتهنة بالوعي، بالتاريخ الذي يمنح الإبداع سماته القومية والإنسانية، ومرتبطة بأدائه الأمثل لرسالته الفكرية على أنها سعي دؤوب ووكد مستمر للتحقق الذاتي للأمة العربية في وجود حرّ كريم، ونابعة في الوقت نفسه من إيمان الكاتب والأديب بهذه المبدئية وفعاليتها العضوية الملتصقة بمصالح أمته ومجتمعه:

«إن التزام الكاتب الطليعي إنما ينبثق من إيمانه بأن مصلحته الحقيقية، وحريته الحقيقية مرتبطتان بتأدية رسالته الفكرية وإيمانه بأنهما جزء من مصلحة الوطن وحريته. كما نعتقد بأن الكاتب والأديب يفرض نفسه ودوره في المجتمع بالإنتاج الجيد والالتزام بقضايا الشعب وإقامة أوسع اتصال مع الجماهير».

ويستفاد من هذا التوجيه الصريح حول التلازم بين الالتزام والحرية أن مصلحة الكاتب أو الأديب لا تنفصم عن مصلحة الوطن وحريته، وإلا انزلق الأديب أو الكاتب إلى «الاغتراب» في مهاوي الانعزالية ومجتمعه، و «تطوح» في مهاوي الانعزالية والعدمية والبؤس. وثمة أمر آخر يتجلى في نداء الحرية المشروطة بالالتزام هو النظر إلى الكاتب والأديب مواطنًا، وليس مبدعًا تحركه أوهامه وأهواؤه.

لقد كان القائد حافظ الأسد واضحًا في ارتباط حرية الأديب بالتزامه بمبادئ أمته ومصالحها، ولا يقبل ذلك تهاونًا أو جدلاً.

والحق، إن هذه الكلمة المشهورة على أقلام الأدباء وألسنتهم، ومجمل ذلك الخطاب التاريخي للقائد حافظ الأسد، قد غدت قوة للممارسة الأدبية وتعزيزًا لموقع الأديب في المجتمع، وتأصيلاً لانتماء الأدب إلى أرض الحرية وقضايا الإنسان العربي، واستقرارًا لحياة الأديب اليومية والمعيشية فقد أصبحت عنوانًا يكتنز أسئلة الإبداع

في أكثر جوانبه إشكالية وجدلاً: الحرية والالتزام. ففي هذه الكلمة إيمان مطلق بحرية التعبير وثقة مطلقة بضمير الأديب من خلال التزام غير محدود بوجدان الأمة وقضاياها الكبرى، وإبداع ينهض بجودته ومصداقيته الواقعية والتاريخية إلى مصاف مهمات التزامية.

٢ ـ في الممارسة:

وننظر الآن في تطور الثقافة والأدب في سورية تعبيراً عن تحقق فكر القائد حافظ الأسد. ونوجز القول بذكر ملامح من هذا التطوير.

الثقافة والأديب في سورية جزء من حركة الثقافة العربية والأدب العربي، بل إن مصطلح سورية السياسي حديث جداً، وتعد الثلاثينيات بداءة الحياة الحديثة في القطر العربي السوري، ولا سيما سنة ١٩٣٧م على وجه التحديد، بكونها سنة إرساء الكيان السياسي والثقافي والأدبي لسورية الحديثة (حسام الخطيب، سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية، ١٩٧٢).

وقد مرت سورية منذ الثلاثينيات بتطورات سياسية واقتصادية واجتماعية كبرى خلال نصف قرن من الزمان، انعكست بشكل واضح على الثقافة والأدب والحياة الأدبية، ويلمس المرء الصلة بين هذه التطورات والحياة الأدبية كلما راجع المسار التاريخي لسورية الحديثة، وقد قطعت المسيرة الثقافية والأدبية أشواطاً كبيرة في نضوج ممارستها، والنهوض بمسؤولياتها في بناء الإنسان وبناء الوطن، إلا أن أهم مرحلة هي مرحلة الاستقرار منذ عام ١٩٧٠م. ونميز الأطوار التالية في الحياة الثقافية: ١٩٣٠ ـ ١٩٤٥م النضال ضد الاستعمار الفرنسي، ١٩٤٥ ـ ١٩٦٣م الاستقلال، ١٩٦٣ ـ ١٩٧٠م مرحلة التغيير مع انطلاقة ثورة آذار، وحفل كل طور بملامح مميزة لا بد من الإشارة إليها بإيجاز، ولا سيما مرحلتي الاستقلال والثورة فقد مهدتا لماتلاهما.

٢ ـ ١ ـ الأدب والتاريخ:

عرف الأدب العربي في سورية منذ بداءته بتطلعاته الوطنية من خلال حرصه على الهوية القومية، ومن خلال سعيه للانخراط بالحركة الشعبية المناهضة للاستعمار والاستغلال والعدوان، فانخرط الأدباء مبكرين في معركة الوجو د العربي وتحديث الحياة.

وتكشف أعمال الرواد عن مآثر الكفاح الصلب من أجل ثقافة عربية تساهم في تحقيق الأهداف الكبرى للأمة، وهذا ملحوظ في كتابات محمد كرد علي ومعروف الأرناؤوط وفؤاد الشايب وعلي خلقي وخليل مردم بك وخليل هنداوي وسواهم.

ولعلنا نوجز بعض الخصائص خلال مرحلة الاستقلال على النحو التالي:

أ - تنشيط الحياة الأدبية، حيث صار لها منابرها وقنواتها كالكتب والدوريات ووسائل الاتصال ولا سيما الصحافة الثقافية، وإن كانت متقطعة تقوم على مبادرات الأفراد.

ب - نضوج أشكال تعبيرية وأجناس أدبية جديدة كالمسرح والقصة الفنية والرواية، ثم تصدر بعض هذه الفنون الصدارة كما هو الحال مع القصة القصيرة التي غدت سيدة الفنون في الخمسينيات.

جـ - بروز قيم واتجاهات أدبية جديدة بفعل المثاقفة والنزوع الشامل إلى التحديث، فاتصل الأدب بالأفكار الوافدة من الغرب كالوجودية والفرويدية والماركسية، وصار الأدب ميدانًا للصراعات الفكرية، وحاول الكتّاب والأدباء - ما وسعتهم المحاولة - أن يجدوا الحلول المناسبة للعصرية والتحديث، ومكانة الأدب في التطور الحضاري، فكانت المزاوجة القومية - الوجودية، والمزاوجة القومية - الفرويدية، والمزاوجة الماركسية - الفرويدية...إلخ.

ونشأت في هذه المرحلة بذور المشكلات الفكرية والأدبية التي استمرت بشكل أو بآخر في مرحلة الاستقرار، مثل مشكلات التأصيل والمعاصرة، والالتزام، والجنس الأدبي، (الشكل والمضمون)، والحداثة... إلخ.

د - الاهتمام بتعليمية الأدب، ورسوخ الطابع التربوي والاجتماعي للأدب، من خلال الدعوات لتوظيف الأدب، أو إنشاء أدب يباشر أهدافه ومقاصده التربوية والإنسانية. وفي هذا الإطار، أقبل الكتاب على الأدب الجماهيري وأدب الأطفال بحماسة.

هـ - العناية بالتجمعات والتنظيمات الأدبية وتأثيرها المتنامي على التطور الثقافي، فقد عرفت الحياة الأدبية جمعيات وروابط وتنظيمات أدبية في الخمسينيات في ظل اتساع الديمقراطية وانتشار الأفكار التقدمية، وكان صوت هذه التجمعات قويًا في الصراع الفكري، وتحديث الأدوات الأدبية، وترسيخ التيارات الواقعية في مواجهة النزعات الانعزالية والرجعية والقديمة. وأتاحت هذه التجمعات والتنظيمات فرص العمل المنظمة بين الكتاب، مما ساعد على نشوء اتحاد الكتاب العرب سنة ١٩٦٩م.

و - تفاعل الصراع الفكري بين التقليديين والمجددين في مختلف أشكال التعبير الأدبي، وانعكاساته على استحداث موضوعات أدبية أو التمركز حولها، ولا سيما السياسية منها، كقضية فلسطين وقضية الحرية، وقضية المرأة... إلخ.

ز - التأسيس للخدمة الثقافية بمجهود الدولة ورعايتها للأدب والفن، إذ تأسست

وزارة الثقافة والإرشاد القومي عام ١٩٥٨م في عهد الوحدة العربية بين سورية ومصر. ومما لا شك فيه، أن الحركة الأدبية، في مرحلة الاستقلال، ارتهنت بجهود أهلية وخاصة، أما قطاع النشر الحكومي أو المدعوم من الدولة، فلم يكن موجوداً قبل إحداث وزارة الثقافة والإرشاد القومي. وينطبق هذا على انتظام الانتشار الثقافي كالسينما والمسرح والتلفاز والصحافة والكتاب والفنون الجميلة وغير ذلك.

٢ ـ ٢ ـ الأدب والدولة:

دخلت الدولة قطاعات الثقافة والخدمات الثقافية بعد تأسيس وزارة الثقافة والإرشاد القومي، فوضعت العمل الثقافي في طور الانتظام المستمر، والرعاية الكريمة للأدباء، والعون الدائم للثقافة الجادة، مما ساهم في نشر المادة الثقافية إلى أوسع قواعد الجماهير، وأتاح للأدباء أن ينتجوا أدبهم في مناخ أفضل يمكنهم من الإبداع والمشاركة الوطنية والجماهيرية، ويوفر لهم العيش الحر الكريم. ولعل استعراض خطوات رعاية الدولة للأدب والثقافة كفيل بتوضيح حاضر الأدب العربي في سورية.

صدر قانون إحداث وزارة الثقافة بتاريخ ١٩٥٨/١١/٢٣م، وحدد مهماتها على النحو التالي:

أ ـ تعميم المعرفة والثقافة بين الجماهير والتعريف بالحضارة العربية ونشر رسالتها وتوفير كل الإمكانيات لكي تلتقي بكل الحضارات العالمية الكبرى.

ب ـ توجيه أفراد الشعب توجيهاً قومياً صحيحاً والعمل على تنمية وعيهم القومي وإرشادهم بما يرفع مستواهم الاجتماعي ويقوي روحهم المعنوية وشعورهم بالمسؤولية ويحفزهم على التعاون والتضحية ومضاعفة الجهود في خدمة الوطن والإنسانية.

جـ ـ تيسير سبل الثقافة الشعبية في أوساط الشعب وتنويع أساليبها وتوسيع نطاقها وإغنائها بالمبتكرات وإفادة أكبر عدد ممكن منها.

د ـ الاتصال بالمؤسسات الثقافية والفنية الخارجية والإفادة من نشاطها ودعوة كبار رجال الثقافة والفكر والفن بالعالم لزيارة الجمهورية العربية السورية وإلقاء المحاضرات والأحاديث في مختلف مدنها.

هـ ـ تنفيذ بنود المعاهدات الثقافية المعقودة مع الحكومات الأجنبية، وذلك ضمن اختصاص الوزارة.

و ـ إقامة المعارض والمهرجانات والحفلات الثقافية والفنية وعقد المؤتمرات وتنظيم المسابقات ووضع الجوائز وتشجيع تأسيس الجمعيات الثقافية المختلفة وتتبع فاعلياتها ومساعدتها على القيام بمهامها.

ز - إحياء التراث العربي القديم في العلوم والآداب والبحث في علوم اللغة العربية والحرص على سلامتها وجعلها تتسع للعلوم والفنون والمخترعات الحديثة.

ح - اكتشاف التراث الأثري التاريخي للجمهورية العربية السورية وجمع كافة عناصره وصيانتها وحفظها سليمة إلى الأجيال الصاعدة.

ط - إحداث المتاحف الأثرية والتاريخية والفنية والشعبية والمساعدة على تنظيم المتاحف الأخرى لكافة وزارات الدولة وإداراتها ومؤسساتها العامة.

ي - تشيع الفنون والآداب وتوجيهها لما تقتضيه مصلحة الدولة وبعث نشاطها وتأمين مستقبلها. وتوفير أسباب الحياة والعمل والرفاهية لمحترفيها. وإحياء الآداب والفنون الشعبية وتنميتها بتطويرها وجمع كافة المعلومات عنها.

ومع قيام ثورة الثامن من آذار ١٩٦٢م، نما العمل الثقافي واتسع في إطار تدابير جذرية شاملة لإعادة تنظيم المجتمع، من خلال أهداف واضحة، ومن قبل الشعب المنظم في تنظيماته المختلفة، كاتحاد الفلاحين والاتحاد النسائي واتحاد شبيبة الثورة واتحاد الكتّاب العرب.. إلخ.

لقد حدد المنهاج المرحلي لثورة آذار (الذي أقره المؤتمر القطري الاستثنائي لحزب البعث العربي الاشتراكي القائد للدولة والمجتمع في سورية، والمنعقد في حزيران ١٩٦٥م) الطابع القومي والاشتراكي للثقافة العربية من أجل الإسهام في التنمية الاجتماعية والقومية الشاملة والمستقرة والمتوازية نحو رفع مستوى حياة المواطن في مختلف مجالات الحياة وتعزيز انتمائه لمحيطه ومجتمعه العربي، وتزويده بالمعارف والخبرات التي تكفل بناء الشخصية الوطنية والقومية القادرة على مواكبة التحدي الحضاري الذي تواجهه الأمة العربية، والقادرة على مكافحة التسلط الإمبريالي والغزو الصهيوني الذي يهدد الحاضر والمستقبل العربي.

وهكذا قاد حزب البعث العربي الاشتراكي في سورية ثورة ثقافية من أجل مجتمع جديد وحياة جديدة، وقد اعتمدت العملية الثقافية على مرتكزات صلبة ستكون الأساس للتشريعات والمؤسسات والخدمات الثقافية، وهي تأصيل الثقافة العربية في مواجهة الغزو الإمبريالي الصهيوني، والعمل الثقافي العربي المشترك، ونشر تعميق فكرة الوحدة العربية على أساس التوجه القومي في النشاط الثقافي كله، وإعلاء شأن الكفاح والثقافة في مستقبل الأمة العربية.

ولكي تقوم وزارة الثقافة بمهماتها، فقد

أحدثت المديريات المركزية وأتبعتها بمراكز ثقافة في المحافظات والمناطق كافة، وهي:

١ ـ مديرية الشؤون الإدارية والقانونية وتتبعها دائرة الرقابة على المصنفات الفنية.

٢ ـ مديرية التخطيط والإحصاء.

٣ ـ مديرية المسارح والموسيقا.

٤ ـ مديرية محو الأمية.

٥ ـ مديرية العلاقات الثقافية.

٦ ـ مديرية المراكز الثقافية العربية والمكتبات.

٧ ـ مديرية التأليف والترجمة.

٨ ـ مديرية إحياء ونشر التراث العربي.

٩ ـ مديرية المطبوعات والنشر.

١٠ ـ مديرية الفنون الجميلة.

١١ ـ المعهدان الموسيقيان في دمشق وحلب.

ثم أحدثت المؤسسة العامة للسينما عام ١٩٦٢م، إلى جانب المديرية العامة للمتاحف والآثار.

وصدرت بعد ذلك دوريات ثقافية منتظمة هي «المعرفة» (ثقافية شهرية عامة) و «أسامة» (نصف شهرية للأطفال). وافتتح المعهد العالي للفنون المسرحية عام ١٩٧٧، وعدد من المعاهد الفنية في الثمانينات. وصدرت خلال ثمانينات القرن العشرين وتسعيناته دوريات متخصصة «الحياة المسرحية» و «الحياة التشكيلية» و «الحياة السينمائية».

وقد ترافق هذا الجهد الثقافي المدعوم من الدولة، بالتطوير في مجالات التربية والتعليم العالي، حيث نفذت الثورة إلزامية التعليم الابتدائي ومجانيته، وأشاعت حب التعليم بين الجماهير في ظل قواعد ذهبية هي إشاعة التعليم وديمقراطيته. وتقرر عام ٢٠٠١ جعل المرحلة الابتدائية مرحلة التعليم الأساسي وتستمر حتى الصف التاسع.

ووفرت الدولة للثقافة منذ مطلع الثورة، المنشآت والأماكن الصالحة للنشاطات الثقافية كالمسارح وصالات العرض الفني والمنشآت الثقافية المختلفة.

٢ ـ ٣ ـ الأدب والتفكير الأدبي:

عد بعض النقاد والباحثين مرحلة الاستقلال «الأطروحة» في مسار الحياة الثقافية والأدبية، وسنوات الستينيات التي رافقت ميلاد الثورة «النقيض»، ومما يحدث منذ مطلع السبعينيات هو «التركيب». توكيداً على تأثير الأدب العربي في سورية بالتحولات السياسية والاجتماعية، وبحركة التاريخ على وجه العموم، وتوكيداً على العلاقة المتبادلة بين الأدب والمجتمع.

لقد عدوا مرحلة الاستقلال الأطروحة

أو الوضع (These) والسـتـينات هي النقيض (Anti Thes) ،بمعنى انه صار هناك نوع من الشعور بأن الأديب أسلم نفسه للتيارات العامة الاجتماعية والسياسية بشكل قضى فيه على خصوصيته أو ذاتيته، والخصوصية مطلوبة لا لذاتها، ولكن من أجل التوصل إلى موقف أعمق وأصح.

وفي الستينيات ، اكتشف الأدباء ، ولاسيما الشباب منهم، أن الأدب انغمس كثيرًا في الشعارات الديماغوجية السياسية والاجتماعية التي وجدت في الخمسينيات، ويعتقد هؤلاء النقاد والباحثون أن «ليفياثان» الدولة في البلاد العربية أصبح من القوة بحيث أنه يستطيع أن «يضبط» مرحلة كاملة من الآراء السياسية والاجتماعية، ولذلك عُدَّت مرحلة منتصف الستينيات مرحلة صحوة لما حدث في السابق، ليست مرحلة مناهضة للأفكار العامة القومية والاجتماعية، أو انقلاب عليها، لكن مرحلة صحوة فردية ذاتية لدى وجدان الشبيبة في تلك المرحلة، وهذا التفسير ليس أحادي الجانب، لأنه يجب أن يرافق دائمًا بتغير آخر، وهو مدى اتصال القطر العربي السوري بالحياة المعاصرة وبالتطورات الأدبية خارج سورية، لأن عامل التأثيرات الأجنبية أيضًا هو عامل مستمر، ففي الستينيات كانت سورية أكثر اتصالاً بالآداب العالمية والآداب الغربية بالذات منه في الخمسينيات، وهذا يعني أن التأثير بالتجربة الفردية والخاصة والذاتية للإيقاع الداخلي موجود بقوة، والتركيب للمنظر SYLylirliese هو تحقيق التوازن بين الهم الفردي والوجدان الفردي، بين الهم الاجتماعي والوجدان الاجتماعي («الموقف الأدبي»، ١٩٧٧). وهكذا، غلب على التفكير الأدبي تقديرات وحساسيات استدعتها تحديات المرحلة التاريخية وأعباؤها المتزايدة مما يضيف مؤثرات فكرية وفنية مختلفة في التكوين الأدبي الجديد.

لقد كانت سنوات الستينيات خطوة كبيرة إلى الأمام في تطور الممارسة الأدبية، وفي تفاعل الأدب مع الواقع، ويلحق المتتبع التاريخ الأدبي في تلك المرحلة ما يلي:

١ ـ زيادة اتصال الأدب بمحيطه العربي بتأثير الوحدة بين سورية ومصر، وما وفرته من تجارب العمل المباشر بين الأدباء في فنون الأدب ووسائل الاتصال، ونشير هنا إلى الاهتمام الواضح لكبار الأدباء والنقاد في مصر بالأدباء في سورية، ونذكر منهم محمود تيمور ويوسف إدريس وأحمد عبد المعطي حجازي ورجاء النقاش.

٢ ـ زيادة انشغال الأدب بتطلعاته الفكرية باتجاه التأصيل والمعاصرة وبحثًا عن هوية قومية ودور وطني، ونلاحظ أصداء لهذه التطلعات في حرص الأدباء على الموضوعات القومية والاجتماعية ذات

التعبير السياسي المباشر كما هو الحال عند صدقي إسماعيل وأديب نحوي ووليد مدفعي وحسيب كيالي وكوليت خوري ونزار قباني وأدونيس وسليمان العيسى وآخرين، لقد عني هؤلاء الأدباء وأمثالهم بالقضايا القومية والاجتماعية، وتكاد تكون أعمالهم الأدبية والفنية أقرب إلى الوثائق المرحلية عن زمنهم، طلبًا لزيادة تأثير الأدب والفن وفاعليته الاجتماعية والسياسية.

٣ - احتدام المعارك الأدبية والنقدية بين المحافظين والمجددين، وانتعاش الأجناس الأدبية المستحدثة كالشعر بأشكاله (العمودي والتفعيلة وقصيدة النثر) والرواية والمسرح، فظهرت دواوين لشعراء جدد مثل ممدوح عدوان وعلي الجندي ومحمد عمران، وخليل النعيمي، وعلي كنعان، وأدونيس، ومحمد الماغوط، وظهير كنيفاتي وفايز خضور وغيرهم، ابتعدوا فيها عن تقاليد الشعر العربي العمودي، مواكبة للتجديد الشعري العربي الشامل في الأقطار الأخرى، ومتابعة لجهود الشعراء السابقين في سورية أمثال علي الناصر وأورخان ميسر ونزار قباني نحو تثوير القصيدة العربية.

واتجه عدد كبير من الكتاب الجدد وكتاب القصة القصيرة إلى الرواية، أمثال عبد السلام العجيلي وصدقي إسماعيل وفاضل السباعي ووليد مدفعي وعبد الرحمن الباشا وقمر كيلاني ووليد إخلاصي وجورج سالم وغيرهم.

أما المسرح فقد عرف للمرة الأولى، في سورية، في الستينيات إقبالاً من الكتاب، إذ كتب خلال الستينيات أكثر من مئة نص مسرحي، بينما كتب، فيما بين ١٩٤٥ و١٩٦٠ قرابة ٤٧ نصًا مسرحيًا. والملفت للنظر هو التطور الكبير في التأليف المسرحي في الستينيات مما يشكل نقلة في فهم المسرح من مجرد التمثيلية والنص الأدبي الذي يصلح للقراءة غالبًا، إلى المسرحية التي تلبي حاجات العرض المسرحي، كما هو الحال عند مراد السباعي وسعد الله ونوس ووليد إخلاصي وعلي عقلة عرسان وصدقي إسماعيل ويوسف مقدسي وحسيب كيالي.

٢ - ٤ - الخصائص العامة للمرحلة الراهنة:

لا شك في أن المرحلة الراهنة (١٩٧٠ - ٢٠٠٢) هي ذروة التطور الأدبي في سورية، لأن سنة ١٩٧٠م ليست مجرد تاريخ تقتضيه الدراسة، بل هي فاصل هام بين مرحلتين في مسار الثقافة والأدب، وفي مسار الحياة السياسية والاجتماعية على وجه العموم، فهي سنة الحركة التصحيحية، وهي منطلق الازدهار الثقافي والأدبي الواسع بفضل رعاية الحزب والدولة للعمل الثقافي والأدبي بمختلف مؤسساته ونشاطاته وأشكاله التعبيرية، فإذا كانت قنوات النشاط الثقافي والأدبي

المخطط له من الدولة، والقائم بدعم وتشجيع منها، قد بدأت بالتزايد والتوسع التدريجي في مرحلة الاستقلال والثورة، فإن عقود الحركة التصحيحية، قد رسخت التقاليد الثقافية استنادًا إلى العون الأكيد والرعاية الدؤوبة والروحية الصلبة التي تفهم مكانة الثقافة في بناء الوطن وبناء الإنسان وتوفر لها ما تحتاجه من تشريعات ومؤسسات ولوازم، في إطار تخطيط ثقافي شامل، لا بد منه لكل ثقافة أصيلة وظيفية في حياة الشعب، ونشير هنا إلى أبرز ملامح هذا التطور وخصائصه:

٢-٤-١- ترسيخ الأسس النوعية للثقافة والأدب:

غدت الثقافة عقيدة وعملاً، معرفة وأخلاقًا، من أجل دور ثقافي حيوي وإيجابي في بناء قاعدة مادية قوية يستند إليها التقدم، ومن أجل جهد متواصل لخلق منظومة متكاملة من العلاقات الثقافية والفكرية، ومن أجل الإسهام في بناء قوة دفاعية عملاقة عقائدية ونضالية ومعرفية تواجه التحدي الإمبريالي الأمريكي الصهيوني، لأن التوازن الاستراتيجي في مواجهة التحديات والأطماع الإمبريالية والصهيونية هو شأن عسكري واقتصادي وثقافي، أي أنه يتناول البنية الاجتماعية والوطنية بكل معانيها.

إن الثقافة - كما عبر أحد المسؤولين - هي حجر الأساس في كل تطور وتقدم تطمح الجماهير لأن تحققه، وهي العماد في أية خطة تنمية يبغي القطر العربي السوري أن ينفذها من أجل تحقيق تقدمه وازدهاره.

٢-٤-٢- التطور الهائل في العملية التربوية:

إذا تضاعفت وتيرة النظام التربوية وإنتاجه مرات مما يشكل قفزة نوعية عريضة في حجمه ومحتواه وأساليبه وتحديثه، وفي تلبيته لمتطلبات التنمية الاجتماعية والاقتصادية، وفي مواكبته للمستجدات التربوية على المستويين العربي والدولي، وقد ارتكز هذا التطور على:

أولاً: وضع أهداف محددة وواضحة للتربية من منظور الالتزام القومي والتكامل في البناء التربوي والتركيز على تنمية الشخصية العربية المتوازنة.

ثانيًا: وضع استراتيجيات تترجم هذه الأهداف، ورسم الخطط المرحلية والتطورات المستقبلية وإحكام الربط بين خطط التربية وحاجات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، واعتماد التخطيط التربوي والبحث التربوي أسلوبًا للعمل في مجال التحسين والتطوير.

ثالثًا: تعدّ التربية مسؤولية المجتمع تسهم فيها مؤسساته ومنشآته ليشارك في النهوض بها أكبر عدد من المستفيدين منها تحقيقًا لديمقراطية التنظيم، وجعل الجماهير تمارس دورها في تخريجه وتقويمه وتنفيذه.

رابعًا: تحقيق البعد القومي في

التربية وتحقيقه فعليًا سواء أكان ذلك على مستوى البنية الداخلية للنظام التربوي وتأكيدًا للخط الاشتراكي في الشكل والمضمون، أم على المستوى العربي بطريق التعاون مع المنظمات والمؤسسات التربوية العربية، أو عن طريق بعض الأقطار العربية بالأطر التعليمية على مختلف أنواعها ومراحلها.

وطورت وزارة التربية المضامين التربوية في مختلف مكونات العملية التربوية، كالمناهج المدرسية والطرائق والأساليب وزيادة الإشراف والمتابعة، وإعداد الأطر التعليمية والفنية وتدريبها، وتطبيق التعليم الإلزامي، والكتاب المدرسي، والبناء المدرسي، والصحة المدرسية، والوسائل المعينة والفاعلة، وإعداد المعجم المدرسي وتنمية البحث التربوي، والتعاون التربوي في المجالين العربي والدولي. ونلمس مظاهر التطور النوعي في تحديث المحتوى وتحديث الأداة، وتوظيفهما وتوجيههما بما يحقق التربية القومية الاشتراكية لدى الناشئة فكرًا وعملاً وسلوكًا..

٢-٤-٣- التطور الكبير في التعليم العالي:

مسايرة للتقدم العلمي والتقني، وتفاعلاً مع منجزات الحضارة الحديثة، حيث لقي التعليم العالي عناية فائقة ودعمًا متواصلاً في مستوياته واتجاهاته، فارتقى البحث العلمي، وتحسن وضع الطالب وعضو الهيئة التدريسية معًا، يضاف إلى ذلك، إنشاء جامعات ومعاهد وكليات وأقسام جديدة، وبدء العمل بنظام الدراسات العليا. ولنا أن نذكر مدى أهمية قانون ديمقراطية التعليم الصادر في سنوات الثورة الأولى، والذي طبق على نحو شامل في السبعينيات محققًا خدمات ومكاسب جلى للتعليم الجامعي والطالب، مثلما نذكر أيضًا مدى أهمية قانون الاستيعاب عام ١٩٧٤م الذي أتاح للطلاب المتخرجين من المرحلة الثانوية فرص الالتحاق بكلية أو معهد أو قسم دراسي مهما كانت علامات نجاحه. لقد أفاد هذان القانونان كثيرًا أبناء الطبقات الكادحة من العمال والفلاحين وصغار الموظفين الذين ظلوا بعيدين عن التعليم العالي أمدًا طويلاً. ولعلنا نلمس تأثير مثل هذين القرارين في تغيير المنبت الطبقي لغالبية الأدباء الذين كانوا حكرًا على الطبقة البورجوازية قبل الثورة.

٢-٤-٤- تعدد قنوات الاتصال والإعلام وانتشارها إلى أوسع الجماهير:

فقد بلغت العناية بالإعلام والانتشار الثقافي أشدها، فالإعلام - كما تشير الأدبيات الرسمية، سلاح المعرفة والقومية، وهو طريق الوعي وإدراك التغييرات والوقوف على حركة التاريخ، وبه يكون التحصن ضد رياح الشر التي تندفع عبر قنوات متعددة، وبأساليب مختلفة. وهكذا، وضع الإعلام في معركة بناء الحياة الجديدة، وأريد له أن يكون أداة تغيير نحو الأفضل منطلقًا من النظرة القومية، متفاعلاً في الوقت نفسه مع الثقافة الإنسانية الواسعة، مدافعًا عن الحرية

بأسمى معانيها، يقاوم الظلم والاستغلال والعبودية في كل مكان. وتحقيقًا لهذه الأهداف العريضة، أقيمت مؤسسات وهياكل إعلامية جديدة ومتطورة، سواء في مجال الصحافة والنشر، أو إقامة وكالة الأنباء الوطنية (سانا)، أو التوسع في مجال بناء شبكة التغطية الإذاعية والتلفزيونية، ونذكر من هذه المؤسسات ما يلي:

١ - الإدارات المركزية بالوزارة.

٢ - الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون.

٣ - الوكالة العربية السورية للأنباء.

٤ - المؤسسات الصحفية المرتبطة بالوزارة، وهي: مؤسسة الوحدة للطباعة والنشر، ويصدر عنها جريدة «الثورة» و(٥) جرائد يومية، وجريدتان أسبوعيتان، وبعض الدوريات الشهرية، ولها دار نشر.

ومؤسسة تشرين للصحافة والنشر، ويصدر عنها صحيفتان يوميتان، واحدة بالعربية وأخرى بالإنكليزية، وبعض الدوريات المختلفة مثل «تشرين الأسبوعي» ولها دار نشر أيضًا.

٥ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات.

٦ - المؤسسة العربية للإعلان.

٧ - معهد الإعداد الإعلامي.

وقد توسع البث الإذاعي والتلفزيوني بافتتاح قنوات متخصصة، وتعنى هذه المؤسسات جميعها بالجانب الثقافي والأدبي، كالصحافة الثقافية، والبرامج الثقافية، والتأهيل الثقافي، وإنتاج الكتاب الثقافي العربي والدولي، وفي هذا المجال، أقامت وزارة الإعلام معرضًا سنويًا للكتاب العربي أثناء معرض دمشق الدولي.

ونذكر في هذا المجال، بعض الخدمات الثقافية:

١ - زاد عدد المراكز الثقافية كثيرًا، فأصبح ٢٢٣ مركزًا في سورية، وعددًا من المراكز في بعض العواصم العربية والأوروبية، وهذه المراكز مجهزة بالمكتبات وقاعات المطالعة وصالات العرض الفني، وقاعات المحاضرات والأمسيات والعروض السينمائية، مثلما زاد عدد مراكز الثقافة الشعبية، التي تعلم اللغات والمهن المختلفة.

٢ - قفز عدد الكتب المطبوعة من ٣٠ كتابًا في العام ١٩٧٠م، إلى ١٠٠ كتاب سنويًا منذ عام ١٩٧٦م، إلى ١٢٠ كتاب سنويًا منذ عام ١٩٩٤.

٣ - تضاعف الإنتاج الثقافي عدة مرات في مجالات السينما والآثار والمتاحف والمسارح والفنون الشعبية والتشكيلية.

٤ - إنجاز مكتبة الأسد عام ١٩٨٤م، وهي صرح ثقافي شامخ، تضم ثلاثة ملايين مجلد وعشرات الآلاف من المخطوطات العربية، وتوفر خدمة علمية ومكتبية وفق أحدث التقنيات.

٥ - نمت الدوريات الأدبية والثقافية

نموًا ملحوظًا فصدرت مجلات فصلية متخصصة هي «الحياة المسرحية» و«الحياة السينمائية» و«الحياة التشكيلية» و«الحياة الموسيقية».

٦ - إيلاء العناية القصوى لمحو الأمية، وهي لم تكن موجودة قبل السبعينيات، وقد أصبح عدد الذين تخلصوا من أميتهم يتجاوز الثلاثين ألفًا كل عام، وارتفع هذا العدد منذ مطلع عام ١٩٨٠م إلى مئة ألف سنويًا.

٧ - إنشاء المعهد العالي للفنون المسرحية في عام ١٩٧٧م لرفد المسرح بأجيال جديدة من الأطر العلمية المؤهلة، وإحداث عدة قنوات مسرحية جديدة مثل «المسرح الجوال» و«المسرح التجريبي» و«مسرح الأطفال» و«مسرح الشعب» بحمص، و«المسرح القومي» في عدد من المحافظات مثل حلب وحمص وطرطوس واللاذقية.

وقد تولى اتحاد الكتاب العرب مسؤولياته، ووضع الأهداف التي جاءت في مرسوم تأسيسه موضع التنفيذ:

- تعبئة الطاقات الأدبية في القطر العربي السوري.
- استكشاف المواهب الأدبية ورعايتها.
- رصد الواقع العربي في الإنتاج الأدبي والثقافي.
- استلهام الجوانب الكفاحية والإنسانية في التراث القومي والأدبي الشعبي لتطوير الأدب العربي وإغنائه ووضعه في تيار الأدب الطليعي العالمي.
- إذكاء روح المقاومة والصمود لدى المواطن العربي في وجه الأخطار التي تهدد الوجود العربي وتحاول عزله وإلغاء دوره الأساسي في النضال العالمي ضد الاستعمار والإمبريالية.
- مجابهة الاستعمار والإمبريالية والصهيونية والرجعية على الصعيد الثقافي والقومي والسياسي.
- محاربة التيارات الثقافية المنحرفة الداعية إلى الانحلال والانهزامية والاستسلام للواقع الفاسد الذي يعانيه المجتمع العربي.
- التأكيد على حرية الكلمة ذات المدلول القومي والبعد الاشتراكي التقدمي.
- الانفتاح على الأدب التقدمي في الوطن العربي والعالم.
- تهيئة مناخ ثقافي يتيح للإمكانات والمواهب المبدعة أن تتفتح وتنمو في جو من الحرية والمسؤولية.
- العمل على جعل الكتابة مهنة الكاتب.
- إقامة المؤسسات التي تؤمن للكاتب المسكن والضمان الاجتماعي والخدمات الصحية والمعاشية.
- الدفاع عن الكتاب والسعي لإيجاد التشريعات التي تحمي إنتاجهم وتضمن حقوقهم فيه.

- إصدار التشريعات الدورية وغير الدورية باللغة العربية واللغات الأجنبية.

- إقامة دور للطباعة والنشر والتوزيع.

- القيام بالنشاط الأدبي والثقافي في القطر والخارج عن طريق المحاضرات والندوات واللقاءات.

- الاتصال بالاتحادات والهيئات الأدبية والثقافية العربية والأجنبية وبخاصة الكتاب والأدباء العرب في المهجر.

وتقوم وزارة الثقافة بالخطة الشاملة بما هي تثقيف وإنتاج وإبداع في قنوات ثقافية متعددة، وضمن تنظيمات متطورة، ولعلنا نشير إلى أهم اتجاهات العمل الثقافي اليوم:

- وضع كيفية إدارية جديدة للثقافة الجماهيرية، بتوسيع المراكز الثقافية في المدينة الواحدة نفسها، وفي المناطق الكبيرة، باستحداث مديريات الثقافة التي تشرف على نشر الثقافة وتعميم الاستفادة منها.

- تفعيل مديريات الثقافة المركزية، مثل إدارة التأليف والترجمة والنشر ومحو الأمية وتعليم الكبار والتراث والمأثورات الشعبية والتبادل الثقافي، واستحداث مديريات جديدة مثل ثقافة الأطفال.

- بناء المنشآت الثقافية في العاصمة وفي المحافظات.

- توسيع المراكز الثقافية في العواصم العربية والعالمية.

- تدعيم التظاهرات الثقافية بطابعها القومي والإنساني مثل مهرجانات السينما والمسرح والمعارض الفنية ومعارض الكتاب، وتفعيل «مهرجان المحبة» وإغناء التنشيط الثقافي فيه.

- إحداث ورشات عمل فنية وثقافية على سبيل الاختبار تمهيدًا لانتشارها في النحت والتصوير والمسرح والموسيقا والرقص..الخ.

- تأسيس الفرقة الوطنية السيمفونية عام ١٩٩٦ لترقية التذوق الفني الموسيقي والثقافة الفنية الرفيعة.

- افتتاح المعهد العالي للموسيقا عام ١٩٩٠، وارتباط به معهد الباليه الذي صار مؤثرًا في الحياة الثقافية والفنية.

- توسيع معاهد الثقافة الشعبية في الفروع المختلفة.

- تدعيم معاهد المتاحف والآثار، وقد ضربت المتاحف رقمًا إنجازيًا قياسيًا، فبلغ عددها ٤٢ متحفًا.

- العناية بالتبادل الثقافي العربي والدولي والتواصل مع العالم.

٢-٤-٥- تنظيم الكتابة:

قال القائد الخالد حافظ الأسد في افتتاح المؤتمر الثامن للأدباء والكتاب العرب (دمشق ١٩٧١):

«لقد اتخذنا وسنتخذ كل الإجراءات الممكنة التي تيسر لرجال الفكر في هذا البلد أن يضعوا طاقاتهم كلها فيما يخدم مصلحة الأمة العربية...».

وقد تُرجم هذا القول إلى ممارسة الرعاية الكاملة للكتّاب والأدباء من خلال تنظيمهم، اتحاد الكتاب العرب، إذ صار لهم تنظيمهم بصدور المرسوم التشريعي رقم ٧٢ بتاريخ ١٩٦٩/٢/٤ الذي قضى بإحداث اتحاد الكتاب العرب، وحدد أهدافه وطريقة تكوينه وصلاحيات هيئاته، منظمة شعبية ورسمية معترف بها، ولها كيانها المستقل الذي يضمنه الدستور والتشريعات الأخرى. وقد تحدد لأول مرة في التشريع داخل القطر تعريف لمهنة الكتابة وللكاتب، وللمهام الملقاة على عاتق الكاتب من خلال تنظيمه، وللأهداف الرئيسة لهذا التنظيم، ولا سيما التوكيد على حرية الكلمة ذات المدلول القومي والبعد الاشتراكي التقدمي، وتهيئة المناخ الثقافي الذي يتيح للإمكانات والمواهب المبدعة أن تتفتح وتنمو في جو من الحرية المسؤولة.

ولا يماري أحد في أن انطلاقة فعالية اتحاد الكتاب العرب بدأت مع قيام الحركة التصحيحة عام ١٩٧٠، ونذكر أهم مظاهر الرعاية الكبيرة للقائد الخالد حافظ الأسد مما ضمن هذه الفعالية، وأولاها تطوير بنية الاتحاد من خلال إصدار المرسوم التشريعي رقم ١٠ المؤرخ في ١٩٧١/١/٣١ بعد أقل من ثلاثة شهور من قيام الحركة التصحيحية، إذ أحدثت إدارات الاتحاد الست: التوجيه الأدبي، النشاط الثقافي، العلاقات الخارجية، الجمعيات والفروع، المخطوطات والنشر، الشؤون المالية والإدارية، الشؤون الاجتماعية، وأحدثت جمعيات الاتحاد الخمس، وهي: البحوث والدراسات، الشعر، القصة والرواية، المسرح، النقد الأدبي. وكان الهدف من هذه الجمعيات التي أضيف إليها فيما بعد جمعيتان لأدب الأطفال والترجمة، تنظيم قاعدة من الكتاب على أساس الاختصاص كل منهم لترقية الإبداع في هذا الجنس الأدبي أو ذاك، وتوجيه العمل الثقافي من خلال المساهمة الجدية والخبيرة لمنتجي الأدب.

ثم طوّرت مهام الاتحاد بصدور القانون ٣١ المؤرخ في ١٩٧١/١٢/١٢، أي بعد أقل من عام من الخطوة الأولى، عندما منح هذا القانون اتحاد الكتاب العرب مهمة تولي رقابة المؤلفات الأدبية وفحصها وإبداء الرأي في نشرها وتوزيعها، أي أن الرقابة على حرية الكتابة غدت بيد الكتّاب أنفسهم.

وحوى القانون نفسه نظام تفرغ الكتّاب للقيام بأعمال معينة أدبية أو ثقافية لمدة لا تزيد عن سنة قابلة للتجديد. وضمنت ممارسة هذه الرقابة رفع سوية المخطوطات الفنية والفكرية، وأتاح التفرغ وانصراف الكتّاب إلى التأليف متحررين من ضغط حاجات المعيشة اليومية قابليات أفضل للإنتاج الثقافي والإبداع الأدبي.

وتطور النشر كثيراً في اتحاد الكتاب العرب، فقد بدأ بخمس كتب سنوياً، ارتفع عددها إلى ٤٠ مخطوطة في

عام ١٩٧١ و ٦٠ مخطوطة في عام ١٩٨٢ ومئة مخطوطة منذ عام ١٩٩٤ حتى اليوم، ووضع نظام لتشجيع النشر بأن يمنح الاتحاد عونًا ماليًا للكتاب ليطبعوا مخطوطاتهم، وأصدر الاتحاد عام ١٩٧١ مجلته الشهرية «الموقف الأدبي» التي تبعتها دوريات أخرى متخصصة منتظمة المواعيد. وعُني بالشروط المادية لحياة الكتاب والأدباء، فصار للكتابة مردودها المادي وتعويضاتها المالية، تنفيذًا للقانون الأساسي للاتحاد الذي يعمل على «جعل الكتابة مهنة الكاتب»، واستتبع ذلك توفير الشروط المادية للكتاب بإقامة المؤسسات التي تؤمن للكاتب المسكن والضمان الاجتماعي والخدمات الصحية والمعاشية، وقد حقق الاتحاد في هذا الاتجاه خطوات هامة منها تأمين الخدمات الصحية للكتاب وأسرهم بنسبة مئة بالمئة عن طريق صندوق للضمان الصحي يسهم فيه الكتاب، ويموّله الاتحاد. وأنشئ صندوق للتسليف لإقراض الكتاب عند الضائقة المالية، وصندوق للضمان الاجتماعي يقدم المساعدات المالية في الظروف التي تستوجب ذلك كالوفاة والكوارث والعجز والمرض وغيرها. ورعى القائد الخالد حافظ الأسد تأمين السكن للكتاب والأدباء بنفسه بالتوجيه لإحداث جمعية تعاونية سكنية من جهة، وصرف فوائد قروض السكن من ميزانية الاتحاد وجهات الدولة الراعية، ولا سيما منحة القائد الخالد حافظ الأسد، ثم أقيم مبنى اتحاد الكتاب العرب عام ١٩٧٨، الذي استثمر قسم منه بعد تجهيزه عام ١٩٩٤ بما يوفر ميزانية كبيرة للاتحاد تموّل نشاطاته، وتوفر له الاستقلالية والمزيد من العمل والإنتاج الثقافي، واكتملت رعاية القائد الخالد حافظ الأسد للاتحاد والكتّاب والأدباء بمنح الكاتب راتبًا تقاعديًا من الاتحاد، بالإضافة إلى راتبه التقاعدي من جهة عمله.

إن هذه الرعاية الكبيرة للكتابة والكتّاب حولت اتحاد الكتاب العرب إلى منظمة قائمة في قلب الواقع الثقافي والاجتماعي والسياسي في سورية لتمارس فعاليتها المؤثرة جنبًا إلى جنب مع المؤسسات الشعبية والرسمية القائمة، فصار الكتّاب والأدباء طليعة ثقافية.

قام اتحاد الكتاب العرب خلال مسيرته التي امتدت لأكثر من ثلاثة عقود بإنجازات كبيرة على طريق تحقيق هذه الأهداف، فهو تنظيم للأدباء والكتاب على أساس قومي، يحق لأي كاتب عربي من أي قطر عربي أن يكون عضوًا فيه على قدم المساواة في الحقوق والواجبات مع الكاتب في القطر العربي السوري، وهو تنظيم فاعل على المستوى القومي، لأنه يحتضن الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب في دمشق، ويسهم بفاعلية في تنشيطه وتدعيمه ماديًا ومعنويًا، وهو تنظيم فاعل أيضًا على مستوى اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا، وأبدى استعداده لاستضافته منذ انتقل من القاهرة.

أما دور اتحاد الكتاب العرب في الحياة الأدبية والثقافية في سورية فيتعاظم باستمرار، وتتوسع خدماته وتتنوع بما يخدم أهدافه، بفضل الدعم الأكيد وعون الحزب والدولة، ونوجز هنا بعض خدماته:

أولاً: يصدر الاتحاد عدة دوريات متخصصة: «الموقف الأدبي» (شهرية) و«التراث العربي» (فصلية)، و«الأسبوع الأدبي» (أسبوعية) و«الآداب الأجنبية» (فصلية) و«الفكر السياسي» (فصلية).

ثانياً: يصدر الاتحاد ٦٠ كتاباً سنوياً في مختلف أجناس التأليف الأدبي منذ عام ١٩٨٠م، و١٠٠ كتاب سنوياً منذ عام ١٩٩٦. وقد بدأ إصدار خمسة كتب مترجمة، وخمسة كتب تراثية سنوياً منذ عام ١٩٨٤م.

ثالثاً: افتتح الاتحاد فروعاً في المحافظات جميعها تقوم بمهمات تنشيط الحياة الثقافية والأدبية.

رابعاً: يقدم الاتحاد للكتاب مكاسب معاشية ملموسة في تأمين السكن والدواء والمعالجة الطبية ونشر المؤلفات وحماية الحقوق والإيفاد للمعالجة، مثلما يضم مقره قاعات للمكتبة والمطالعة والأدب والاستماع والمشاهدة ومتحفاً لتاريخ الأدب، ومعرضاً للكتاب، ومطعماً خاصاً بالكتاب.

خامساً: يقوم الاتحاد بنشاطات ثقافية وأدبية دورية منتظمة في دمشق والمحافظات مثل الندوات والمحاضرات والأمسيات الأدبية، وتبادل الوفود الأدبية مع الاتحادات العربية، والاتحادات الصديقة في بلدان مختلفة من العالم.

٢-٥- اتجاهات الأدب الكبرى في المرحلة الراهنة:

تتميز المرحلة الراهنة بالتجربة والغنى والتنوع ورسوخ التقاليد الأدبية مما جعل الكتاب يتصرفون إلى الإنتاج الأدبي في ظل استقرار مادي، ثم تأثرت أشكال الخطاب الأدبي بوسائل الاتصال كثيراً، ويمكننا أن نرصد اتجاهات الأدب الكبرى فيما يلي:

٢-٥-١- الأدب والفكر القومي:

كان الفكر القومي، وما يزال، الشاغل الرئيس للكتاب العرب في سورية، يعون من خلاله التاريخ، ويرون المستقبل، ولا وجود عربي إلا بالتحقق القومي، فاحتلت قضايا الفكر القومي الصدارة، يهتز لها الضمير الأدبي، ويجهد، أيضاً جهده، ليكون صوتها المدوي وروائدها المكافح، حتى أصبح الفكر القويم تعبير مقاومة إزاء التحدي الحضاري والغزو الثقافي والتخلف الشامل، فارتهنت الأفكار كلها وأشكال التعبير بالفكر القومي، بل إن كتاباً نذروا أنفسهم وجهودهم لقضية الفكر القومي، يجسدون من خلالها إرادة التقدم العربي وكسب رهان المستقبل.

ونذكر في مقدمة هؤلاء حافظ الجمالي، الذي جمع بعض كتاباته في كتب تشير عنواناتها إلى سخونة الهموم القومية في معركة الوجود العربي، وهي: «حول المستقبل العربي» (١٩٧٦م) و«بين التخلف والحضارة» (١٩٧٨م) و«عربي يفكر» (١٩٨٧م).

ويكشف جورج صدقني اللحظة الحضارية في سؤال واحد يلخص الأسئلة المصيرية كلها، وهذا السؤال هو الوحدة العربية، وقد صاغه بشروطه المختلفة وأوصافه المتغيرة، وعلاقاته المتداخلة التي تعكس جميعها وطأة الحلم على المناضلين العرب في كتابه «الوحدة أولاً» (١٩٨٠م). فقد صارت الوحدة العربية لدى الكتاب إلى حلم باهظ الثمن هو محك سيرورة برامج الأحزاب الثورية وحركات التحرر الوطني العربية. فتقصى تجاربها كتاب أمثال د. صابر فلحوط في كتابه «نحو الوحدة العربية» (١٩٧٩م) وعاين دروسها آخرون أمثال صفوان قدسي في كتابه «الهروب من القومية، محاولات في الرد على مناهضي الوحدة العربية» (١٩٧٩م) وربما كان الأخير أكثر الكتاب انشغالاً بفكرة الوحدة العربية بخاصة، والفكر القومي بعامة، وهو يؤكد باستمرار أن فهم الواقع السياسي مرهون بالتطور القومي، وأن العمل السياسي العربي يجب أن يستند إلى نظرية القومية العربية، فالفكر - عنده - يبدأ قومياً، وأن الهروب من الوحدة العربية - على الصعيد الاستراتيجي - لا يقود إلى الاشتراكية. إنه يقود إلى شكل جديد من أشكال التبعية للامبريالية.

وقد حاول كتاب آخرون أن يبحثوا في جذور الفكرة القومية وسواها من أفكار كما فعل عبد الله حنا في كتبه المختلفة: «الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان ١٩٤٥ - ١٩٧٠» (١٩٧٣م)، و«الحركة المناهضة للفاشية في سورية ولبنان» (١٩٧٥م) و«القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان» (١٩٧٥ - ١٩٧٨م)، ويؤيد هذا الباحث التأثير الضار لصراع الأفكار على تطوير الفكر التقدمي بمجموعه، على الرغم من التقاء رواده القوميين والاشتراكيين في مناخ الأفكار الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية ولا سيما الثورة الفرنسية، وعلى الرغم من أن تأثير التراث القومي النابع من تاريخ الأمة قوي جداً على مختلف التيارات، وأن سورية منذ الثلاثينيات ذات أفكار قومية خالصة.

ووجد مفكر آخر هو طيب تيزيني خصوصية لابد من بحثها لدى دراسة قضية التقدم العربي في «أن مثقفي العالم الثالث لا يمكنهم أن يسهموا في الإجابة النظرية العلمية على مشكلات بلدانهم إسهاماً جدلياً خلاقاً بمعزل عن تناولهم لتراثهم الفكري والحضاري العام، واكتشاف حلقات الوحدة بين الجوانب الإيجابية من جهة، وبين الفكر النظري الاشتراكي من جهة أخرى». كما مارسه بنفسه في كتابه «حول مشكلات الثورة والثقافة في العالم الثالث» (١٩٧٢م).

وقد أخذ هذا الفكر بالجانب النقدي، نقد نفسه، ونقد فكر المثقفين العرب المتنورين أو ما سمي بالالتزام السياسي، ففي «هذا الالتزام مصدر قوة الفكر العربي المعاصر وضعفه على حد

سواء، فهو يمنح فكر المثقفين العرب الحرية والخصب، وفي الوقت نفسه يسقط هذا الفكر في المباشرة ويسبغ عليه طابع المرحلية، أي يجعله عاجزاً عن استشراف آفاق التحولات التاريخية للواقع الاجتماعي وعن اكتشاف المحركات العميقة لهذا الواقع». وهكذا، مارس كتاب مثل جلال فاروق الشريف، الفكر النقدي، كما في كتابه «بعض قضايا الفكر العربي المعاصر» (١٩٧٤م) «ليعي الفكر العربي المعاصر واقعه ويعي معه مسؤولياته، وهو آخذ بأسباب سلبيات نشأته الأولى، وفي مقدمتها أن يحرر نفسه أولاً كي يكون فكراً حقيقياً، أي فكراً ثورياً».

ثم بلغ هذا الفكر النقدي مبلغاً بعيداً في جلد الذات وتأثيمها في عملية التحقيق الذاتي العربي الخالية من أي «تاريخ شخصي أو جدوى صيرورية» بتعبير جورج لوكاتش، كما فعل كتاب كثيرون أمثال إحسان مراش في كتابه «الحياة الجديدة – عودة إلى يوميات بورجوازي صغير» (١٩٧٢م)، وكأن هؤلاء الكتاب يرون الحياة العربية «على هامش الزمان والتاريخ، أو لعلها تجري على هامش الحياة نفسها».

من خلال الفكر القومي، يبحث الكاتب العربي في سورية عن هويته، عن ذاته، ولكن الهوية أو الذات هي صيرورة تاريخية، وعلى جدواها يختلف المختلفون ويأتلفون، وفي هذه الأصداء والآفاق تصطرع الاتجاهات الأدبية إزاء مختلف القضايا: فلسطين – التربية – الحرية – المرأة –... الخ.

٢-٥-٢- الأدب والتراث:

عني الكاتب العربي في سورية عناية فائقة بالتراث، بدافع التأصيل والبحث عن الهوية، واستجابة لتحديات الحداثة، فالأدب العربي، ومثله في سورية، يواجه تحديات الغزو الثقافي، وما تعبير المثاقفة إلا مصطلح مخفف لعدوان ثقافة الغزو على الثقافة العربية والأدب العربي بما في ذلك محو الشخصية العربية، وانتهاك القيم الثقافية، وإشاعة العجز والاستكانة والاستلاب، فكان على الكاتب العربي في سورية أن يتصدى للمعركة الفكرية والأدبية في ميادين التراث المختلفة، كتحقيق التراث ودراسته ونشره، والجهود المبذولة في هذا الإطار أكثر من أن تحصى، أو الموقف الفني من التراث وقد استلهمه في أعمالهم غالبية الأدباء، أو الموقف الفكري منه، ويبرز في هذا المجال طيب تيزيني في مشروعه الكبير «مشروع رؤية جديدة للفكر العربي من العصر الجاهلي حتى المرحلة المعاصرة – حول نظرية مقترحة للتراث العربي»، وقد صدر منه حتى الآن ثلاثة أجزاء (١٩٧٦م/ ١٩٨١م/ ١٩٨٥م) وانتقل الموقف الفكري من التراث إلى تأصيل الأجناس الأدبية أيضاً، وهذا هو صنيع علي عقلة عرسان في كتابه الضخم «الظواهر المسرحية عند العرب» (١٩٨١م).

٢-٥-٣- الأدب والممارسة الأدبية:

قطعت الممارسة الأدبية شوطًا بعيدًا باتجاه النضوج الفكري والفني، إذ تطورت الأساليب واغتنت خبرات الكتاب في مختلف الأجناس الأدبية، بل أن التطور في الرواية والمسرحية وأدب الأطفال ملفت للنظر، ويكاد يكون قفزات أدبية خلال برهة قصيرة من عمر التجربة. ونلاحظ هنا أن المسرحية التي كانت على هامش الأدب وهامش الحركة المسرحية معًا، لاعتماد الفنون المسرحية على الاقتباس والارتجال، فقد أصبحت أدبًا قديرًا يلبي حاجة القراءة والتجسيد المسرحي.

كانت حصيلة الكتابة المسرحية في سورية علم ١٩٧٠م (١٤٠) مسرحية، بينما كتب منذ عام ١٩٧٠م حتى نهاية عام ١٩٩٤م (٣٥٦) مسرحية، ولعل هذا الرقم يعطي دلالة واضحة على مدى الانتشار المسرحي وتأثيره على التأليف. وأنجز خلال السنوات الأخيرة منذ عام ١٩٩٥ أكثر من مئة وعشرين مسرحية.

أما الرواية فقد احتلت موقع الصدارة في الكتابة، فقد كتب حتى عام ١٩٧٠م (٩٨) رواية، بينما وصل عدد الروايات فيما بين ١٩٧٠م و١٩٩٤م إلى (٢٤٦) رواية، وصدر خلال السنوات الأخيرة منذ عام ١٩٩٥ أكثر من مئتي رواية.

ورافق هذا التطور النوعي إنجاز تجارب جديدة في مختلف المعايير النقدية. وغني عن القول، أن أدب الأطفال قبل عام ١٩٧٠م لم يكن يذكر في عملية الإبداع، ثم أصبح من الأجناس الأدبية المفضلة لدى الكتاب، حتى أن كتابًا تخصصوا منذ البدء بالكتابة للأطفال، مثل ليلى صايا سالم وأيوب منصور وفيصل الحجلي وجورج قس وعزيز نصار، وأن كتابًا انصرفوا – أو كادوا – لكتابة الأطفال وأخص بالذكر منهم سليمان العيسى، وهو الشاعر القومي الكبير الذي أبدع على مدار عقود الأربعينات والخمسينات والستينات الأناشيد العربية الجميلة وكلمات الشعر الإنساني العذبة.

وفيما يخص الاتجاهات فإن الممارسة الأدبية في المرحلة الراهنة تكشف عن اكتمالها وسيرورتها الإبداعية من موقع الانفتاح الفاعل مع تراث الإنسانية دون أن يقطع صلته الحميمة والإيجابية مع التراث العربي والتقاليد العربية، فلا تزال الأشكال الفنية في الجنس الأدبي الواحد تتجاور في فضاء الإبداع المشترك، كما هو الحال مع النثر القصصي والكتابة الشعرية. ونلمس في هذا المجال عدة أمور هي:

أولاً: حيوية الصراع بين الاتجاهات بحثًا عن إبداع أصيل ناجز ينتمي إلى زمنه ويعبر عن روح العصر، فالأدب العظيم يتعدى دائمًا حوار الشكل والمضمون.

ثانيًا: قضية تأصيل التقاليد في الإبداع الأدبي الحديث، فقد استوت

المؤثرات الحداثية، بمصادرها الإيجابية أساسًا، داخل تجارب أدبية جيدة، وثمة شواهد في الأجناس الأدبية كلها.

ثالثًا: اتصال الاتجاهات بالموقف السياسي والاجتماعي غالبًا، حيث الموقف الأدبي استجابة مباشرة لمرحلة أو التزام سياسي أو تطلع اجتماعي وثقافي.

٢-٥-٤- الأدب والممارسة النقدية:

أصبح النقد فعالية أدبية ناشطة لها استقلاليتها غالبًا التي توازي الممارسة الأدبية أو تتجاوزها طليعة ثقافية من شأنها أن تكون دليلاً كاشفًا للمبدعات الأدبية إنتاجًا، وإعادة إنتاج، فيما يؤلف سعي النقد إلى الإبداع أيضًا. إن هذا التطور النقدي شاخص للعيان في جملة ظواهر هي:

أولاً: فهم النقد، فقد مضى ذلك الوقت الذي يهتم فيه النقد بالتعليق العابر، أو الرأي السريع، أو المراجعة الشخصية، أو الموقف الأحادي من الإبداع كالنقد اللغوي أو نقد المضامين، وهذه كلها مظاهر سابقة غالبة على النقد في المراحل السابقة. لقد صار النقد إلى ممارسة نقدية تستند إلى فهم النقد ومكوناته ووظائفه وأدواته وتقنياته وأساليبه في التحليل والتقويم والتوجيه والإضاءة، فالنقد معرفة وعلم أيضًا. وتعد كتابات حسام الخطيب أبرز الجهود النقدية في إرساء فهم جديد للنقد ولاسيما كتابه «أبحاث نقدية ومقارنة» (١٩٧٢م).

ثانيًا: نقد الأجناس الأدبية، فلم يوجد الناقد الأدبي المتخصص قبل هذه المرحلة، ولم يكن الناقد الأدبي غالبًا حينذاك إلا أديبًا يكتب انطباعاته وآراءه الشخصية، أو صحفيًا يعنى بالمتابعات والمراجعات وعرض الكتب، أو باحثًا تشغله نظرة أحادية الجانب عن بقية عناصر العمل الأدبي، وفي هذه المرحلة، كبرت أسرة النقاد المتخصصين في ميدان كل جنس أدبي، ففي نقد الشعر، نذكر منظرين معروفين كأدونيس في كتابه «مقدمة للشعر العربي» (١٩٧١م)، وكمال أبو ديب في كتابه «في البنية الإيقاعية للشعر العربي» (١٩٧٨م)، ويوسف اليوسف في كتابه «ما الشعر العظيم» (١٩٨١م). ونذكر نقادًا تطبيقيين كحنا عبود وأحمد يوسف داود ونعيم اليافي ومهدوح السكاف ووفيق خنسه ومحمد ياسر شرف ومحمد جمال باروت، ويهتم الأخير بالنزعات الشعرية الحداثية، ولا سيما قصيدة النثر.

وفي نقد القصة والرواية، برز نقاد ذوو خبرة مثل حسام الخطيب ونبيل سليمان وسمر روحي الفيصل وعدنان بن ذريل ومحمد أبو خضور وآخرين.

ثالثًا: نقد الفنون، إذ ساعد المناخ النقدي العام، على تنمية العلاقات بين الآداب والفنون نتيجة اتصالها، وتقارب تجارب مبدعيها وصلاتهم، وبروز الجانب الأدبي في هذه الفنون، فهناك نقاد متخصصون بالفنون التشكيلية مثل

صلاح الدين محمد وخليل صفية وغازي الخالدي وطارق الشريف، وهناك نقاد مسرحيون مثل رياض عصمت وعبد الله أبو هيف، ونقاد سينمائيون مثل سعيد مراد ورفيق أتاسي وصلاح دهني ومحمد قاسم.. الخ.

رابعًا: نقد النقد، وهي مرحلة متقدمة في أي وضعية نقدية تعبيرًا عن زيادة فاعلية النقد في الحياة الأدبية. وثمة كتب ومقالات كثيرة تشهد على خصوبة النقد وجرأته.

خامسًا: الصحافة الثقافية، فقد تعاظم دورها في هذه المرحلة، واحتفت بالتيارات الأدبية المختلفة، وكانت سجلاً للمعارك النقدية، وأظهرت بجلاء التأثيرات المتبادلة بين الأدب والنقد.

الولاء الأبدي

جعفر حافظ الخطيب (*)

بردى بمائِك قد مزجتُ دِمائي … فَبعذبِ مائِكَ إنْ ظمِئتُ رُوائي
ما اعتادَ جفني أنْ ينامَ وأنتَ في … سُهدٍ وَأمنُكَ فيهِ سِرُّ حُدائي
أنسَيْتني أُمّي وَطيبَ نشيدِها … وَهزيزَ ذاكَ المهدِ في الظّلماءِ
وَدِمشقُ في عِطفيكَ قِبلَةُ أمّتي … وَبقاسيون المَجْدِ طيبُ لِقائي
لي فيكَ ذِكرى كلّما خطَرتْ على … سَمْعي أُجدِّدُ بَيْعتي وَوَلائي
لأبي المآثرِ والملاحمِ وَالعُلا … رَمْزِ النّضالِ مُكرِّمِ الشُّهداءِ

(*) جعفر حافظ الخطيب: شاعر من سورية. ينشر في الدوريات المحلية والعربية.

الولاء الأبدي

وَمَجدُ التَّاريخِ فينا حافظٌ ... نَفديه بالآباءِ والأبناءِ
طُوبى لأمٍّ انجبَتْهُ ليغْرُبَ ... ليُزيلَ عنهَا كُربَةَ الأدواءِ
وَدليلَ خيرٍ للأنامِ بأسْرهِ ... كالشَّمسِ تُرسلُ نورَها بجَلاءِ
بوركْتَ ربّي إذْ أتيتَ بحافظٍ ... وَالخطْبُ يعصِفُ في دُنا الغَرْباءِ
قالوا: السَّلامُ، فقالَ: سِلْمٌ دائمٌ ... يمضي بِنا للقِمَّةِ الشَّمّاءِ
وإذا السَّلامُ اتى وَفيهِ مذلَّةٌ ... فالقانِعونَ بهِ منَ الجُبناءِ
وَإذا أرادوا الحرْبَ نحنُ أُوارُها ... يُصلى بنا للحَرْبِ جَيشُ فِداءِ
نحنُ الهداةُ إلى الأنامِ وَغيرُنا ... مُتخبِّطٌ كالنَّاقةِ العَشْواءِ
لَولا أبو بَشّارَ ما كانَ السَّنا ... يَهدي رَكائبنَا إلى العَلْياءِ
لَوْلاهُ ما كانَ الأمانُ لِشَعبِنا ... دِرعًا يَقيهِ منْ أذى الأعْداءِ
تشرينُ للتَّصحيحِ نجمٌ ساطعٌ ... بالنورِ لايخفى لغَيْنِ الرّائي
وأخُوه للتَّحريرِ فخْرٌ دائمٌ ... يَزهى بهِ وَيعزُّ كُلُّ لِواءِ
بِهِما تميَّزَ حافظٌ عن غَيرِه ... فهُما جناحاهُ لِكُلِّ عَلاءِ
ماذا أقولُ وأنتَ فَوْقَ مقالَتي ... يامُلْهِمَ الأُدباءِ والشُّعَراءِ؟
لَمْ تُبقِ للأعداءِ فيهِ حُجَّةً ... يتذرَّعونَ بها لِشَنِّ عِداءِ
للهِ دَرُّكَ أنتَ قائدُ أمَّةٍ ... زَحَمتَ بكِبْرٍ مَنكِبَ الجَوْزاءِ
أنتَ الَّذي ذكَّرتَنا بجدودِنا ... وَبَعثْتَ فينا مَيْتَ الأحْياءِ
لِلقُدسِ أنتَ تصونُها منْ غادرٍ ... وَتُعيدُ فيها بَهجَةَ الإسْراءِ
في سَاحَةِ الأقصى وفي جُولانِنا ... وَبِكُلِّ شِبْرٍ منْ رُبا سَيْناءِ
تَعلُو بيارِقُنا بفَضلِكَ دائِمًا ... وَترِفُّ في زَهْوٍ وَفي خُيَلاءِ
إنْ رُمتَ أمرًا كُنْتَ فيهِ مُبدِعًا ... والصَّمتُ منْكَ يَطيبُ للغُرَماءِ
لَكَ منْ قَوافي الشِّعرِ بَحْرٌ هادرٌ ... وَمَراكِبٌ سَخِرتْ منَ الأنْواءِ
ماانْجَبَتْ أمٌّ كَمِثْلِكَ في الوَرى ... شَهْمًا غَدا مِنْ خيرةِ العُقلاءِ
بُورِكْتَ يامَنْ أصلُهُ وَصنيعُهُ ... يتجاذبانِ مَطارِفَ العَلْياءِ

الولاء الأبدي

إنْ غِبْتَ جِسْمًا أنتَ فينا حاضِرٌ ... والموْتُ لايأتي على الشُّهداءِ
انجبْتَ للعَلْياءِ بَشَّارَ العُلا ... فَلَهُ من الأجيالِ كُلُّ وَلاءِ
بَطَلٌ تلا بَطَلاً فَقادَةُ أمَّتي ... مِنْ خيرةِ الأبْطالِ والنُّبَلاءِ
يافَخْرَ كُلِّ مُناضِلٍ في أمَّتي ... تَفْدي عُروبَتها بِكُلِّ فِداءِ
ماذلَّ شَعْبٌ فيهِ مِثْلُكَ قائِدٌ ... يَسْعى لِعِزَّتِنا بِكُلِّ دَهاءِ
لَكَ في عَرينِ المَجْدِ نَجمٌ ساطِعٌ ... يَهْدي القوافِلَ في دُجى الظَّلماءِ
بَشّارُ انتَ رَجاؤُنا وَوَلاؤُنا ... أنْعِمْ بِبَشّارٍ وَطيبِ وَلاءِ
دُمْ لِلْعُلا بَشّارُ أنْتَ عظيمُنا ... أنْتَ الحكيمُ وَسَيِّدُ الحُكَماءِ

الإعلام في فكر القائد الخالد حافظ الأسد

أحمد الحسين (*)

من المؤكد أن الإعلام ولا سيما في هذا العصر قد بلغ آفاقًا من التطور في وسائله وأساليبه فاقت ما عرفته المجتمعات البشرية من قبل، وبذلك تعاظم تأثيره وازدادت خطورته، وصارت وسائل الإعلام الحديثة وتقنياتها المتطورة قادرة على اختراق الزمان والمكان والوصول إلى عقول الناس في بيوتهم، والتأثير في أفكارهم وتوجهاتهم النفسية والسلوكية والاجتماعية عبر الكلمة المسموعة والمقروءة والصورة المرئية.

وانطلاقًا من ذلك أصبح الإعلام سلاحًا هامًا وأداة تأثير في غاية الأهمية لصنع التوجهات وبلورة الأفكار والمواقف، وهو سلاح ذو حدين، فقد يضر أو ينفع حسب منطلقاته وتوجهاته ورسالته، وأهدافه التي يسعى إلى تحقيقها، وتثبيتها من خلال الحقائق والأفكار، والقيم التي ينشرها، ويدعو إلى تكريسها.

(*) د. أحمد الحسين: باحث من سورية. عضو اتحاد الكتاب العرب.

والواقع أن دول العالم، وكما تتصارع في مختلف المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية، فإنها تتصارع كذلك من خلال وسائل إعلامها حيث تعمل على ترويج أفكارها، ومشاريعها، ومواقفها بما يحقق مصالحها وغاياتها، وفرض هيمنتها وثقافتها على مجتمعات أخرى، وإن دلّ هذا على شيء، فإنما يدل على أهمية الصناعة الإعلامية وتأثير وسائل الإعلام التي أصبح من المستحيل أن نتصور العالم يعيش من دونها.

ومن هنا كان اهتمام سورية، ولا سيما بعد قيام الحركة التصحيحية المجيدة بالإعلام وتطوير وسائله، وتحديث أساليبه، وتوسيع قاعدته، نابعًا بالأساس من الرؤية الشمولية التي كان القائد الخالد حافظ الأسد يرى بها أهمية الإعلام وضرورته ليس في بناء الإنسان فحسب، ولكن في مواجهة التحديات الخارجية التي تستهدف الإنسان العربي، وتراث الأمة العربية، ووجودها المادي والحضاري.

وتشكل خطب وكلمات ومواقف القائد الخالد حافظ الأسد المرجعية الأساسية التي تتيح لنا تمثّل رؤيته لدور الإعلام ورسالته ووظائفه، وهي رؤية علمية، شمولية، موضوعية، تحلل وتمنهج وسائل العمل وأساليبه، وترسم له منطلقاته الأيديولوجية والفكرية.

❖ الإعلام الذي نريد:

ولعل في مقدمة الأولويات التي أشار إليها القائد الخالد حافظ الأسد أن الإعلام أصبح في هذا العصر فنًّا وعلمًا واختصاصًا، وهذا يتطلب إعادة نظر بمكونات الإعلام العربي، ووسائله وأساليبه، وبنية خطابه سواء الموجه منها إلى الداخل أو ذاك الموجه إلى الخارج، ولكي يكون هذا الإعلام فعّالاً وناجحًا في أداء رسالته، وتحقيق أهدافه، فلا بدَّ أن يكون الصدق منطلقه، والحقيقة غايته، والموضوعية صفته، والعلمية وسيلته، وأن ينهج في مخاطبة الرأي العام العالمي نهجًا علميًّا قائمًا على الدراسة بعيدًا عن الارتجال.

وقد أشار القائد الخالد حافظ الأسد إلى هذه المنطلقات انطلاقًا من رؤيته وتحديده لرسالة الإعلام ودوره والأهداف التي يعمل من أجل تحقيقها فقال:

- نريد الإعلام أداة تغيير وتطوير نحو الأفضل في كل مجالات الحياة.

- ونريده صلة واعية بين المؤسسات والجماهير تنقل آراء الشعب ومشاعره، وتبسط سياسة الدولة للمواطنين.

- ونريد للإعلام أن يرسخ حب التراث العربي العظيم في نفوس الناشئة، بما يمثله ذلك التراث من معان إنسانية، وينطلق من النظرة القومية متفاعلاً في الوقت ذاته مع الثقافة الإنسانية الواسعة.

- ونريد للإعلام أن يدافع عن مكاسب الجماهير الشعبية، وأهداف الأمة العربية وقضاياها، وأن يجعل الالتزام بقضية

الجماهير أولى صفاته وأن يجعل تنمية شخصية الإنسان العربي المؤمن بأمته والمناضل في سبيل الوحدة والحرية والاشتراكية مهمة في مقدمة مهماته.

- ونريد من الإعلام أن يمارس دوره في الرقابة الشعبية على أجهزة الدولة، وممارسة النقد الموضوعي بحرية كاملة.

- ونريد من الإعلام تقديم خدمة أوسع وأسرع لجماهير الشعب من خلال تطوير وسائله والاستفادة من منجزاته.

- ونريد من الإعلام تعميق فكرة الوحدة العربية والنضال في سبيلها.

- ونريد للإعلام أن يؤكد الحرية بأسمى معانيها ويقاوم الظلم والاستغلال والعبودية في كل مكان.

❖ الإعلام في معركة المواجهة:

وفي الكثير من اللقاءات والمناسبات والمؤتمرات التي كان القائد الخالد حافظ الأسد يلتقي بها رجال الإعلام كان يؤكد باستمرار على دور الإعلام في المعركة مع العدو الصهيوني، إذ يقول مخاطبًا أعضاء المؤتمر العام الرابع لاتحاد الصحفيين «في صراعنا الطويل مع الصهيونية ثمة سلاح له دور رئيس، ونعوّل الكثير على إتقان استخدامه، هذا السلاح أنتم سدنته وجنوده وأنتم المسؤولون عن صيانته وإعداده، وحسن استعماله، وأقصد بذلك سلاح الإعلام، والصحافة عنصر أساسي من عناصره».

وهو يشير إلى ما يمتلكه العدو الصهيوني والدوائر الصهيونية العالمية من إمكانيات إعلامية هائلة تمارس تضليل الرأي العام الدولي، وتحرفه عن معرفة الحقيقة، منبهًا إلى ضرورة تحليل اتجاهات الرأي العالمي، ومعرفة الأوساط التي يمكن أن يصل إليها صوتنا العربي، ذلك أن من بين تيارات الرأي العالمي جهات ناصبت القضية العربية العداء، وأخرى دافعت عنها، وثالثة ما زال صوتنا غير واضح لها، أو أن هذا الصوت وصل إليها مشوهًا، وهنا يجب أن يعمل الإعلام العربي على كسب صداقة هذا التيار ونيل تأييده.

كما أنه ومن خلال التحليل العلمي والموضوعي لدور الإعلام في المعركة يشخص واقع الإعلام العربي، ويرسم له منطلقات العمل واستراتيجيته من خلال التركيز على الحقائق والمعطيات والتوجهات الأساسية التالية:

- الاعتراف بأن أجهزة الإعلام ووسائل الإعلام العربية بحاجة إلى تطوير شامل لتزداد قدرتها على النهوض وتحقيق مهمتها على الوجه الأكمل.

- وسائل الإعلام العربية عندما تلغي تناقضاتها الهامشية، وتوحد جهدها، تعطي من النتائج ما يفوق إمكاناتها، وهذا ما حصل في حرب تشرين، حيث أدى الإعلام جهدًا وطنيًا كشف للرأي العام العالمي، عدالة قضيتنا العربية، وهذا ما يجب أن يكون حافزًا على إمعان النظر في هذه

الحقيقة المشرقة، والاستفادة منها باستمرار.

- توحيد الجهد العربي إعلاميًا ودعمه بالإمكانات الثقافية والمادية لاختراق أسوار النفوذ الصهيوني المسيطر على اتجاهات الرأي العام في الغرب.

- لا يكفي أن تكون قضيتنا عادلة في جوهرها وأهدافها ليكون الإقناع بها مضمونًا، بل لا بد من أن ندعم الدعوة لها عبر وسائل الإعلام بممارسة النضال بأشكاله الأخرى المتعددة، وإن جزءًا هامًا من الرأي العام في كثير من الدول التي نطمح بإقناعها بحقنا، لا يولي قضيتنا اهتمامًا خاصًا إلا بقدر ما يتصل بالحياة اليومية لتلك الدول، ومصالحها الرئيسة، وهذا ما أثبتته أيضًا حرب تشرين.

- نجاح الدعاية الصهيونية مرده في أكثر الأحيان إلى تفرق كلمة العرب، هذا التفرّق الذي تجد فيه الدعاية الصهيونية مادة دسمة ومعينًا تغرف منه كل يوم.

❖ رسالة الإعلام القومية:

ولقد أشار القائد الخالد حافظ الأسد إلى بعض مشكلات الإعلام العربي من حيث ارتهانه إلى المواقف السياسية العربية، حيث يبدو ذلك الإعلام كانعكاس للسياسة العربية، ومرآة لها، وفي ذلك خطر لا يضعف الإعلام العربي فحسب، ولكنه يمدّ أعداء الأمة العربية بالمادة التي تساعدهم على إثارة التناقضات، وتعميق الخلافات، وفي ذلك هدر لطاقات الأمة العربية، وتشويه لصورتها، وإضعاف لحقوقها.

ومن إدراك هذه الحقائق كان التأكيد على رسالة الإعلام القومية، ودور الإعلاميين العرب في تعزيز العلاقات العربية، وتنقيتها من الشوائب وتنمية الشعور القومي، والاعتزاز بالأمة العربية، من خلال التوجه نحو إعلام يوحّد ولا يفرق، يعزز روابط الأخوة ولا يمزقها، ونحو إعلام هادف إلى إزالة الرواسب ومحو السلبيات والانتقال بالمجتمع العربي نحو واقع متقدم، مليء بالإيجابيات.

وهذا المنحى أكده القائد الخالد في رسالته إلى المؤتمر العام الخامس لاتحاد الصحفيين العرب، الذي انعقد في الجزائر سنة ١٩٧٦ قائلاً: «وفي هذا المجال يقع عليكم معشر الصحفيين واجب أساسي بأن تكونوا عبر الصحافة العربية دعاة وحدة وتضامن، لا عوامل تفرق وتنابذ»، وأضاف «إننا في هذه المرحلة أشد ما نكون حاجة إلى تأكيد عدد من المبادئ وترسيخ عدد من القيم العربية والإنسانية في نفوس أبناء أمتنا، وأي جهد يبذل في غير منحى التعاون العربي، والتضامن العربي، إنما هو جهد مهدور ليست له أية قيمة إيجابية في خدمة الأمة العربية، وخدمة قضاياها المصيرية».

❖ الإعلام والقضية الفلسطينية:

وتعدّ قضية فلسطين في مقدمة القضايا المصيرية للأمة العربية، مما يجعل

من واجبنا كما قال الراحل الأسد: «أن نجعل من الإعلام العربي صوت الثورة العربية، المدافع عنها، الموضح لأهدافها، والعامل على تعبئة الجماهير تحت لوائها، وإن من حق الثورة الفلسطينية، وهي جزء من الثورة العربية، أن تلقى من إعلامنا كل دعم ومساندة، وأن تنال منه كل عون لنرفع صوت الشعب العربي الفلسطيني عاليًا في أنحاء الوطن العربي، وفي أرجاء العالم».

وهو ما أكدّ عليه في رسالته إلى مؤتمر اتحاد الصحفيين العالميين في هلنسكي عام ١٩٧٦ حيث خاطب أعضاء المؤتمر بالقول: «إنكم في مضمار عملكم جنود، سلاحكم القلم الحر، وذخيرتكم الكلمة النظيفة، ولقد كانت لكم وما تزال جولات موفقة في الدفاع عن قضايا أمتنا العربية، وفضح عدوان إسرائيل المتمثل في احتلالها الأرض العربية واغتصابها حقوق الشعب العربي الفلسطيني، وسيظل شعبنا يقدر للاتحاد العالمي للصحفيين موقفه وجهوده في سبيل مساندة نضالنا العادل ضد الصهيونية العنصرية ومخططاتها الخبيثة».

وهذا ما تجلّى كذلك في الرسالة التي وجهها إلى المشاركين في ندوة التضامن مع كتاب وصحفيي ومناضلي الأرض المحتلة التي عقدت في روما سنة ١٩٨١، إذ قال: إنكم بتضامنكم مع كتاب الأرض المحتلة، وصحفييها ومناضليها، إنما تؤدون دورًا إنسانيًا رفيع المستوى وتؤكدون بالتالي أن المناضلين من أجل الحرية والعدالة، هم أخوة أينما كان موقعهم في العالم».

❖ الإعلام مسؤولية:

ولإيمانه بدور الإعلام ووسائله في مجال التنمية الاجتماعية، وبناء الإنسان، فقد أكد القائد الخالد حافظ الأسد على أهمية الدور الذي تقوم به الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى في سورية، وضرورة تمتعها بحرية العمل والأداء لتكون وسيلة فعالة في حماية الديمقراطية الشعبية وتعميقها، ولتكون وسيلة أخرى يتم من خلالها نوع من المشاركة الشعبية في إدارة الأمور ورقابتها، مما يعني توسيع المشاركة الشعبية في الحكم، وهو ما تهدف إليه الديمقراطية الشعبية».

وأشاد في هذا الجانب بدور الصحافة السورية في النقد، وكشف الأخطاء والعيوب، انطلاقًا من أن كشف الخطأ يشكل الخطوة الأولى لإصلاحه، واضعًا الأسس السليمة لهذه العملية من خلال الابتعاد عن الغلو، والحرص على الدقة، وتحري الحقيقة والاتصاف بالموضوعية، التي يمكن بها، «أن نتحرك باتجاه الهدف العام الذي نعمل من أجله».

ولقد شكلّ ذلك رسالة، ومنهج عمل لوسائل الإعلام والإعلاميين عندما قال في الكلمة التي ألقاها أمام المؤتمر التاسع عشر للاتحاد العام لنقابات العمال سنة ١٩٧٨: «لا نريد أن نتستر على أحد عندما يخطئ، ومن يخطئ يجب أن يتحمل مسؤولية خطئه، ومن يقصر يجب أن يتحمل مسؤولية التقصير، قلت هذا في

الماضي، وأقـوله الآن: سلطوا الضـوء الكاشف على مواطن الخطأ، وعلى مواقع المخطئين».

ذلك أن من واجب وسائل الإعلام كما يقول: أن تبحث عن الحقيقة، ولاتسكت عن الخطأ، ومن حق وسائل الإعلام وواجبها أن تكافح الخطأ أينمـا وجـد، وإذا لم يكن دورها هنا أهم الأدوار، فهو بالتأكيد من أهم الأدوار.

إن الإعـلام مسؤولية، والإعلاميـون مسؤولون عن صون حرية الكلمة، وعليهم محاربة الابتزاز والابتعاد عن اختلاق الأنباء المثيرة بتأكيدهم على الرصانة والدقة، لأن العمل الرصين والدقيق هو الأنفع والأبقى، وأن النجاح الأكبر في العمل الإعلامي، هو ما نشأ عن التمسك بالحقيقة، والصدق بالتعبير عن أماني الشعب وآماله، وبالمحافظة على الكلمة الصادقة المسؤولة، يعزز الإعلامي الصلة بالشعب، ذلك أن الشعب يطلب الحقيقة ويدافع عنها ويحميها.

❖ كلمة أخيرة:

تلك مقاربة عامة حرصنا قدر المستطاع أن نتبين من خلالها مفهوم الإعلام، ودوره ورسالته في فكر القائد الخالد حافظ الأسد، حيث تبيّن مدى الاهتمام الذي كان يوليه للإعلام ووسائله، وإدراكه لأهدافه ووظائفه في بناء الإنسان والمجتمع، وتعميق الممارسة الديمقراطية والدفاع عن قضايا الأمة، والتعبير عن رسالتها الحضارية والإنسانية.

هذه الرؤية التحليلية العميقة للإعلام ووسائله، على صعيد الممارسة النظرية والفكرية، تعمقّت أكثر فأكثر من خلال الاهتمام بكل ما من شأنه أن يطور مسيرة الإعلام، ويرتقي بأدائه من خلال توفير الإمكانات المادية والمالية والفنية، والتوسع في إحداث المراكز والصروح والهيئات الإعلامية التي حملت مفردات الخطاب السياسي لسورية، وعبرت عن مواقفها الوطنية والقومية، وتمسكها بنهج الثوابت والمبادئ التي أرسى أسسها القائد الخالد حافظ الأسد، والتي تسير عليها سورية اليوم في ظل قيادة السيد الرئيس بشار الأسد.

المصادر والمراجع

١ ـ حافظ الأسد: صانع تاريخ الأمة، وباني مجد الوطن ـ أحمد قرنة.

٢ ـ حافظ الأسد: آفاق مستقبلية ـ رياض محمود.

٣ ـ التاريخ لا تحركه الصدفة، قراءة في فكر الأسد ـ عادل رضا.

٤ ـ سورية وثلاثون عامًا من مسيرة التصحيح ـ مالك حبيب.

حافظ الأسد
نهجٌ عظيم وقائدٌ خالد

عبد الوهاب زيتون (*)

إنه فوق كل رثاء ..بذكره يتألق الحرف وتنبض الكلمات في شرايين الكتاب والأدباء وتتفجر العاطفة وتتدفق .. لقد أصبح اسم حافظ الأسد أغنية عذبة تترنم بها شفاه الملايين..الملايين في الوطن العربي الكبير لقد ولد هذا الإنسان الخالد في السادس من تشرين أول لعام ١٩٣٠ م في ربوع الساحل السوري ولد في الزمن الصعب . جاءت . ولادته في خضم العواصف والتحديات التي شهدتها الأمة العربية فانبعث به الأمل الذي طال انتظاره. حياته على قصرها ملأت أكثر من نصف قرن من الكفاح الوطني، والملاحم الرائعة وستبقى حرب السادس من تشرين العظيمة لعام ١٩٧٣، وهي إحدى ملاحمه وقد ارتبط ذكرها بذكره ستبقى الحدث الأهم في تاريخ العرب الحديث.

(*) باحث من سورية عضو اتحاد الكتاب العرب، له عدد من المؤلفات، ينشر في الصحف المحلية والعربية.

لقد التصق حافظ الأسد طيلة ما يزيد عن نصف قرن من العطاء بهموم الأمة، ولامس عن كثب أوجاعها.. بل عاش بكل جوارحه في خضم أوجاع الوطن الكبير.. كانت الأمة.. كل الأمة.. والوطن.. كل الوطن.. تحيا وتحيا في خلجات فؤاده، ووعيه: ونبرات صوته.. كانت الوحدة العربية.. الأمة العربية.. هي شغله الشاغل، وهي الهم الذي لايعلوه هم آخر.. والوحدة هي الحلم العربي: وهي الحلم منتهاه لديه.. كان حافظ الأسد طيلة هذا الزمن الصعب، بل والأصعب من تاريخ العرب الحديث هو وجدان هذه الأمة ونبراسها ودليل عملها، وربان سفينتها إلى بر الامان.. لقد كبر بها بالقدر الذي كبرت به.. وكان أمله وعمله أن تكبر سورية لتشمل كل الوطن العربي وأن يكبر لبنان ليشمل كل الوطن العربي.. وتكبر مصر لتشمل كل الوطن العربي.. ويكبر كل قطر عربي ليكون الوطن العربي من أقصاه إلى أقصاه ونكون في أمة عربية عظيمة واحدة.. (والعرب هم الأقوى لو شاءوا فتوحدوا وهم يملكون من مقومات القوة ما يجعلهم الأقوى في هذه المنطقة الأهم من العالم).

حافظ الأسد.. إنه من طيب أمتنا، ومن عبق عروبتنا، وأريج سورية الحبيبة، وباني تاريخها الحديث. ومن يريد أن يتعرف على سورية الحديثة، فليعد إلى شخص القائد العظيم حافظ الأسد.. إلى خطبه وكلمته، ومقابلاته.. ومن يريد أن يتناول الوطن العربي الكبير في أقسى ظروفه الشائكة والمعقدة فليعد إلى مدرسة ونهج القائد المعلم حافظ الأسد.. ومن يريد أن يتعلم فن القيادة والسياسة الدولية المعقدة فليعد أيضًا للتجربة الفذة للقائد الأسد.. وإذا ذكر اسم حافظ الأسد، ولأمد طويل وعقود قادمة فإن ذلك يعني أبدًا الأمة العربية بكل عراقتها وتراثها وأصالتها.. وإن ذلك يعني النضال القومي والإنساني الرحب الفسيح ضد الصهيونية والعنصرية والظلم في كل مكان من العالم وإن ذلك يعني القضية الفلسطينية بكل ثقلها وهمومها وجراحاتها.. وإن ذلك يعني البعث العربي العظيم الذي وجد في شخص القائد التاريخي الشجاع حافظ الأسد أمينه العام، وحامل هويته ورسالته الحضارية الخالدة وبالحديث عن هذا المناضل الكبير رحمه الله تهتز المشاعر والنفوس! وهنا يكمن سر هذه السمفونية البديعة الرائعة بين الرئيس الأسد، وأبناء أمته العظيمة.. بين الإنسان الكبير حافظ الأسد والانسان العربي، في كل مكان ممن عاش وترعرع في خلجات وجوارح وطموحات وأحاسيس القائد الرمز والزعيم الخالد حافظ الأسد..

القائد الخالد حافظ الأسد كان، وسيبقى قبل كل شيء إنسانًا عربيًا عظيمًا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان متجددة

نبيلة لقد عرفناه، وعرفه العالم أجمع إنسانًا عظيمًا ذا نفس صافية وروح سامية، أحس فأرهف، وفكر فحلق، وتسلم مسؤوليه قيادة الدولة، فكان خير من تبوأ منصبها طيلة ذلك الزمن الصعب الذي حقق خلاله أرفع وأجمل معاني تحمل المسؤولية الوطنية التي لا تعرف حدودًا في الغيرية ونكران الذات.. فقدم بذلك أروع مثال عن فن القيادة وتحمل أعباء المسؤولية الوطنية التي لا تعرف حدودًا في الغيرية ونكران الذات.. وجد فيها أمانة كبرى حرص القائد الأسد طيلة ثلاثين عامًا كل الحرص على حملها وأدائها إلى أهلها بكل معاني المسؤولية الوطنية والإنسانية.. هكذا كان يقول للأمة عند كل تجديد بيعة:

(عندما أقر مجلس الشعب أن أكون رئيسًا للجمهورية حين قال أبناء وطني الأعزاء نعم لهذا الإجماع الواسع فقد طوقوا عنقي بثقتهم الغالية التي أعتز بها أعظم اعتزاز وأقدر مغزاها أعمق تقدير. وأجهد بكل قوتي للنهوض بما ترتبه على من واجبات ومسؤوليات وما تقتضيه من كفاح وعناء.. بقدر ما أسعدتني هذه المسؤولية. هذه الثقة الغالية التي منحتموني أياها فقد أشعرتني بضخامة الأعباء التي رتبتها..

أقول لكم إخوتي وأبنائي في أرجاء سورية الحبيبة.. أقول لكم بكل الصدق الذي عودتكم عليه، وبكل المحبة التي تملأ قلبي نحوكم، إنني في الحل والترحال، وفي الليل والنهار كنت دائب التفكير بالمواطن والوطن. لم تبرح ذهني أهداف الوطن وكيف نحققها، وحاجات المواطن وكيف نوفرها ولم أضن بجهد في طاقتي أن أبذله ولا ترددت في عمل اقتنعت بأن فيه خير الشعب والأمة أما المنصب ذاته فلم يكن في نظري في يوم من الأيام سلطة بقدر ما هو أمانة ومسؤولية).

وهكذا بقي المعلم والمربي الكبير حافظ الأسد فارسًا على صهوة جواده.. هكذا كانت حياته ملحمة زاخرة خالدة ملأها بالعطاء والعمل حتى آخر لحظات حياته مما عرفه فيه العالم أجمع .. وكم علينا ولأمد طويل أن نتأمل كلماته.. التي تقع في النفس كالأجراس وتدق في القلب، وتحفر في الذاكرة، وتثير العاطفة في كل نفس صادقة.. هذه الكلمات الأخيرة التي نطق بها عبر الهاتف إلى الرئيس اللبناني أميل لحود ظهيرة يوم السبت في العاشر من حزيران وهو يودع الحياة، بل قل وهو يودع الأمة والمسؤولية راضي النفس قرير العين بقوله.. بكلماته المضيئة الخالدة.

(قدرنا أن نبني لأبنائنا مستقبلاً يطمئنون إليه، وواجبنا أن نورثهم أفضل مما ورثناه).

فكان أن أدى الأمانة، وبلغ الرسالة..

حافظ الأسد.. نهج عظيم وقائد خالد

هكذا قال فيه الرئيس اللبناني أميل لحود.. وهكذا كانت حياته كلها، وهكذا كان همه الدائم كما أفصح عنه بقوله.

(لن نورث أجيالنا القادمة ذلة ومهانة، بل سنورثهم عزة وكبرياء وكرامة).

وهكذا هو هذا الإرث الكبير الذي تركه فينا هذا الزعيم الخالد حافظ الأسد، والذي ما علينا إلا أن نحافظ عليه، ونحسن استخدامه، ونعمل معًا في كل مكان إلى الإرتقاء إلى حيث يجب أن يكون الوفاء لرمز العطاء وسيد الوفاء لهذا الإنسان العظيم والقائد التاريخي الشجاع القائد الخالد حافظ الأسد.

ومما يجب التوقف عنده في حياة عظيم أمتنا هو بساطته والتصاقه بحياة عامة الشعب والأمة من سوادها الأعظم وجدناه طيلة حياته بعيدًا كل البعد عن بهارج الحياة، يمج القصور والترف والبذخ، وينأى وينهى عن المظاهر الأستعراضية الفارغة.. وهو الذي أفصح عن التصاقه بالأرض والشعب بقوله.

(انني اولاً وأخيراً فلاح بن فلاح.. إن جلسة لي بين سنابل القمح وعلى بيادر الزرع وتحت أغصان الزيتون تساوي في نظري كل قصور الأرض.. لم أكن في الماضي لأعيش في قصر، ولن أعيش فيه إلا بالقدر الذي تفرضه على ضرورات العمل والأضطلاع بالمسؤولية).

هكذا عاش القائد.. ورحل القائد من على صهوة جواده.. خرج من وسط الجماهير الكادحة في الزمن الصعب.. وبقي في خضم صفوفها وأحداثها حتى آخر أيام حياته.. لقد تعلق بها، كما هي تعلقت به وأعطاها كل حبه وقلبه ومشاعره وأحاسيسه.. وبالقدر الذي عاشت هي معه في فكره وجوارحه وكلماته همًا وطنيًا صادقًا لا يعلوه أي هم آخر.. لقد ملأت حياته كلها، فكان رحمه الله مشدودًا إليها، كما بقيت هي مشدودة إليه، وفية على عهده، مما لم تعرف مثله زعيمًا آخر من قبل.. وهذا هو سر التفاعل بين الأب الكبير حافظ الأسد.. وبين أبنائه في الوطن العربي الكبير.. ممن خرجوا إلى الشوارع والساحات في كل مكان في مأتم عائلي عربي واحد واسع ليس لمثله من قبل بل إن ماشاهده الوطن العربي من أقصاه إلى أقصاه وما شهدته سورية الحبيبة بكل أزقتها وشوارعها وساحات مدنها وقراها.. ممن خرجوا لوداع الأب والقائد حافظ الأسد.. ليس سوى بعض ماعناه هذا القائد الخالد وقد رأى تلك الجموع عندما خرجت لوداع إبنه الباسل فقيد الوطن والأمة بقوله.

(إننا في هذا الوطن أسرة كبيرة واحدة.. ما يحزن يحزننا جميعاً، ومايفرح يفرحنا جميعاً فالقلوب متآلفة، والسواعد متشابكة، والنسيج الوطني متين متانة الفولاذ).

.. هذا نذر يسير من سجاياه الحميدة، وخصاله الفاضلة.. إنها بعض ومضات عالمه الإنساني الذي لا تحده حدود. ومما يصعب علينا جميعاً الإحاطة به أو الولوج إلى أغواره الإنسانية مرة واحدة!

أما ماذا عن فن السياسة الدولية التي أتقنها القائد الخالد، والسياسي البارع، القائد والمفكر حافظ الأسد مما لم يتقنها زعيم آخر أو دبلوماسي آخر على الساحتين العربية والدولية. ومما نحن اليوم أحوج مانكون إلى الاقتداء بنهجه والمحافظة على إرثه.. مما عرفه العالم وسدنة السياسة الدولية فيه من صفات وخصائص، وفن وممارسة ليس أقلها الثبات في الموقف، والوضوح في الرؤية ودقة وبراعة في إدارة دفة الأحداث وحكمة بليغة في تقدير الموقف والتعامل مع المستجدات لم يعرف غيره مثلها وثقة راسخة ببلوغ الأهداف مهما عظمت وتخطي العقبات مهما بلغت.. مع اطمئنان لا حدود له للحاضر والمستقبل.. مع الكثير من ذلك.. وثل ذلك مما ذكرت؛ ومما لم أذكر ومما عكف عليه الباحثون والدراسون لدى القائد الأسد ومازالوا يكبون عليه من دراسة وتحليل في كتب غزيرة، ومجلدات كثيرة مما نعلم.. ومما لا نعلم بعد..

باتريك سيل الصحافي البريطاني وقد وضع بالرئيس الناضل حافظ الأسد أكثر من كتاب وبحث.. قال فيه وقد هزه نبأ رحليه:

(إن أكثر ما شدني إلى الرئيس حافظ الأسد هو هذا الثبات في مواقفه طيلة ما يزيد عن ربع قرن مع أن العالم، والمواقف لدى الآخرين قد تغيرت كثيراً.. إن العناصر الأكثر أهمية في إرث الأسد السياسي تتمثل باستقلالية القرار لديه ورفض الضغوط والهيمنة من اي كانت ومهما عظمت، واستعادة كامل الأرض والحقوق دون تفريط بالمبادئ أو تنازل عن ذرة من التراب الوطني).

والشاذلي القليبي الأمين العام السابق للجامعة العربية قال في القائد الخالد حافظ الأسد:

(إن كل كلمة قالها الرئيس حافظ الأسد كانت توزن بميزان من الذهب.. هكذا تعلمنا منه طيلة وجوده)

أما شيخ المقاومة الوطنية في لبنان، شيخ الثوار والمناضلين حسن نصر الله أمين عام حزب الله قال في ذكرى تأبينه الأولى الأحد ٢٠٠١/٦/١٠..

(كثيرون من الزعماء العرب الذين يجاملون على حقوق شعبهم وقضايا أمتهم وينحنون أمام غطرسة السيد الأمريكي.. وحده الرئيس الراحل حافظ الأسد لم يجامل، ولم يساوم، ولم ينحن لم تهزه المحن والأزمات.. لم نسمع يوماً أن

حافظ الأسد.. نهج عظيم وقائد خالد

حافظ الأسد ذهب إلى واشنطن رؤساء أمريكا المتتالين كانوا يأتون إلى دمشق للقاء الرئيس الخالد حافظ الأسد في احسن حال لم يذهب حافظ الأسد إلى أكثر من منتصف الطريق إلى جنيف للقاء رؤساء أمريكا من موقع الند للند من موقع الكرامة الوطنية والقومية.

كافة رهانات وحسابات أمريكا وكيانها الصهيوني كانت تتساقط وتتناثر عند أقدام القائد الخالد حافظ الأسد. لقد جعل من سورية قوة عظمى يؤخذ دورها في الحسبان في الحرب كما في السلام)

-- هذا مما قدرت. وما لم أحط به.. ولم يحط به غيري بعد من كل جوانبه خصوصًا إذا علمنا أن زعيمنا الراحل حافظ الأسد لم يكن زعيمًا عاديًا كالآخرين.. بل إنه من صنف أولئك العظام في التاريخ مما يتقنون أبجدية التاريخ، وصناعة الكلمة التي تذهب بعيدًا إلى الأعماق، وتلامس أغوار المشاعر القومية والإنسانية معًا.. تتفاعل وتحرض وتوقد وتثمر تمامًا كما هو البذار الذي يطرح في الأرض، ويسقى من ودق السماء، لينمو وتنهض سنابل قمح ووردًا وعناقيد عنب وأغصان زيتون.. شجرة طيبة مباركة تسر الناظرين.. هكذا هو نهج وفكر الأب المعلم والمربي الكبير حافظ الأسد «كلمة طيبة.. من شجرة طيبة.. أصلها ثابت وفرعها في السماء.. تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها» كثيرة هي تلك المواقع، والمحطات الفكرية التي يجب علينا دائمًا التوقف عندها، واستلهام الدروس والعبر منها في نهج عظيم أمانتا حافظ الأسد.. في معارك الحروب كما في معارك السلام.. مالاأستطيع هنا الإفاضة فيه؛ وإن كنت أحرص كل الحرص ونحن اليوم في خضم المواجهة، وفي أتون الأعاصير أن نتوقف مليًا في قراءة هذه الكلمات.. من هذا الإرث الحضاري القومي والإنساني للرئيس المناضل حافظ الأسد.. وقد تركها لنا دليل عمل، علينا أن نقيس عليها كل ما يواجهنا اليوم وفي المستقبل هكذا يهيب بنا القائد حافظ الأسد أن نسير على دروب الحياة بقوله:

هكذا هو نهج القائد الخالد حافظ الأسد:

(هذه شواهد التاريخ حية أمامنا، منها القريب، ومنها البعيد تصرخ أمامنا وتنادينا قائلة: إنها براهين ساطعة فاقتدوا بها. بلادنا حاصرتها جيوش الفرنجة.. فأين الصعوبة من مواجهة إسرائيل من الصعوبة في مواجهة أوروبة بكاملها.

وجد بيننا مستسلمون في ذلك الوقت، وكانوا في مواقع حساسة وفي أقطار هامة، ولكن الأمة ككل رفضت الهزيمة ورفضت الاستسلام وصممت على صنع النصر.

كسـرنا على الأرض، ولكن إرادة النصر ضد هذه القوى العظمى لم تكسر مرة واحدة. إنها أمثلة صارخة من التاريخ أضخم بكثير مما نحن فيه اليوم.

لماذا قصر النفس؟ لماذا هذه السرعة في فرض الهزيمة على أنفسنا؟ لايجوز لأيّ كان أن يورّث الأجيال القادمة هزيمةً ممهورةً بصكوك الاستسلام.. إذا كنا لا نستطيع استرجاع حقوقنا اليوم، فلا يجوز لأي كان التفريط بهذه الحقوق. فالحق هو الأقوى، والحق الذي يدافع عنه أصحابه هو المنتصر. المهم أن الحرب مستمرة، والمهم أن تظل كذلك، نمارسها مرة بالبندقية، ومرة بالحجارة، ومرة بصراع عسكري شامل).

(من كلمته في الذكرى الخامسة والعشرين لثورة آذار بدمشق عام ١٩٨٧).

وفي مؤتمره الصحفي بدمشق الجمعة ٢ك١ عام ١٩٩٤م مع الرئيس حسني مبارك:

(إنهم يريدون أشياء خارج حدود السلام، يريدون الهيمنة المطلقة على العرب والوطن العربي فإذا كان أن نختار بين أن يبقى الوضع الحالي على ما هو عليه الآن أو نوافق على ما تطلبه إسرائيل، فالخيار المفضل لدي هو هذا الوضع الحالي وليس السلام ومتطلبات السلام لدى الإسرائيليين. نحن لسنا في عجلة من أمرنا، فلنترك وليتركوا الأمر للمستقبل.. هذا الذي يحيط بالوطن العربي اليوم أمر عارض بمنظار الزمن لن يدوم ولن يطول).

هكذا هي وصية القائد الخالد حافظ الأسد

من غير القائد الخالد حافظ الأسد وقف شامخًا في وجه الغطرسة الأمريكية يقول في وجهها جهاراً.

(الولايات المتحدة تتحدث عن الإرهاب، وهي أكبر دولة إرهابية عرفها التاريخ.. وهي الدولة الكبرى التي مارست الإرهاب بأشكال لم يعرفها تاريخ البشرية من قبل.. إن البعض يسخر الشعارات البراقة كالديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات لابتزاز الآخرين والضغط عليهم وسورية لا يمكن إخضاعها أو تخويفها بتهمة الإرهاب).

..(فكيف يستقيم هذا مع العالم الجديد، الذي قيل إنه عالم الشرعية الدولية، وأية شرعية هذه؟ إنها شرعية الغاب شرعية الوحوش).

وفي كلمته عام ١٩٨٣م كيف تعامل مع الرئيس الأمريكي رونالد ريغان قال:

(ريغان أرسل لي رسالة.. كانت لاودية، رسالة تهديد ونحن جاوبنا بالتهديد.. وأن سورية في رسالة ريغان تسئ فهم السياسة الأمريكية في لبنان وأنها أي أمريكا ستضرب كل من يهدد الشرعية في لبنان.. وكان جوابي:

حافظ الأسد.. نهج عظيم وقائد خالد

(أنتم الذين تغـــرون وتعـتــدون وتسيئون فهم التواجد السوري في لبنان نحن ندافع عن لبنان وسيادة لبنان ضد الغزو الإسرائيلي، وضد الغزو الأمريكي.. إذا ضربتم فسنضربكم في البر والبحر والجو ولدينا الوسائط الكفيلة بالرد عليكم).

ذلك هو القائد الخالد الذي نستمد منه الإرادة والعزيمة والصمود، وتلك هي أقواله التي نشمخ بها عزة وكرامة وتشمخ بها الأجيال القادمة من بعدنا.

حافظ الأسد إنه رجل المبادئ الراسخة والقيم النبيلة، التوجه القومي هو الأبرز في فكره ونهجه الأرض لديه هي العرض؛ هي الشرف هي الكرامة لا تباع ولا تؤجّر.. لا مساومة عليها ولا تفريط فيها ولا تنازل عنها مهما بلغت التضحيات وقست الظروف والمحن.. الأرض هي الأغلى هي الوطن هي الكرامة هي المقدسات ودونها لا توجد أية مقدسات.

تجد لديه إصرارًا كاملاً لتحرير كل شبر مغتصب من الأرض العربية، وثباتًا في المواقف والمبادئ لا تردد فيه ووضوحًا في النهج والدرب لا انحراف عنه.. هكذا هو الرجل العظيم.. وجل المبادئ الراسخة والقيم النبيلة.. دون أي تمييز بين أرض عربية وأرض عربية لأي قطر آخر.

ففي رسالة إلى قواتنا الباسلة في بيروت يوم ٢ آب عام ١٩٨٢م.

(إن عروبة بيروت أمانة بين أيديكم فاحفظوا هذه الأمانة، وادفعوا عن نسائها وشيوخها وأطفالها همجية أعداء الإنسانية، واجعلوا معركة بيروت معركة مجد دفاعاً عن كرامة الأمة العربية، ودرساً للمتخاذلين الجبناء.

إننا شعب واحد ومن أمة واحدة، هكذا خلقنا الله، هكذا هو التاريخ، وهكذا هي الجغرافية ولن يستطيع أحد أن يطمس هذه الحقيقة)

لقد شكل الهم القومي الشغل الشاغل للقائد الخالد حافظ الأسد فكانت الأمة العربية بكل صيرورتها وهمومها ماثلة حاضرة في فكره وخلجات قلبه ونبرات صوته وحتى آخر لحظات حياته.. بالقدر ذاته الذي أصبح فيه اسم حافظ الأسد عنوان الفكر العربي المعاصر، ومحراب العروبة وحارس أمجادها، فهو لم يترك مناسبة إلا ودقّ ناقوس الخطر في مواجهة ما يتهدد العرب من أخطار:

(إنه مدعاة للأسى أن نرى تكاتف الأمم الأخرى وهي على قوة يتزامن مع تمزق الأمة وهي على ضعف وحافة الخطر وما يحدث اليوم من تطورات يشكل إنذاراً إضافيًا كي نتحسب ونعد العدة إن لم يكن لاستدراك ما خسرناه؛ فمن أجل أن لانضيع ما ورثناه وما زال في حوزتنا)

(من كلمته أمام مجلس الشعب في ١٩٩٠/٣/٨).

(وممايمض ويؤلم أن الزمن يمر وبعضنا غارق في ذاته يرى فيها حدود العالم، دون أن يرى العالم حتى عالم أمته. لا يهتم بحركة المحيط البعيد والقريب إلابقدر صلته بالذات الشخصية. يطمئن للبعيد البعيد ويقلقه القريب القريب، يجد في الغريب حامياً وفي القريب عادياً، وبدلاً من أن توقظنا الأخطار لصدها وتشدنا إلى تضامننا، عبدنا الطريق إلى هذه الأخطار.. وعمقنا الهوة فيما بيننا) ١٩٩٢/٣/١٢.

لا مكان للانهزامية في نهج القائد الخالد حافظ الأسد لا عودة إلى الوراء، لاوجود للاسترخاء بين أبنائه لا استسلام مهما طلت الظروف وقست الأيام.

(إنهم يريدوننا أن نستسلم ولكن المسافة بيننا وبين الاستسلام هي أبعد من المسافة الفاصلة بينهم وبين أبعد الكواكب التي لم تصلها مراكبهم الفضائية والتي لن تصلها)

(إذا لم نستطيع أن نقرر ونحقق النصر اليوم فلا يجوز لنا ان نقرر ونحقق هزيمتنا اليوم لماذا قصر النفس؟ لماذا هذه السرعة في فرض الهزيمة على أنفسنا)

إنه يستصرخ ضمائرنا، صمودنا بكلمات تبعث الأمل، تجدد الحياة و وتصلب الإرادة:

(هذا الذي يحيط اليوم بالوطن العربي هو أمر عارض بمنظار الزمن لن يدوم ولن يطول. وإن الأمة العربية ستنهض وتواجه كافة المخاطر والتحديات، كما كان ذلك شأنها في مراحل تاريخها)

(إن القمع الوحشي لا يؤيد واقعاً يقوم على باطل، وتكسير العظام لا يهدم معنويات الشعب المصمم على نيل حقوقه. فالحق هو الأقوى، والحق الذي يدافع عنه أصحابه هو المنتصر).

لقد خاطب شباب الانتفاضة الأولى في حينه وكأني به يخاطب شباب الانتفاضة اليوم:

(.. اقول هذا هو الطريق الحق، فاكملوا طريقكم ولا تصغوا إلى كلام يائس أو وشوشة مهزوم أو صرير مستسلم.. لايخدعنكم ايها الشباب في ارض فلسطين ما تسمعونه عن السلام فأمريكا وإسرائيل ليستا من دعاته ولا بناته وما تريده إسرائيل من كل تحرك هو فرض إرادتها على العالم، وفرض الموافقة العربية على مسخ حقوقكم وشطب دوركم من الخريطة التاريخية والنضالية العربية، وهذا لن يحصل ابداً لأننا معكم، مع أنفسنا، مع تاريخنا وجغرافيتنا).

(أمريكا تريدنا دمى تحركنا كما تشاء، تريدنا عبيداً تستغلنا كما تشاء، تريد احتلال أراضينا، تسخير جماهيرنا، تريدنا أن نردد ما نؤمر به دون أن يكون لنا رأي.. تريدنا نعاجاً نسير طيعين نحو حقنا الذي

رسموه.. تريدنا ببغاوات نردد ما نؤمر به أمريكا تريد العرب أتباعًا وأزلامًا ولاتريدهم أصدقاء، ويتوهم منا من يظن أو يعتقد أنه صديق لأمريكا، أو أن مثل هذه الصداقة يمكن أن تقوم، من كلمة بدمشق في مؤتمر اتحاد شبيبة الثورة في ١/١٠/١٩٨١م.

لقد غادرنا الأب والمربي الكبير القائد الخالد حافظ الأسد إلى عالم الخلود. إلى جوار الشهداء والنبيين والصديقين الأطهار البررة وحسن أولئك رفيقًا، إنه في مقعد صدق عند مليك مقتدر، لقد هز العالم أجمع، هز الوجدان العربي والإنساني طيلة ثلاثين عامًا من الشموخ والعطاء من وقفات العز والكبرياء والمآثر الخالدة، وسيبقى حافظ الأسد هو ذلك القائد العظيم، والمفكر المبدع الذي ستستمر الأمة فيه وتحيا في إرثه الإنساني الكبير فكرًا ووعيًا على مرّ العصور.

حافظ الأسد
القائد الطموح والإنسان الحكيم

صبحي سعيد (*)

ارتبط تاريخ سورية الحديث باسم حافظ الأسد وبمبادئه وطموحاته الحضارية النابعة من إيمانه بأمته العربية وقدرتها على احتلال أرفع الأماكن وأسماها في التاريخ البشري. ولكن، كما يقول المتنبي: إذا عظم المطلوب قل المساعد. فقد خاضت سورية بقيادة حافظ الأسد، أشرس المعارك، في سبيل أن تقف بوضوح، بموقفها المتميز، الهادف إلى بناء أسرة بشرية، على قاعدة إنسانية، عميقة في مبادئها السامية الرفيعة. فآمن بالحق والعدل، طريقًا ومنهجًا، يؤكدان جوهر انتمائنا الإنساني وسمو مبادئنا العربية الأصيلة. وبقدر ما كان إنسانًا، بكل ما تعني هذه الكلمة من معنى كان عربيًا، بكل ما تحمله هذه الكلمة

(*) صبحي سعيد: كاتب وصحفي، عضو اتحاد الكتاب العرب.

من طموح وإيمان وتحد لكل ما يعترض طريق الفارس المغوار من عقبات، تزيده قوة وخبرة وإيمانًا بمبادئه وأهدافه العظمى. لقد عاش حافظ الأسد في مرحلة، اشتدت فيها المؤامرات الاستعمارية والصهيونية على الأمة العربية، لإخماد وقمع تطلعاتها الحضارية، وعاش في مرحلة طغت فيها المساومات والحلول الاستسلامية، الهادفة إلى تسطيح قضايا النضال العربي وتفريغه من مضامينه وأهدافه العربية.. لكن حافظ الأسد كان، ومايزال بمبادئه، الأقدر على الثبات، والأقوى إيمانًا، والأعمق في التفاعل مع معطيات الواقع وآفاقه المستقبلية. فكانت روحه النضالية المتوقدة، تنبع من عقل حكيم متبصر، لا ترهبه الظروف القاسية، ولا يخضع للعواصف العاتية، ولا يرضى أن يتخلى عن ثوابته ومبادئه وضميره العربي. وكما يقول عبد الوهاب زيتون مؤلف كتاب «الرئيس حافظ الأسد والقائد المفكر»: «ليس من السهولة بمكان الكتابة عن القادة البارزين في العالم والولوج إلى فكرهم، للوقوف على قدراتهم المميزة التي جعلت منهم قادة تاريخيين لأمم ودول في مفاصل صعبة من التاريخ، وعلى مفارق مراحل قاسية من الزمن، فكيف إذا كان من سنتحدث عنه هو القائد والمفكر المبدع الرئيس حافظ الأسد» الذي حمل على كتفيه منذ مطلع شبابه هموم أمته، وكافح بلا هوادة من أجلها، في

معمعان عواصف وأعاصير من الأحداث المتلاحقة، التي هزت العالم، والعرب ما زالوا في خضم المواجهة مع الغزو الاستيطاني الصهيوني، الذي بدأ يتلون كالحرباء، ليأخذ ألوانًا زاهية في حلة من سراب (السلام، والشرق أوسط الجديد) ويحقق تحتها اجتياحات جديدة، عبر عربات التطبيع التي بدأت تعبر إلى عدد من الحواضر العربية، ويتزاحم إليها بالمناكب بعض زعماء خارت قواهم، وشاخت عزائمهم، لكن إيمان القائد الخالد حافظ الأسد بمستقبل أمته وقدرتها على تخطي أعتى العقبات، يوضح لنا ثبات فكره ومبادئه، ومرتكزاته النظرية والعملية، المنبثقة من الهم والطموح الوطني في إطار عربي قومي شامل. فقد بقي الهم القومي الشغل الشاغل والمحرك الدائم لمبادئ حافظ الأسد.. وبقيت الوحدة العربية والقضية الفلسطينية، أهم مرتكزاته المبدئية. فالوحدة العربية هي السلاح الأمضى للرد على ما تعرضت له الأمة من نكبات، وهي السياج الواقي من كل ما يحيطها من مؤامرات، وهي القوة التي تمكننا من أن نحتل أرقى القمم في التاريخ البشري. وكما يؤكد عبد الوهاب زيتون في كتابه «الرئيس حافظ الأسد - القائد والمفكر» لقد حدد المفكر والمعلم الرئيس حافظ الأسد مهام الحركة التصحيحية التي قادها في صبيحة السادس عشر من

تشرين الثاني لعام ١٩٧٠، بكل معاني المسؤولية التاريخية والقومية، وحمل على كتفيه تبعاتها الكبرى منذ انطلاقتها الأولى بقوله في كلمته بتاريخ /٥/ تموز لعام ١٩٧٣ حين قال: «إن المهمة الكبرى التي تواجهنا اليوم هي مهمة تحرير الأرض العربية وإعادة حقوق شعب فلسطين إليه. هذه المهمة الرئيسة هي الموجه لكل أعمالنا. ومن أجل تحقيقها يجب أن نوجه كل إنجازاتنا، وأن نزج كل طاقاتنا وطاقات الأمة العربية في المعركة المرتقبة». وأكد القائد في كلمته التاريخية تلك أن الاستهانة بقوة الخصم خطأ فادح كما أن اليأس من إمكانية مواجهته والاعتقاد باستحالة التغلب عليه خطأ أفدح، وهذا يقتضي ألا نتهاون في الإعداد للمواجهة في الوقت المناسب». وقد فتح القائد حافظ الأسد أبواب الوحدة العربية، ومهد الطريق لها مرحبًا بكل خطوة باتجاهها، لأنها السلاح الأمضى والأكثر فاعلية في صمود الأمة العربية في وجه التحديات التي تواجهها حين قال: «لاشرط لنا على من يريد تحقيق الوحدة العربية معنا، إلا الوحدة ذاتها». هذه هي نقطة الارتكاز الثابتة التي انطلق منها القائد حافظ الأسد في نضاله القومي والوطني، قولاً وفعلاً. واستنادًا إلى هذا المبدأ، كان لا بد أولاً من تحقيق الوحدة الوطنية لتأخذ جميع الفصائل الوطنية دورها، وتتحمل مسؤولياتها: وقد تجسد ذلك في ميلاد أول جبهة وطنية، متماسكة، بقيادة زعيم مدرك للواقع الذي تعيشه بلاده وأمته، ومدرك لأبعاد المعركة التي يخوضها لاستعادة الحقوق التاريخية لأمة مستهدفة من قبل أعتى وأقوى أنواع الاستعمار. فهو القائل صراحة: «يجب أن لا نستهين بالتخطيط الإمبريالي الصهيوني الذي يريد فصلنا عن جذورنا، فيحذف من أذهاننا فكرة الوحدة، ويسلخ عنا أو يسلخنا من جلدنا العربي، فننسى عروبتنا، ونذوب في أصول جديدة مستحدثة، فيسهل أمام الصهيونية وقاعدتها إسرائيل تحقيق أهدافها في غزو استيطاني لأوسع أراضي الوطن العربي».. ومثل هذا الواقع المر والصعب والخطير، لا يواجه ولا يقاوم إلا بطموح عظيم وإيمان أعظم يحافظ على الهوية أولاً، وتشكل الرؤية وتحدد الاتجاه الصحيح للمعركة، وتبلور الأهداف التكتيكية والاستراتيجية، وتمنع من الانزلاق في شراك الاستسلام المعسل بألفاظ وعبارات تفرّغ وتشوه القضايا الجوهرية للإنسان العربي وطموحاته الحضارية.

ويؤكد القائد المعلم تلازم مبادئ الوحدة العربية بمبادئ التحرير، في كل موقف يعبر عن طموح الإنسان العربي: «سيبقى النضال من أجل الوحدة متلازمًا مع النضال من أجل التحرير. فكما أن

القائد الطموح والإنسان الحكيم

التجزئة كانت من أسباب ضعف الأمة واستفحال خطر التوسع الصهيوني، فإن الوحدة ستكون مصدر قوة للأمة العربية في مقاومتها هذا الخطر».. وقد كان القائد المعلم يعبر عن حلم الإنسان العربي في سورية العربية التي كانت وستبقى دائمًا مهد القومية العربية وقلبها النابض - سورية العربية التي اختارت مواجهة أعتى الأخطار دفاعًا عن كيانها ومبادئها الثابتة.

وانطلاقًا من الوحدة الوطنية، الهادفة إلى تفعيل دور الفصائل المؤمنة بقضايا الإنسان العربية ومشروعية طموحاته الحضارية، انطلقت سورية إلى تفعيل الحوار العربي، لتحقيق أوسع تضامن عربي ممكن على أساس مقاومة المشاريع الصهيونية والإمبريالية.. فقد أدرك القائد حافظ الأسد أن الصراع بين الأمة العربية والصهيونية العالمية، هو صراع مصيري، يحتاج أولاً إلى التصدي لكل محاولات «فرق تسد» وإفشال مساعيها الهادفة إلى شل القدرات العربية بتشتيتها وزرع الفرقة والعداء في ما بينها. وبذلك استند نضالنا الوطني والقومي إلى رؤية واضحة وامتلك إرادة النضال، والثقة من النصر، ومواجهة العدو بشجاعة وثبات، لإسقاط المؤامرات الخفية والواضحة التي تهدف إلى استسلام الأمة، لتكون تابعة بكل مقدراتها وثرواتها للمصالح الصهيونية الإمبريالية. والقوي بإيمانه ومبادئه يستمد طاقته حتى من الجراح والمآسي التي يتعرض لها، لن تثنيه عن مبادئه ولن تحيد به عن النضال من أجل تحقيقه أهدافه مهما اشتدت المحن والحصارات.

يقول القائد الخالد حافظ الأسد: «وإذا كانت المحن التي تمر بها أمة من الأمم تحرك في أبنائها أعمق المشاعر النبيلة، وتفجر فيهم أعظم الطاقات الدفينة، فتولد لديهم أكبر قوة اندفاع نحو قضاياهم الكبرى، فإنني أرى أن قضية فلسطين بقدر ما هي محنة عربية يجب أن تفجر فينا مشاعرنا القومية النبيلة وتوقظ في أعماقنا الوجدانية، بما يشكل طاقة كبرى للاندفاع نحو أخطر قضايانا وأفضلها وأكثرها إلحاحًا: قضية الوحدة العربية. وقد كشف القائد الأسد بوعيه المتوقد ورؤيته الثاقبة أوراق أولئك المتاجرين بالقضية الفلسطينية تحت ما يسمى بالقرار الفلسطيني المستقل ومن مزاعمهم في ذلك يقول: «ومن المضحك المحزن هذه البدعة التي خرجوا بها مؤخرًا، بدعة القرار الفلسطيني المستقل، هذه البدعة التي أرادوا بها تغطية الطريق الملتوي الضيق، الطريق المخزاة، طريق الاستسلام، طريق الخنوع الذي يسيرون فيه. هذه البدعة لن تنطلي على أحد» ويوضح القائد حافظ الأسد ويفند هذه

القائد الطموح والإنسان الحكيم

الأساليب المضللة الملتوية بقوله: «هل يريدون أن يستسلموا وأن نقول لهم مبروك استسلامكم؟ هل يريدون أن يقولوا إن قضية فلسطين هي قضيتهم فقط، وإنها ليست قضيتنا؟ وإذا وافقنا على ذلك وعددنا أن هذا قرار وطني مستقل، ماذا ستكون النتيجة؟ إنهم يدركون النتيجة، وهم يريدون هذه النتيجة. كيف لا تكون القضية الفلسطينية قضيتنا، بينما نحن نضع كامل إمكانيات هذا القطر البشرية والعسكرية والاقتصادية والسياسية في خدمة القضية. إذا وافقنا أن القضية الفلسطينية هي قضيتهم فقط، ألا يعني هذا أن علينا أن نتخلى عن هذه القضية؟؟» ويقوله هذا يؤكد تمسكه بالوحدة ومبادئها، كسلاح ومنهج وطريق إلى أسمى الأهداف وأنبلها، ألا وهي تأكيد قدرات هذه الأمة في استعادة مكانتها في سلم الحضارة الإنسانية. فالقضية الفلسطينية كانت من خلال رؤية القائد حافظ الأسد، قضية دفاع عن كيان الأمة ومصيرها، وعن دورها التاريخي والحضاري وعن ماضيها وتراثها وطموحاتها المستقبلية. والقائد حافظ الأسد يعبر عن استنكار الجماهير العربية حين قال: «هل يتصور أحد أن شعب فلسطين بكامله الذي أخرج بأكثريته الساحقة من وطنه منذ أكثر من ثلاثين عامًا، والذي ناضل أبناؤه سواء من كان منهم داخل الأرض المحتلة أو خارجها، طيلة هذه السنين من أجل تحرير أرضه والعودة إلى وطنه وممارسة حقوقه في تقرير المصير - هل يتصور أحد أن تمسخ هذه القضية لتصبح عبارة عن حكم ذاتي لمجموعة من الناس، تمنح سلطات إدارية محدودة داخل دولة إسرائيل؟» إن مبادئ الوحدة العربية ومثالها العليا، أبعد بكثير عما يريده من ضاق أفقه، ودنت أهدافه، بعيدًا عن المصالح والطموحات العليا لأمته، لقد حلل القائد طبيعة الصهيونية وأدرك خطورتها: «فهي امبريالية بطبيعتها، عدوانية توسعية بأهدافها، عنصرية بنيتها، وفاشية بأساليبها ووسائلها. وهي تقوم على أساس النخبة الممتازة والعنصر المتفوق، ومن هنا فهي تنظر إلى الشعوب على أساس تصنيف ثابت ومستمر، منها القوي ومنها الضعيف أبدًا، منها من يصلح للحياة سيدًا، ومنها من يصلح للحياة مسودًا، منها الغني أبدًا ومنها الفقير أبدًا. ومن هنا من هذه النظرية المتعالية، تنطلق الصهيونية في عدوانها المستمر واعتداءاتها المتكررة، وتحاول أن تغلف الاعتداءات وأن تثبت نتائجها بحجج واهية، لا تستطيع أن تصمد أمام اختبارات العدل والسلام». ومفهوم الوحدة مرتبط بالدفاع عن الوجود لأن الغزو الاستعماري الاستيطاني، الواقع في فلسطين يهدد الوطن العربي كله، فأطماع الصهيونية لاتقف عند حدود فلسطين، وإنما تتعداها إلى إقامة دولة

إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، عن طريق التوسع والمزيد من التوسع في أراضي دول عربية مستقلة. وقد أدرك القائد الخالد حافظ الأسد خطورة الصهيونية على العالم أجمع. فالصهيونية كما يؤكد القائد شر للبشرية كلها من حيث أنها أولاً تزييف للمبادئ السماوية، فهي تستخدم اليهودية لما هو في حقيقة الأمر ظاهرة شوفينية مصطنعة عبرت عن نفسها في أيديوجية استعمار استيطاني قائمة على اغتصاب الأرض العربية والتوسع الإقليمي فيها، من حيث أنها معول هدم للمجتمعات القائمة في الكثير من بلدان العالم. وتتضح شرورها أكثر ما تتضح في رفضها مقومات المجتمع الوطنية والقومية في العالم وسعيها لتفتيت هذه المجتمعات.

ويؤكد القائد في مؤتمر القمة الإسلامي في الكويت بتاريخ ٢٧/١/١٩٧٨ خطورة الصهيونية ويفند ادعاءاتها التوراتية الكاذبة بقوله: «ومما يجعل الأخطار الصهيونية أكثر المسائل الدولية عمقاً وتعقيداً هو تفردها عن مشكلات العصر بالفلسفة العقائدية والأسس الفلسفية والركائز الدينية التي تستند إليها»...

وقد حولت الصهيونية الدين إلى أداة للتمييز العنصري، ووسيلة لاستعباد الشعوب ونهب ثرواتها ومصادرة حقوقها وتشريدها من أوطانها.. وإضافة لهذه المبادئ الشوفينية النازية، وصلت «إسرائيل» إلى حدود البغي، وأصابها الغرور، وملأت الغطرسة رؤوس المسؤولين فيها فأوغلوا في الجريمة، واستمرؤوا أسلوب العدوان، يملأ قلوبهم حقد أسود على شعبنا وعلى البشرية، ويستبد بهم تعطش لسفك الدماء، ويوجد خطاهم استخفاف بمبادئ البشرية ومثلها العليا، بالقوانين والقرارات الدولية. وهذه الأخطار الصهيونية الإمبريالية، لا تشكل مصدر يأس للإنسان العربي الأصيل، بل تطالبه أن يكون أقوى وأكثر فاعلية في تصديه لكل ما يهدد كيانه، ويسعى إلى تكبيله واستعباده. فالإنسان كما يؤكد القائد حافظ الأسد هو وحده العامل الأساسي في إحراز النصر، ولا توجد عقبة في العالم تقهر إرادة الرجال. وكان لا بد من بناء هذا الإنسان وتسليحه بالوعي الثقافي والاجتماعي... فالإنسان هو اللبنة الأساسية في الدفاع والبناء.. وقوة هذا الإنسان تعبر عن جوهره في الحاضر وقدرته على التطور في المستقبل. وكانت الثقافة والأدب والفنون، من العناصر المهمة في بناء الإنسان العربي الجديد الناهض الطموح المؤمن بمستقبل أمته. وقد أدرك القائد حافظ الأسد أهمية الثقافة في المعركة، لأنها تشكل هوية الإنسان العربي، وتحافظ على جذوره العميقة وانتمائه. فالعالم كما يشير إلى ذلك القائد حافظ الأسد: «يموج ويمور

القائد الطموح والإنسان الحكيم

ونحن جزء من هذا العالم، ولنا أصول ومفاهيم، ومثل تتعرض لهزة، بل لهزات عنيفة، ونحن في سورية يجب أن ندرك ذلك، وأن نتحمل مسؤولياتنا، لنكون أكثر ثقة بحاضرنا ومستقبلنا، لنكون أكثر اطمئنانًا إلى مستقبلنا، ومستقبل أولادنا وأحفادنا وأجيالنا المقبلة بمجموعها، وعلى المثقف والعالم أن يأخذ دوره الفعال في هذه المعركة الشرسة. فمع قيام الحركة التصحيحية، تقفز الثقافة لتكون الحاجة الأسمى للإنسان العربي، ويصبح الكتاب كرغيف الخبز، ويصبح الفن والمسرح والسينما، جزءًا لا يتجزأ من طموحات مجتمعنا الواحد. فبناء الإنسان الواعي المدرك لهموم وطموحات أمته، يشكل نقطة الارتكاز في مشروعنا القومي الحضاري. وقد أكد الأستاذ عادل رضا في كتابه «التاريخ لا تحركه الصدفة» أن الرئيس حافظ الأسد قد ظهر في مرحلة تاريخية جعلت منه قائدًا ملهمًا ومنقذًا لشعبه فمنحه الشعب حبه الجارف، كما منحه السلطة اللازمة لقيادة عملية التحول الاجتماعي، فكما يقول المفكر العربي الدكتور هيثم الكيلاني «فإن هذه المرحلة التاريخية التي تمر بها الأمة العربية كلها هي مرحلة انتقالية خاصة فيما يتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي، والأمن القومي العربي والتحديات التي تواجه هذا الأمن.. وفي يقيني - والكلام على لسان الدكتور الكيلاني - أن ما يتعلق بالأمن القومي العربي هو ما يشغل بال الرئيس حافظ الأسد وفكره ويركز عليه جهوده لكي يضمن لهذا الأمن كل ما يوفر له القدرة على مقاومة التحديات والمخاطر. وقد قارن المفكرون والسياسيون الرئيس حافظ الأسد بالقادة العرب العظماء أمثال صلاح الدين الأيوبي والزعيم الراحل جمال عبد الناصر.. لكنني أبقى مع مبدأ أن لكل قائد خصوصيته وقدراته وميزاته التي تميزه عن غيره من القادة العظام عبر التاريخ. فالاستقرار الذي منحه الرئيس لبلاده قلما حظيت به أمم أخرى تعيش في مرحلة من أصعب المراحل وأكثرها حساسية وخطورة.

وقد كان القائد حافظ الأسد مدرسة في الوفاء كما كان مدرسة في النضال.. فهو الذي خرج من بيئة فقيرة لأبوين عربيين أصيلين، ينتميان إلى أعرق القبائل العربية وأكثرها أصالة وأعظمها جهادًا ضد الروم. فقد ولد في بيئة ريفية كادحة تعمل في الزراعة وذلك في قرية القرداحة التابعة لمحافظة اللاذقية... وقد ختم القرآن في سن السابعة من عمره وكان متميزًا في المدرسة الابتدائية بالمطالعة، يقرأ لوالده وضيوفه الشعر وكتب التاريخ.. وكان في شبابه طالبًا عقائديًا شجاعًا لا يتردد في الدفاع عن أي مظلوم أو عن أي حق مهضوم. وقد أحب حافظ الأسد وطنه

حبًا عميقًا واتجه بكل طاقاته لخدمة هذا الوطن. ويذكر الأستاذ عادل رضا في كتابه أن الذين زاملوا الطالب حافظ الأسد في عامي ١٩٤٨ – ١٩٤٩ يسجلون له بالتقدير أنه كان يتميز بالعقلانية ولا ينساق وراء العاطفة، ولا يخشى التهديد.. كان رمزًا للشاب بالثائر.. حيث توافرت له صفات القيادة المبكرة. ويعبر القائد عن الدوافع التي نمت في روحه لتساهم في تشكيل روحه الثورية المتوقدة: «كان من عادتي القول يوم كنت طالبًا: «إن المريض بالسل أو السرطان لا يمكن أن يكون مصارعًا، فلن يقوى على القتال إن تناقصت إمكاناته الجسدية وعلينا أن نعالجه أولاً. تلك كانت حالنا. كنا ضعفاء، ولا بد أن نكون أقوياء لننتصر» لقد فكر القائد حافظ الأسد بقوة وطنه وبقوة الإنسان العربي، الذي كان هدفه الأول ليكون اللبنة القوية في الصرح العربي الكبير الذي كان ضعيفًا بسبب تجزئته وتفتته. ويذكر الأستاذ عادل رضا أن الرئيس حافظ الأسد أعاد الاحترام لكثير من القادة التاريخيين الذين كانوا منسيين في التاريخ القديم أو الحديث، كما أمر بإطلاق أسماء المناضلين الذين أسهموا في نهضة الأمة سواء كانت نهضة علمية أو غيرها على الشوارع، وفي جامعة دمشق مثلاً هناك مدرج باسم جابر بن حيان ومستشفى ابن النفيس، ومستشفى الرازي. ويؤكد الأستاذ عادل رضا في كتابه أن الرئيس حافظ الأسد كان يعتز ويعز المثقفين والأدباء، وظل صديقًا للكتاب طوال حياته، يقرأ في كثير من الأحيان حول قضية ما أكثر مما يقرأ المتخصصون في هذه القضية، ويتابع حركة الثقافة في سورية وفي الأقطار العربية، وفي العالم، وهو معنيّ بالتاريخ وبكتب التراث والأدب والشعر، يتذوق وينقد أيضًا.. ومعنيٌّ بالثقافة المعاصرة، اقتصادًا وعلمًا، وهمومًا مختلفة، وهو ذواقة متحسس للموسيقا وكل ما يرتبط بالشؤون الثقافية من مسرح وسينما، ومتابعته ليست مقصورة على القطر العربي السوري، وإنما هي على حد تعبير الأديب المصري العالمي المرحوم الدكتور يوسف إدريس ذات أفق عربي شمولي. فمكتبة القائد الأسد غنية مليئة بكتب الآثار والحضارات القديمة.. وحين يحاور ضيوفه تجده على علم بهذا الكتاب أو ذاك. وتوجيه الرئيس الأسد الدائم كما يذكر العاملون في الحقول الثقافية، يهدف إلى تمتين العلاقات العربية عمومًا، ومع مصر بوجه خاص.

يؤكد سيادة العماد أول مصطفى طلاس في مقدمة كتابه «كذلك قال الأسد» أن الكتب التي تحدثت عن القطر العربي السوري في ظل قيادة الرئيس المناضل حافظ الأسد، كثيرة... وقد اطلع سيادته عليها كافة، وفي كل مرة يجد كشفًا جديدًا

القائد الطموح والإنسان الحكيم

عن جوانب هامة من حياة السيد الرئيس الخصبة بالعطاء الذي يصب في مجرى الوطن والأمة والإنسانية. ويؤكد سيادة العماد مصطفى طلاس أن هذه الكتب لم تستطع الإحاطة المطلقة بشخصية الرئيس حافظ الأسد، سواء في صفاته الذاتية، أو في مواقفه النضالية، أو في فكره اللماح. ويؤكد السيد العماد أنه يقف باعتزاز أمام الغنى اللامحدود في الإمكانات، وبخاصة عندما تتجسد ممارسة في الحياة لتكون هدى ومنهجًا للناس. ويؤكد سيادته: «ونحن العرب أرى من الواجب علينا أن يلازمنا الاهتمام الدائم بأقوال السيد الرئيس حافظ الأسد، لما لها من نفوذ قوي في صياغة القرارات الأساسية الرئيسة في ميادين السياسة والاقتصاد والعلاقات الخارجية والشؤون العسكرية ومختلف نواحي الحياة، وعلى مر الأيام.

لقد نظر القائد حافظ الأسد إلى الأحداث الكبرى نظرة حكيم طموح وثوري عاقل... ونظرة من يهمه المستقبل قبل كل شيء. نقرأ ما قاله مع بزوغ شمس عام جديد في عمر ثورة الثامن من آذار: «نقف وقفتنا التقليدية مع النفس في هذه المناسبة. نراجع أعمالنا في السنين الماضية، ما أنجزناه وما حالت الظروف دون إنجازه، نقوّم هذه الأعمال ونستخلص منها النتائج، ننظر إلى ما حولنا في وطننا العربي وفي جواره، ثم ننظر أبعد من ذلك إلى العالم الفسيح وما يجري على ساحته المتعددة لنتأكد من مواقع أقدامنا، وخط سيرنا، ونطمئن إلى سلامة مسيرتنا، فنمضي نحو المستقبل بعزيمة أشد وثقة أكبر، بعد أن نصحح ما قد يكون في المسيرة من أخطاء ونزيل ما قد يكون اعترضنا من معوقات. نفعل هذا كله بأعلى شعور بالمسؤولية، وبهدى مبادئ حزبنا العظيم حزب البعث العربي الاشتراكي، مفجر ثورة آذار وقائدها وفي ضوء ما حددنا لمسيرتنا من أهداف.

هذا هو القائد الخالد حافظ الأسد الذي تميز بحكمته وأفقه الواسع، وبمبادئه العظيمة الهادفة إلى بناء إنسان عربي واع، يستمد قوته من إيمانه بتراث أمته وطموحاتها وبمستقبلها الحضاري الواعد.

❖ ❖ ❖

يوميات وطن

علي معروف (*)

عدتُ بالأمسِ، وقد عاد المسا، شُلوًا مُعنّى
نار أسراري خَبتْ في جانحي والقلبُ جَنّا
شاخ قيثاري فلا يستطيعُ أن يعزفَ لحنًا
خار مني العزمُ مسلوبَ القوى، وانحطّ وهنًا

❖ ❖ ❖

فتهالكتُ على ظلمةِ قبوي، منهكَ الجسم محطَّمْ
أرقبُ الحلمَ الذي عايشته ملء حياتي يتهدم
أدفع الآلام بين الحين والحينِ ولكنْ تتقدم
وأداري، من عميقاتِ جراحي، ذلك الجرحَ المؤزَّم

❖ ❖ ❖

خلتُ نفسي أنني لاشيءَ، لاأملكُ نفسا
غار ينبوعُ أحاسيسي، ويأسي باتَ يأسا
وضياعي يترع الكأس، وقد أفرغ كأسا
عدتُ أبكي نغمًا مات لكن بَحَّ جرسًا

❖ ❖ ❖

نهض الحلم على أنغامِ صبح بابليٍّ يتوالى
يملأ الصحراءَ والواحاتِ، تيها وشموخًا وجمالا

(*) علي معروف: شاعر من سورية، ينشر في الدوريات المحلية والعربية.

يوميات وطن

يعيد الأرضَ بأنْ يُنبت، في كل المفازات، الرمالا
ويعيدُ النخوةَ، المقطوعة الأوصالِ، عزمًا ووصالا

❖ ❖ ❖

إنه الطيف الذي تحدو العصافيرُ رؤاهُ في الشعابْ
يملأُ الوديانَ والآكامَ، بوحًا، والروابي والهضابْ
لاتسلني، ماالذي يَهْمُسُهُ الموج مُسِرًّا للعُبابْ
وطنٌ يضرب رايات علاهُ في السحابْ

❖ ❖ ❖

خَفتَ الصوتُ، وضلَّ الركبُ في عمق الزوايا
وطغت أهزوجةٌ منكرةُ الوقع كأخبارِ المنايا
وأنا أبحثُ في كل المسارات حلمًا يتيمًا عن بقايا
هَبتِ الريحُ وصار الموتُ يجتاح الخفايا بالخطايا

❖ ❖ ❖

واستحال الماء إعصارًا ونارًا، يا السفينهْ
أيَّ دربٍ أنتِ تختارينَ، والبحر ظلامٌ وضغينهْ؟
عبثًا، فالليل يُهمي الغيمَ بركانَ لظًى، يُرضي جنونَهْ
وعلى الآفاقِ، في كل ممرات الذُّرى، بث عيونه

❖ ❖ ❖

قبسٌ يخبو ولكنَّ بزوغ الحلم، لا لا، لن يغيبْ
وشروقُ الشمسِ لايثنيه عن موعد لقياهُ الغروب
ربَّ ليل عابسِ الوجه أتى الصبحَ بألوانِ الطيوب
ورؤى، غيَّبها الليلُ زمانًا، من ثناياهُ، تؤوبْ

❖ ❖ ❖

القائد حافظ الأسد
الحق وأيديولوجيا العقيدة

محمد سليمان حسن (*)

عندما دون «زرادشت» كتابه «الأفستا» كتب قائلاً: «إن الفرق بين الخير والشر يتم بمعرفة الحق». وعندما أراد الفيلسوف اليوناني «سقراط» أن ينهج فلسفته قال: «إذا كان عليك أن تكون فلتعرف نفسك». وفي الوقت الذي حاصر فيه المشركون الرسول (ص) على أن يحيد عن الحق قال: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أحيد عن الحق لما حدت أو أهلك دونه».

إن جدل العلاقة بين الحق وأيديولوجية العقيدة، يكمن في إدراك الإنسان لذاته: على أنه إنسان يتمتع بحق الوجود، كما يتمتع به الآخر. وإن حق الإنسان في الوجود لا يتم على حساب حق الآخر، بل بالمساواة معه.

(*) محمد سليمان حسن: باحث من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو جمعية البحوث والدراسات.

ولتبيان مصداقية هذا التصور المعرفي على أرض الواقع، في فكر القائد الخالد حافظ الأسد، ننطلق من أقواله وأفعاله التي رسخت على مر التاريخ.

إن الحق يتجلى في البعد عن التعصب، وفي الاعتراف بالآخر. بحق الإنسان في العيش بمساواة مع غيره، بعيداً عن التراتبية الطبقية والعسف العنصري. يقول القائد حافظ الأسد: «إن المبادئ التي نؤمن بها والتي تنسجم مع العصر والعلم، هي مبادئ عرّفتنا بها البشرية، إيمان بالعدالة، وعمل من أجل الحق، وبعد عن التعصب، ونضال ضد العنصرية. إن قضيتنا حق، وقد اجتمعنا لدعم الحق، فلنكن في عملنا بمقدار ما نحن على حق في مبادئنا، ولنكن حتى نزهق باطل الصهيونية والاستعمار»[١].

إن الحق ليس مجرد نظرية، بل هو إيمان عقيدي ومنهج آيديولوجي، يؤمن به الإنسان نسقاً معرفياً يعمل جاهداً لإبلاغه، وفق منظومة تربوية صحيحة. يقول القائد حافظ الأسد: «نحن جميعاً مؤمنون بالشعب وبالأمة، والإيمان هو القوة الأكبر، وهو السلاح الأهم والأكثر مضاء،ولكن علينا أن نستمر في إعداد أنفسنا بالتدريب العنيف والمستمر، لكي نستطيع الاستجابة لهذا الإيمان بكل ما يملكه الإيمان من قدرة، وما يحتويه من طاقة هائلة»[٢].

إننا أمة تعرضت للاستعمار مرات عدة. وحاول المستعمر في كل مرة أن يغتصب حقنا في الوجود وفي العيش حياة كريمة، وما زالت حقوقنا منتهكة. وعلينا أن نعمل على الدوام لاسترداد الحق الذي هو لنا. ولذلك علينا أن «نؤمن بحقوقنا وباتحاد كلمتنا لننتصر على القوى التي تحاول إخضاع شعوبنا لسيطرتها والتي تسعى للتحكم بثروات أوطاننا، وأن نتغلب على كل العقبات التي تعترض سبيل عملنا. لما فيه مصلحة شعوبنا»[٣].

إن ما قدم للقائد الخالد حافظ الأسد من ضمانات وتسهيلات وإغراءات، الكثير، ليتخلى عن خطه الوطني والقومي، وليفعل كما فعل غيره من القادة العرب. لكنه كان على الدوام، يرد على هذه الإغراءات بالقول: «عندما تقتضي كرامتنا أن ندافع عن بلدنا، سنعيش في الحدود التي تجعلنا قادرين على الاستمرار في الحياة، ولكننا لن نبيع قضيتنا، ولن نساوم عليها. وأمامنا طريقان: الاستسلام أو الصمود، وقد اخترت الصمود»[٤].

ولأجل ذلك، مارس الأعداء دائماً، كل الوسائل، بدءاً من مهاجمة أراضينا، إلى محاصرتنا اقتصادياً وتفتيتنا طائفياً وصرعنا آيديولوجياً. ولكن وسائل قهرهم هذه ذهبت كلها أدراج الرياح. لماذا؟ «لأن إرادتنا لن تقهر، إننا لا نخضع، ولا نرضخ،

ولانفرط بكرامتنا، ولن نترك موقعنا النضالي أبدًا»[5].

ولذلك، علينا دائمًا: «أن لانمل، يجب أن نقاوم التعب. ليس الأهم أن نخفض متاعبنا، وليس الأهم أن نحسم صراعنا غدًا، بل الأهم ألاّ نفرّط بحقوقنا وتاريخنا مهما كانت التضحيات جسيمة، وهذا هو جوهر الصمود»[6].

ولكي لانتعب ولانمل ولا نسقط، علينا أن نكون أصحاب عقيدة، أصحاب آيديولوجية واضحة، تميز الحق من الباطل، وأن نكون أصحاب مسيرة عمل، تعمل على «الاعتصام بالمبادئ والقيم والتشبث بها، لأنها... تمنحنا القدرة على محاكمة الأمور محاكمة صحيحة»[7]. يجب علينا «أن نتسلح بالوعي والتصميم والقوة، فنحن نواجه عدوًا شرسًا ومخادعًا»[8]. من المهم دائمًا «أن نملك الرؤية الواضحة والنفس الطويل.. والقارئ الجيد يدرك أن الشوط النهائي لنا وليس لهم (العدو)، لأن الحق هناك هو الأقوى، ولأننا هناك نحن الأقوى، ولأن الأمة العربية هناك هي الأقوى»[9].

إن الفرق بيننا وبين العدو، هو الفرق بين الحق والباطل، بين الخير والشر. «نحن بنينا قوة هذا الوطن على قواعد الحق والخير... وعدونا الذي احتل أرضنا بنى ويبني قوته على قاعدة الشر، بكل مايعنيه الشر. وشتّان ما بين قوة الخير، وقوة الشر»[10].

والقائد الملهم، المؤمن بالحق، والمتسلح بالعقيدة والآيديولوجية منهجًا، لابد وأن يعمل دائمًا على إحقاق حقوق أمته وشعبه. وأن يصون هذا الحق قولاً وفعلاً، مؤكدًا وعلى الدوام، صدق إيمان هذا الشعب به، وإيمانه بأقواله وأفعاله. والقائد الراحل يدرك وأدرك هذا على الدوام. فلم يكن إلا من هذا الشعب، منهم وإليهم، يعي متطلبات شعبه، ويدرك إيمان شعبه بقضيته، فجاء جهاد القائد متوافقًا مع تضحيات الأمة. وهو القائل: «سأعمل كل ما أستطيع من أجل خيركم وهنائكم... ولنسر جميعًا متعاضدين متحابين تحت راية الإيمان بالله أولاً، والإيمان بالوطن ثانيًا»[11].

وهذا الجهاد، وهذا النضال، ليس

مرحلة، بل عقيدة نعمل لها معًا «الموضوع موضوع إيمان بحق، وبطريق يقتضيه هذا الحق، إيمان بقضية شعب عادلة، وبكرامة شعب عادلة»[١٢].

إن الأمة التي تؤمن بحركة التاريخ، وبأن التاريخ لا يعود إلى الوراء، الأمة التي تؤمن بحقها في العيش بكرامة هي الأمة التي ستنتصر على الدوام. بالتضحيات، بالشهداء، بكل ما تملك من قوى في مواجهة الغزاة: «إن حركتنا إلى الأمام كانت واسعة وقد استندنا فيها إلى إيماننا بعقيدتنا ووطننا وقدرتنا على التصدي لأعداء العقيدة والوطن والحق...»[١٣].

إن الإيمان بالوطن، هو الذي يجعلنا نعيد حقوقنا ونرد عدونا على أعقابه: «فالوطن الذي ينتقل من نجاح إلى نجاح ومن نصر إلى نصر، إنّه الوطن القادر على بلوغ غاياته، وتحقيق أهدافه. وعندما يرسخ الإيمان بأن الوطن هو الأغلى فإن جماهير الشعب تعمل وفقًا لهذه المقولة... مقولة الحق»[١٤].

الهوامش

١ – من كلمة السيد الرئيس في مؤتمر القمة الإسلامي في لاهور بتاريخ ١٩٧٤/٢/٢٢.

٢ – من كلمة السيد الرئيس بمناسبة تخرج دفعة جديدة من قوات الصاعقة بتاريخ ١٩٧٤/٦/١٩.

٣ – من خطاب السيد الرئيس في قمة الطائف بتاريخ ١٩٨١/١/٢٧.

٤ – من كلمة السيد الرئيس في مأدبة تكريم العلماء ورجال الدين بتاريخ ١٩٨٥/٤/١٢.

٥ – من خطاب السيد الرئيس في افتتاح المؤتمر الحادي والعشرين لنقابات العمال بتاريخ ١٩٨٦/١١/١٦.

٦ – من كلمة السيد الرئيس في مأدبة الإفطار التي أقامها على شرف رجال الدين بتاريخ ١٩٨٧/٥/٢٥.

٧ – من كلمة القائد الأسد في الذكرى (٢٥) لثورة آذار ١٩٨٨/٣/٨.

٨ – من كلمة القائد الأسد في الذكرى (٢٥) لثورة آذار ١٩٨٨/٣/٨.

٩ – من كلمة القائد الأسد في الذكرى (٢٥) لثورة آذار ١٩٨٨/٣/٨.

١٠ – من كلمة السيد الرئيس إلى قواتنا المسلحة في ذكرى تأسيس الجيش في ١٩٩١/٨/١.

١١ – من كلمة السيد الرئيس في مجلس الشعب بمناسبة أدائه القسم الدستوري في ١٩٩٢/٣/١٢.

١٢ – من حديث السيد الرئيس في مؤتمر القمة السوري – المصري بدمشق بتاريخ ١٩٩٤/١١/٣٠.

١٣ – من كلمة السيد الرئيس إلى العلماء ورجال الدين بتاريخ ١٩٩٥/٢/٢٧.

١٤ – من كلمة السيد الرئيس إلى الطبقة العاملة بتاريخ ١٩٩٥/١١/١٠.

عنوان حياة القائد الخالد حافظ الأسد
بوابة العطاء.. بوابة الخلود

ميساء نعامة(*)

«.. لاعظيم كالشعب، ورائع كأبناء الوطن عندما يتماسكون كتلة واحدة، وتنصهر عواطفهم في بوتقة واحدة تحيط بالوطن من كل صوب، وتشكل السياج الفولاذيّ الذي يستعصي على كل خرق، ويستحيل ويمتنع على كل أخذ وغدر...».

تعودت على مدى سنوات طويلة أن أبدأ الحديث في مجال السياسة بقول للرئيس الخالد حافظ الأسد، وبما أن المناسبة التي نتحدث عنها، الذكرى الثانية لوفاة القائد الخالد حافظ الأسد، فإنه من الأحرى بنا كأجيال سورية الأسد،أن تبقى كلماته نبراساً نهتدي به، ومثلاً نقتدي بها.

(*) ميساء نعامة : باحثة من سورية، تكتب في مجال الصحافة. محررة في مجلة المعرفة.

بداية العطاء... بداية الخلود

أما عن اختياري لهذه الكلمات الرائعة كبداية، إنما للتأكيد على أن الشعب السوري العظيم الذي كان بالنسبة للقائد الخالد القوة الثانية بعد الله، أثبت للعالم أجمع بأنه على قدر الثقة وعلى قدر الوفاء للقائد الخالد، وعلى قدر العطاء للرئيس بشار الأسد.

والحديث عن القائد الخالد حافظ الأسد، يطول ويطول... فهو القائد الجماهيري الذي أحب الشعب وانخرط في صفوفه مذ سنين عمره الأولى، مبتدئاً مشواره النضالي الفعلي منذ كان طالباً في ثانوية جول جمال باللاذقية فحمله رفاقه آنذاك مسؤولية رئاسة اللجنة الطلابية في المدينة لما لمسوا فيه من جرأة، على تحمل المسؤولية وسداد في الرأي. فكان أول طالب يترأس تلك اللجان، واستمر نضاله إلى أن أصبح ضابطاً طياراً في القوات المسلحة، وفي صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي، كان البعثي الملتزم بمبادئ وقيم الحزب الذي قام بثورة الثامن من آذار المجيدة.

ومن أجل الحديث عن القائد العظيم حافظ الأسد، بحثت على مدى سنوات عديدة، عن حروف أطرزها بأجمل الكلمات، لعل البيان يسعفني بكلمات.. هي نسيج يحيك الماضي بالحاضر، أرصد من خلالها صفات للرجولة المتمثلة.. بالإقدام والتصدي... بالشجاعة والتصميم.. بالتسامح والكبرياء.. بالعطف والحزم .. بالذكاء والنبوغ.. وغيرها من الكلمات التي تجمع صفات قرأنا عنها في موروثنا التاريخي، لكنني لم أجد أصدق من كلمة تتجسد فيها جميع هذه الصفات... إنها شخصية الرئيس الخالد حافظ الأسد.

وعندما يتحدث المرء عن خصائص الشخصيات العظيمة في التاريخ، فإن القلم يحتار ويختال.. باحثاً عما يتناسب مع تلك الشخصيات العظيمة التاريخية خاصة إذا ما أراد المرء الغوص في باطنها.. فالظاهر قد يتبدى لأي إنسان عادي.. أما بواطن النفوس.. فهي في الغيوب التي تفرد الله عزوجل بالإحاطة بها، لما لها من المكونات والدواعي والأسباب والمؤثرات سواء من الوراثة أوالتربية أو البيئة أو التكوين الجسدي أوالظروف.. التي لا يستطيع أحد الادعاء بالقدرة على حصرها.. ومن ثم على سبر أغوارها.. فكيف بنا ونحن أمام شخصية تاريخية صنعت تاريخ سورية الحديثة.. إن كل ماكتب.. وكل ماقيل.. وكل ماسيكتب عن القائد الخالد حافظ الأسد..لن يكون إلا نقطة في بحر شخصية الرئيس الأسد.

مقولات كثيرة تجسدت في أدبياتنا السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية استطاعت أن تدخل التاريخ لتصبح جزءاً لايتجزأ منه.

لقد انطلق الرئيس الخالد حافظ الأسد من الإنسان العربي .. على اعتبار أن الإنسان.هو غاية كل ثورة وهو أساس كل الموجودات الحسية في هذا الحياة... وهو من يبدع تاريخه ويصنعه.. فكانت أول خطوة هي بناء الإنسان العربي السوري على حد تعبير القائد الخالد:

«.. لَنَبنِ الإنسان الذي يبحث عن خلوده في خلود شعبه...».

والقائد الخالد.. عدّ الإنسان هو الثروة الحقيقية في سورية... إذا ما أحسن بناءُ هذ الإنسان البناء الصحيح، تحكم بالثروات الأخرى، وصنع نجاح الوطن.. وفي هذا الصدد يقول الرئيس الخالد حافظ الأسد: «.. إن الإنسان هو الأساس في كل نجاح ومهما صدر من قوانين وأنظمة ومهما توفر من أسباب التطور المادي، تبقى النتائج منوطة التنفيذ بوعي المواطن وإخلاصه وقدرته على استيعاب إمكانات التطور والتقدم..».

شعار المرحلة.. الوحدة والحرية والاشتراكية.

ومن أجل أن يعمل الإنسان بالاتجاه الصحيح والسليم.. رفع القائد الخالد شعار المرحلة.. الوحدة الحرية الاشتراكية.

ففي مجال الوحدة العربية، كانت الوحدة هاجس القائد الأسد وسعى لتحقيقها طوال حياته المليئة بالمواقف القومية.. مع أنه خلال مرحلة زمنية معينة طرح مفهوم التضامن العربي في حال تعذر الوحدة.. لكن الوحدة العربية بقيت الهاجس الذي ماانفك على التفكير به.. وماالتضامن العربي والوحدة الاقتصادية.. إلا مفاهيم أوجدها القائد الخالد لتصب في الينبوع الأساسي الوحدة العربية.

أما الحرية وهي الهدف الثاني لحزب البعث العربي الاشتراكي... فقد حرص الرئيس الأسد.. على إعطائها الوهج الحضاري والثقل الوطني والتاريخي على الصعيدين الداخلي والخارجي.. فعلى الصعيد الداخلي كان القائد الخالد يعي أن الحرية الحقيقية هي التي تكفل للمواطن العربي السوري العيش بكرامة وشرف... وهذا المسعى الذي استطاع أن يجعله حقيقية ماثلة طوال الثلاثة عقود الماضية.. فمن منا لايشعر بالفخر والإعتزاز لأنه ينتمي لسورية عرين الأسد لقد استطاع القائد الخالد حافظ الأسد.. أن يعيد التاريخ التليد.. ليجعله حاضرًا متوهجاً.. بعد أن كانت سورية مجرد بلد صغير على خارطة العالم.. أصبحت بلدًا كبيرًا بانجازاته ومواقفه السياسية والقومية التي ارتبطت بالرئيس الأسد..هذا التمازج السيمفوني المتوازن النغمات بين الوطن والقائد.. حقق هذه الوحدة الوطنية الراسخة.

أما على الصعيد الخارجي.. فقد آمن الرئيس الأسد.. بجميع القضايا العربية. وفي مقدمتها قضية فلسطين العربية، كما كان مناصرًا لجميع حركات التحرر في جميع أرجاء العالم، وكان يقينه الدائم.. أن الحرية العربية لن تكتمل إلا باستعادة جميع الأراضي العربية المحتلة.

والهدف الثالث للحزب.. هو الاشتراكية.. هذا المفهوم المرن الذي أخذ بعده الفلسفي والوطني في فكر الرئيس الخالد حافظ الأسد.

فالاشتراكية بالمفهوم الواسع والشامل تعني تحقيق العدالة الاجتماعية على كافة المستويات، وكما أكد الرئيس الأسد... على أهمية تحقيق العدالة للجميع.. أصر وأكد بأن العدالة لن تتحقق إلا بإعطاء المرأة فرصتها في تحقيق دورها الفاعل في الحياة والمجتمع، فقد أزاح ستار الظلمة عن المرأة السورية وجعلها تتبوأ أعلى المراتب والمناصب.. وهو القائل: «.. إذا كنا نريد لبلادنا أن تنمو وتزدهر ولشعبنا أن يحقق التقدم والنصر، فلابد أن تأخذ المرأة دورها كاملاً، وأن تتهيأ لها كل العوامل التي تمكنها من أخذ هذا الدور، ومالم تأخذ المرأة مكانها الطبيعي في مجتمعنا فإن ثغرة واسعة ستظل في كياننا تشكل منفذًا لكل عدو يريد أن يتسلل إلى قلب الوطن والشعب».

ومن أجل تحويل الشعار إلى حقيقة.. فقد أصدر الرئيس الخالد حافظ الأسد:

• عددًا من القوانين والتشريعات،أولاً التي تعزز حرية الإنسان ومكانته في المجتمع. يقول القائد الخالد «إن السكان هم الثروة الكبرى لأية أمة، وإن الإنسان هو العامل الحاسم في أي تقدم اقتصادي أواجتماعي». لكن ماهي الأدوات التي يمكن أن تعطى للإنسان ليستطيع الإبداع والعطاء؟... أولى هذه الأدوات...الحرية الشخصية... والحرية الوطنية والقومية.. فمتى تحرر الإنسان من الاستعمار والاستغلال وقيود التخلف والرجعية.. كان قادرًا على العيش بشكل متكافئ مع الحياة.. وبقدر ماتعطيه الحياة من مواد أولية... يستطيع أن يعطيها إبداعات وابتكارات تجعله ينجح في عيشه بتحقيق حياة هانئة ومستقرة وآمنه.

العلم والمعرفة، ثانياً.

فالعلم هو النور الذي يضيء الطريق أمام المعرفة.. والمعرفة تفتح آفاقًا واسعة نحو المستقبل الزاهر.. فكان بناء المدارس في كل مدينة وفي كل حي وفي كل قرية.. المفتاح الحقيقي للمعرفة والقضاء على الأمية والجهل والتخلف.. وكانت الجامعات المنتشرة في جميع محافظات القطر.. تفتح آفاقًا أمام العلم بجميع فروعه وتخصصاته.

يقول الرئيس حافظ الأسد: «.. الأمة التي تبني الإنسان المتسلح بالعلم والمعرفة والمتمتع بالوعي الاجتماعي، والمتحمل للمسؤولية، والمدرك لأهمية التواصل الحضاري والإنساني، تمتلك السلاح الأمضى، وتبني المستقبل الأفضل..».

التنظيم الوطني، ثالثًا.

فقد تم اعداد الجيل وتنظيمه في إطار مؤسسات وطنية من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب.

وهنا يحضر ني قول أسمعه دائمًا عندما أكون خارج سورية، وهو أننا نحن السوريون نتمتع بحس وطني وقومي متميز على مستوى الوطن العربي.. هذا الكلام صحيح... والحقيقة الأخرى أننا عرب سوريون رضعنا حب الوطن والقومية العربية مع حليب أمهاتنا إلا أن هذا الانتماء يحتاج إلى تدعيم وتعزيز، وهذا التعزيز تم في عهد الرئيس الخالد حافظ الأسد، من خلال المنظمات والنقابات والمؤسسات وأولى هذه المنظمات و المؤسسات التي ساهمت في صناعة الإنسان العربي في سورية هي منظمة طلائع البعث وفي هذه المؤسسة يتم إعداد الطفل القادم إعداداً تربويًا وسيسيولوجيًا للمستقبل. من خلال ترسيخ حب الأرض والوطن والدفاع عن القضايا الوطنية والقومية. من هنا كانت عناية الرئيس الأسد بالطفولة على أساس أنها اللبنة الأولى في طريق المستقبل الواعد وقد أراد لهذه المرحلة أن تكون أجمل مراحل الحياة بحق ولكي تكون سعيدة ومعافاة يجب أن يكون سلاحها العلم، وقد عبر الرئيس الخالد عن هذه بقوله:

«أريد لأطفالنا أن يعيشوا طفولة سعيدة ملؤها العلم والعافية والمعرفة». كما أن هذه المرحلة شكلت بالنسبة للأطفال وللقائد مصدرًا للتفاؤل بالغد المشرق فقال: «إنني أقرأ في عيون الأطفال الأمل والتفاؤل بالمستقبل» وعندما زار الرئيس الخالد حافظ الأسد معسكرات طلائع البعث في عام ١٩٧٥ كان همه الكبير أن يلقى الأطفال في هذه المعسكرات كل عناية وتوجيه ومعرفة وصقل للمواهب والقدرات فخاطب المشرفين قائلاً «أيها الأبناء المشرفون إن هؤلاء الأطفال أمانة وطنية وقومية في أعناقكم فحافظوا على هذه الأمانة» ومن أجمل العبارات التي قرأتها والتي قالها الرئيس حافظ الأسد عن الأطفال هي:

«غنوا مع الأطفال والعبوا معهم تعلموا منهم وعلموهم».

والمؤسسة الثانية هي منظمة شبيبة الثورة التي تؤسس لجيل الشباب جيل الغد القريب الذي سيحمل الأمانة والمسؤولية ويتم فيها تأهيلهم أفضل تأهيل ليتابعوا مسيرة العطاء والبناء بوتائر متنامية دون كمل أو تقاعس متمسكين بالحس الوطني والقومي حاملين أصالة الماضي وتطلعات المستقبل. وفي أحد مؤتمرات الشبيبة خاطبهم الرئيس الخالد حافظ الأسد قائلاً «شبيبتنا يجب أن تكون قوة إباء، معين

عطاء، طاقة إنتاج، سلاح عدل ومساواة، قوة القيم الوطنية والقومية. شبيبتنا يجب أن تكون قوة تحدي التحدي بكل أشكاله، وقوة سحق الغزو والعدوان بكل ألوانه».

أما المؤسسة الثالثة التي تعد الأجيال فهي اتحاد الطلبة هذه الطليعة المثقفة والواعية والمتسلحة بالعلم والمعرفة والمبادئ والثوابت القومية والوطنية والشريحة المندمجة مع التغيرات والتطورات الحاصلة والمطلعة على أهم الإنجازات داخل القطر وخارجه.. هذه الشريحة عماد الوطن تبحث عن مكامن العطاء والعمل، وهي الأقدر على التعامل مع العصر بتطوراته وتبدلاته لأنها صقلت بالمبادئ الوطنية والقومية في المؤسستين السابقتين وهي الآن قادرة على خلق المناخ المناسب لعملية البناء، ومعرفة الطريق القويم لإكمال مشوار العطاء باتجاه المستقبل، من أجل هذا كله أوجد صاحب الفكر المؤسساتي الرئيس الخالد حافظ الأسد هذه المنظمات الطلابية وكان يعي تمامًا بأن إعداد الجيل يعني ثروة يعني عطاء، يعني مسؤولية ويعني بناء وعن الشباب قال القائد الخالد: نحن في سورية ننظر إلى أجيال الشباب على أنهم الرصيد الأكبر لوطننا وثروته الأغلى، واحتياطه الأضخم، وعلى أنهم عدة المستقبل، وأداة صنعه الرئيسية والقوة والأمل وعلى أنهم يمثلون المستقبل المشرق».

وأجمل ماقيل عن الشباب جاء على لسان القائد الخالد حافظ الأسد حين قال: «الشباب أمل الحاضر في المستقبل وأمل المستقبل في الحاضر، يرجو الحاضر مستقبلاً مزدهرًا ويرجو المستقبل حاضرًا يوفر عوامل الإزدهار».

طبعًا الفكر المؤسساتي الذي نعمت به سورية لمدة ثلاثة عقود على التوالي وماتزال لم يشمل الجيل فقط. بل كان بناء الجيل هو اللبنة الأولى في عملية بناء المستقبل لقد كانت المؤسسات منتشرة من خلال منظمات وتنظيمات تبني وتقوى البنيان الوطني والقومي.

نحن نفتخر أننا من الجيل الذي أسسه الرئيس حافظ الأسد فقد أصبحت سوريا بعد قيام الحركة التصحيحية المجيدة جنة الله على الأرض مزدهرة بانجازاتها وعمرانها وتمسكها بالأصالة العربية القديمة. سورية الأسد اختلفت تمامًا، لم تعد مجرد جغرافية بل أصبحت وطنًا داخل وطن لها ثقلها العربي والعالمي وهذا مايجعل الزائر أو السائح الأجنبيّ الذي يزورها يبهر بالإنجازات التي تحققت بأيدي أبنائها وهي الآن تقف قلعة للصمود والتحدي في وجه كل معتد وتحمل حمائم السلام لكل الأصدقاء.

هي ذي سورية الحديثة التي بناها القائد الخالد حافظ الأسد.